الأب الياس زحلاوي

المسيحيّة واليهوديّة

بين الماضي والحاضر

المسيحيّة واليهوديّة بين الماضي والحاضر

بقلم الأب الياس زحلاوي

2016

المسيحية واليهودية
بين الماضي والحاضر

الأب الياس زحلاوي

الأب الياس زحلاوي

المسيحيّة واليهوديّة

بين الماضي والحاضر

2016

حقـوق الطبــع محفوظـة للمؤلف

الطبعــة الأولى

2016

إهـــداء

إلى سورية...

فادية العالم القادم!...

شهادة للحق في زمن الباطل

حسن حمادة

أيّ بحث في تاريخ العلاقة بين الكنيس اليهودي والكنيسة المسيحية، لا بدّ له من أن يبدأ من الجذور، أي من ولادة السيد المسيح، فحياته وتعاليمه وآلامه وفدائه وقيامته، أي من طيّ صفحة العهد القديم والدخول في العهد الجديد.

"هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، والذي يُسفكُ من أجل كثيرين. الحقَّ أقول لكم، لا أشرب بعد (اليوم) من نتاج الكرمة أبداً، إلى ذلك اليوم الذي أشربه فيه جديداً في ملكوت الله".

من يشرب من كرمة العهد القديم، اليهودي، يَضلُ ويُضلّل. يضيع ويُضيّع الآخرين، يخدع نفسه ويخدعهم.

إنّ عدم استعداد الكنيس لتقبّل العهد الجديد، ورفضه المطلق له، تُرجم اضطهاداً للسيد المسيح وللمسيحيّين طيلةَ القرون الثلاثة الأولى للميلاد. ولم يتوقّف هذا الاضطهاد إلاّ في القرن الرابع، على إثر اعتناق قسطنطين للمسيحيّة، فصارت المسيحيّة دينَ الدولة الإمبراطوريّة، فما عاد بمقدور الكنيس أن يضطهد الكنيسة، وأن يشيطن أبناءها، وأن يحلّل دمَهم...

المسألة، في هذه الحال مسألة قدرة، على الاضطهاد أو عدم قدرة، مسألةٌ تعود جذورُها إلى مدى تقيّد كلّ من الكنيس والكنيسة، كمؤسّسة، بتعاليم دينه، أي بالنصّ المقدّس، في نظر الكنيس، والمقدّس في نظر المؤسّسة الكنسيّة.

مؤلف هذا الكتاب - المرجع، الكاهن العلاّمة، وهو مربّي لأجيال،

الأب الياس زحلاوي، يقارب هذه الإشكالية بتجرّد ونزاهة، قلّ نظيرهما بين المؤرّخين والباحثين، تحدوه الأمانة للتعاليم المسيحيّة لأن يقول الصدق، كلّ الصدق، إلى حدّ الاعتراف بحدوث اضطهاد لليهود، للكنيس، على يد المؤسسة الكنسيّة، خصوصاً في الغرب الأوروبي، وفي بلدان محدّدة، ليس في كل البلدان، وفي مراحل محدّدة وليس في كلّ المراحل، وعلى مدى ألف عام، من الزمن هي حقبة القرون الوسطى الممتدّة من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر، حيث بلغ الاستنساب في الأحكام المعنيّة بهذا الاضطهاد حدوده القصوى. فأتى تشرذم اليهود، أو ازدهارهم، رهناً بمشيئة "البابوات والملوك، أو الأساقفة والمجامع، أو الخلفاء والنبلاء، وأحياناً على جموع الشعب أو الرعاع هنا وهناك. كما يتوقّف أيضاً على القوانين المختلفة، القديمة أو المرتجلة، التي كان مصيرهم مرهوناً بها"... كما يذكر الأب المؤرّخ الأمين، الذي استبعد من مراجعه البحثيّة ما جاء في كتابات المتعصّبين من أهل المؤسسة الكنسيّة المسيحيّة وأتباعها، ومن الكنيس وأتباعه.

في سياق سردِه الأمين، للوقائع التاريخية، يحلّق الكاهن العلاّمة فوق الحقبات، على علوٍ مرتفع، شاهق، بحيث يشرف على أدقّ التفاصيل، دون انفعالٍ أو تحيّز أو تحزّب، متقيّداً بدقّةٍ بالتعاليم المسيحيّة، الإنسانيّة الأخلاقيّة.

يعطي لكلّ ذي حقٍّ حقّه، متجنّباً أي انحراف أو تعميم.

التعميم... يطعن الصدقيّة في الصميم. هذا ما استبعده الأب زحلاوي. نراه يذهب في الصدق إلى حدّ الاعتراف الواضح بوجود "لاساميّة"، عند بعض أهل المؤسسة الكنسيّة، إذ أنّ "الكنيسة"، بما هي تعبير عن جسد المسيح، لا يمكنها التمييز بين البشر. كلام

الفادي يبدأ بـ "الحقَّ أقول لكم". والحقّ يقضي بالاعتراف أيضاً بأنّ من الملوك في حقبة القرون الوسطى من التزم بالعدل بين الرعية، كـ "تيودوريك" (493–526م) الذي حرص على المساواة أمام القانون، فخاطب اليهود وباقي رعايا مملكته بقولٍ مشهود يمكن اعتباره مَسهماً في تأسيس الدولة المدنيّة على قاعدة القانون الروماني في الحقبة المسيحيّة:

"إنّ الذين يحيدون عن الطريق المستقيم في أمور الدين، لا يجوز لأحدٍ أن يحرمَهم من نعمة العدالة.

ونحن لن نستخدم القوة في أمور الدين، لأنه لا يجوز لأحدٍ أن يُكـــره إنساناً على الإيمان".

كم يلتقي الكلام هذا مع ما جاء، بعد أكثر من مئة عام، في القرآن الكريم، من آيات بيّنات، ملؤها العدالة والرحمة: "لا إكراه في الدين..."، و"لو شاء ربُّك لآمن مَن في الأرض كلّهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"... و"من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر"...

وكذلك فعل الحبر الأعظم الملقّب بـ "البابا الكبير"، غريغوريوس الأول، العادل، الصارم، والذي أرسل توجيهاً لأسقف مدينة "باليرما" الإيطالية، يقول:

"مثلما أنه لا يجوز لليهود أن يرتادوا كنسهم، إلاّ وفق التعليمـــات الواردة في القانون، فإنه لا يجوز لأحدٍ أن يرفض لهم مـــا يجيـــزه لهـــم القانون".

هذا القول الفاصل، استبق المجمع الفاتيكاني الثاني بحوالي الألف وأربعمئة عام، ويمكن اعتباره مؤسّساً لنهج المؤسسة الكنسية في رفض "اللاساميّة".

حقائق ووقائع كثيرة يكشف عنها هذا النتاج القيّم الذي أتى به الأب زحلاوي. حقائق لا بدّ منها لتصحيح العديد... العديد من المفاهيم والشعارات المضلّلة التي تمكّنت الصهيونية من تعميمها في زمننا الراهن.

الأب زحلاوي، وباعتماده الصدق كقاعدة مطلقة، أدان الكثير من سلوكيّات المؤسّسة الكنسية، الأمر الذي يعزّز من صدقيّة إدانته الحاسمة لسلوكيّات الكنيس، وأهله ورعاياه، وفي مقدّمتهم الحركة الصهيونيّة وهيمنتها وجرائمها في القرن الأخير، والخضوع المشين لهذه الهيمنة من قبل الدول التي تزعم أنها "دول قانون"، و"حقوق إنسان"... وهو ما خصّه الأب زحلاوي في الجزء الأخير من نتاجه.

يبقى أنّ ظاهرة اللاسامية، لا تقتصر على المؤسسة الكنسية، مع بعض الاستثناءات التي لا يجوز تجاهلها على الإطلاق، مثلما لا يجوز تجاهل المؤرّخين الصادقين ولو كانوا قلّةً قليلة، كالأب زحلاوي نفسه، وهو الذي تعمّد إعادة الاعتبار لهؤلاء المؤرّخين الصادقين. فظاهرة اللاسامية موجودة اليوم، بل هي مستفحلة ضد بعض اليهود. ووجودها هنا يكمن في الحركة الصهيونية، العنصرية المتوحشة، بحقّ من هم يهود ويرفضون الصهيونية، ويدينون إسرائيل وجرائمها. والشهادة للحقّ تقتضي الاعتراف لهؤلاء، بصدقهم وإنسانيّتهم وتضحياتهم، وهم مستهدفون من الحركة الصهيونية وإسرائيل. وبالتالي من الخاضعين للحركة الصهيونية وإسرائيل.

من نتاج هؤلاء اليهود، الذين تمارس الحركة الصهيونية بحقّهم جرائم "لاساميّة"، لمجرّد دفاعهم القوي عن حقوق شعب فلسطين، وتنديدهم وشجبهم القوي، للكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين،

بدعم من دول الاستعمار، الحاضر والبائد على حدّ سواء، من نتاج هؤلاء المتمرّدين على إسرائيل والصهيونية، نساء ورجال أحرار يتعرّضون للاضطهاد. منهم من أقدمت الصهيونية على تصفيتهم، ومنهم من ينتظر التصفية، ولا يبدّلون تبديلا. نذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر، الراحل إسرائيل شاحاك، ونورمان فينكلشتاين، والموسيقار جيلاد أتسمون، والمؤرخ شلومو ساند، والكاتب إسرائيل شامير، والمؤرخة ليفيا روكاخ التي قتلها جهاز "الموساد" الإسرائيلي... وغيرهم العشرات.

وللأمانة والتاريخ، لا بدّ من إدانة الحكومات الغربية التي تمتنع عن حمايتهم وعن معاقبة العصابات الصهيونية التي تعتدي عليهم بقصد قتلهم. والمثال الأبرز في هذا المجال اليوم ما حدث ويحدث مع الكاتب الفرنسي، المغربي الأصل، جاكوب كوهين، الذي تعرّض لمراتٍ عدة، لمحاولات اغتيال على يد هذه العصابات، ولم تحرّك السلطات الفرنسيّة ساكناً لحمايته، أو لملاحقة المعتدين عليه. كما أنّ حكومات الصهيونيّة العربيّة تمتنع عن الانفتاح عليهم واحتضانهم، لا لشيء، سوى لكون إسرائيل تهدر دمهم.

باختصار، إنّ هذا النتاج يغني المكتبة التاريخية في بلادنا، كما في الغرب والعالم أجمع. إنه شهادة للحقّ في زمنٍ يسود فيه الباطل. إنه كتاب من كتب الفضيلة. ومن الفضيلة كلمة حقّ في حضرة سلطان جائر.

طوبى لأيّ دار نشر في الغرب سيجرؤ على نشر ترجماتٍ لهذا التاريخ الصادق للعلاقة ما بين المسيحيّة واليهوديّة.

بمثابة مقدمة

بعض الحاضر في ضوء الماضي

الحوار بين المسيحية واليهودية صراع - وصراع قديم - بدأ منذ اللحظة الأولى لظهور المسيح. واستمرّ في صعود وهبوط إلى اليوم، حيث نعيش، نحن العرب، بعض أكثر ذيوله وحشيّةً وخطراً.

سوف أستعرض في بحثي هذا، جذور هذا الصراع وظواهره ونتائجه، لأنتهي إلى امتداده اليوم: الصراع الراهن على أرض فلسطين والوطن العربي.

حسبي اليوم، في عجالة أريدها وجيزة للغاية، أن أربط بين ظاهرتين متماثلتين، عاش أولاهما الشعب اليهودي في الأمس البعيد البعيد، ويعيش ثانيتهما الشعب العربي اليوم بالذات.

هاتان الظاهرتان هما ظاهرة تجريد اليهودية ممّا تعتبره مقوّماتها الدينية، على يد المسيحية، وظاهرة تجريد الشعب الفلسطيني من مقوّماته الوجودية، على يد الصهيونية.

يؤكد التاريخ:

أنّ اللاسامية ليست وليدة المسيحية، بل سابقة لها...

وأنّ اليهودية قاومت المسيحية ما وسعتها المقاومة...

وأنّ المسيحية يوم استتبّ لها الأمر، انقلبت على اليهودية...

ليس بخافٍ على أحد أنّ المسيح ابنُ فلسطين. وأنه يهودي ينتمي

إلى العهد القديم من حيث الوعد الإلهي بمجيئه منقذاً للبشرية، ومكملاً لجميع الوعود الإلهية، بحيث أنه انتزع من اليهود الأمانة، وجسّدها في ذاته، ملغياً بذلك كل ما يمكن أن يكون من بعده وعداً بأرض أو بملكوت، مجسّداً في ذاته ملء الملكوت الإلهي. ولذلك عينه رُفض وقُووم وقُتل.

وهكذا أيضاً، من بعده، فهمت الكنيسة المسيحية رسالة المسيح. وأخذت تنادي بذلك، مؤكّدة أنّ اليهود سقطوا من الوعد لأنهم أساؤوا فهم الوعد وتنكّروا له، وأعلنت أنّ كلّ إنسان مدعوّ للمشاركة في تحقيق هذا الوعد، وأنّ الشعب المختار إنما هو الإنسانية جمعاء إذ تشارك في تحقيق هذا الوعد، محبّة تنبع من محبّة الله للإنسان، وتنصبّ على كلّ إنسان دونما تمييز.

من هنا كان أنّ المسيحية اعتبرت نفسَها المؤتمنة الوحيدة على العهدين القديم والجديد: القديم تمهيداً لمجيء المسيح وحسب، والجديد تدويناً أميناً لسيرته، قولاً وعملاً ودعوةً، فكان هذا السبب الأول لمناهضة اليهود لها، بعد مناهضتهم للمسيح.

ثمّ إنّ المسيحيّين الأوائل كانوا ينتمون، إلاّ القلّة القليلة جداً منهم، إلى الطبقات الفقيرة، بل إلى قطاعات واسعة من الرقيق.
فكان هذا المنفذ الكبير لترجمة هذه المناهضة، تحريضاً واضطهاداً.

وأصرّت الكنيسة على اعتبار الكتاب المقدّس، بشقّيه القديم والجديد، ملكاً خاصاً لها، ائتُمِنت عليه دون سواها.

صحيح أنّ صلواتِها وقراءاتِها وطقوسَها ترتكز، في معظمها، على قاعدة من العهد القديم نفسه، ولكنّها كانت دوماً تؤكّد بلسان

وأقلام أعظم كتابها وخطبائها، أنّ اليهود انتهوا كشعب مختار، وأن مبرّر وجودهم زال بالكلية بظهور المسيح، وأنهم مطالبون، أمانةً منهم لأبي الآباء إبراهيم الخليل، داعية الوحدانيّة الأكبر، بالإيمان بالمسيح نفسه. وبذلك جرّدتهم من أعظم مقوّماتهم الدينية.

ولكن الأمور لم تكن لتسير بسهولة، نظراً للجذور التي كانت اليهودية قد ضربتها في مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية، من دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية، ونظراً أيضاً للجاذبية التي كانت تمارسها على المسيحيين الأوائل - حتى أنّ الرسل أنفسهم لم ينجوا من تأثيرها، في المرحلة الأولى من الدعوة، بُعيد صعود المسيح - بسبب ارتباطهم المستمرّ بالهيكل مكاناً للصلاة والعبادة، وبسبب ارتكازهم على عادات وطقوس ومفاهيم ومعايير، ورثوها منذ قرون...

حتى إنّ بعض المسيحيين لم يكن ليتورّع عن استفتاء بعض الحاخاميّين هنا وهناك، حول العقيدة والأحكام...

إلاّ أنّ الوضع تبدّل يوم تحوّلت المسيحية إلى عقيدة للدولة، فاستحال الضعف قوة، والمطاردة اضطهاداً...

فاتّخذت إجراءاتٌ صارمة ضدّ اليهود، من ذلك مثلاً أنه لم يعد يجوز لهم أن يُدخِلوا إصلاحاتٍ ما على أبنيتهم الخاصة للعبادة - الكُنُس - أيّاً كان وضع البناء، وذلك كي تظهر للعيان، حتى عبر الأبنية، وصمةُ التردّي الديني والأخلاقي التي كانوا يوصمون بها...

وفي المقابل كانت المسيحية قد انتقلت من طور الصلاة في الدياميس والبيوت الخاصة، إلى طور الصلاة الرسمية في أماكن فخمة يُنفَق عليها، بناءً وزينةً، من الخزينة الإمبراطورية نفسها... وكان الذين يقيمون الصلاة من بطاركة وأساقفة وكهنة، يأخذون

شيئاً فشيئاً بارتداء ألبسة شبيهة جداً بتلك التي يرتديها الأمراء والأباطرة في قصورهم وبلاطاتهم...

وامتداداً لذلك عَرفت الجاليات اليهودية هبوطاً ملحوظاً في حياتها المادية والاجتماعية، بينما كانت الأوساط المسيحية الآخذة في التزايد، ترتقي بسرعة بمستواها المادي والاجتماعي.

ذلك كان بإيجاز كبير الوجه الديني الصرف للصراع بين المسيحية واليهودية...

ثمّة وجه آخر لهذا الصراع، هو وجه اقتصادي، لا بدّ من الإشارة إليه بإيجاز أيضاً...

لم تعد الكنيسة مجرّد مؤسّسة دينيّة، بل اتّسع نفوذها بقدر اتساع التحالف بينها وبين السلطة آنذاك، بحيث باتت كل منهما تساند الأخرى.

بذلك تسنّى للكنيسة أن تنتقل إلى مرحلة أخرى من صراعها مع اليهودية، بمرحلة انتزاع الأراضي من اليهود... وقد تمّ ذلك بطرق كثيرة، أكثرها مشروعية تلك التي اعتمدت تشريعات جديدة ارتكزت على منظور... لاهوتي...

كانت التشريعات تحظّر على اليهود امتلاك أرقّاء مسيحيين، خشية الضغط عليهم، وحملهم بالتالي على اعتناق اليهودية... فكان أن اضطرّ الملاّكون اليهود أوّلاً إلى إعتاق الأرقّاء المسيحيين، كما أنّ الأرقّاء الوثن وجدوا منفذاً لهم إلى الحرية، عن طريق اعتناق المسيحيّة...

ولما كان نظام ملكية الأراضي يعتمد المساحات الشاسعة، تعذّر شيئاً فشيئاً على اليهود العمل في الأرض كما في السابق، ولا سيما

في المناطق التي كان اليهود فيها قليلي العدد... مما اضطرّ الملاّكين اليهود إلى اللجوء إلى بيع أراضيهم.

من ناحية أخرى، اتُّخِذت إجراءات محدّدة لتحريم الوظائف على اليهود، بصورة غير مباشرة، وذلك بفرض قَسَمٍ ديني، كان على كلّ موظف أن يقطعه على نفسه، ليعلن فيه ولاءَه للإمبراطور وجميع مؤسّسات الإمبراطورية.

وبذلك فُرِضت على اليهود عملية مزدوجة، دينية واجتماعية، أخرجتهم شيئاً فشيئاً من قلب الحياة العامّة، ومن مواقع النفوذ فيها، لتزجّ بهم إلى هامشها...

وبديهي أنّ هذا كلّه - وغيره كثير سوف نفصّله في ما بعد - لم يحدث دونما تبريرات. ولكن التبرير الأكبر كان من النوع الذي لا يمكن أن يطالَه نقاش: تبرير ديني يستند إلى موقف اليهود من المسيح: عداء انتهى بهم إلى صلبه وقتله.

فهل ثمّة من مكان لمهادنة قوم، تلك مبادئهم وأفعالهم؟...
ذلك هو بإيجاز مفرط بعض ما كان بالأمس البعيد البعيد...

واليوم...؟

اليوم نجدنا أمام مقارنة مدهشة بالعديد من وجوهها:

اليهودية أنجبت حركة سياسية اقتصادية: الصهيونية.

الصهيونية تحالفت مع قوى سياسية، خوّلت نفسها الحقّ على تنفيذ مخطّطاتها: سعت إلى استعادة اليهودية عبر الوعد الإلهي المزعوم.

وسعت إلى ترجمة هذا الوعد بالأرض، على أرض عُرِضت عليها نماذج منها في أوغندا وأستراليا والأرجنتين، ولكن "المناقصة" رست

أخيراً على أرض فلسطين - لأسباب غير إلهيّة بالتأكيد - وذلك بفضل قوّة استعمرت فلسطين آنذاك: "بريطانيا العظمى"...

ولما أكملت الصهيونية قوّتها كدولة، تابعت العملية...

وكانت بداية العملية بتجريد الفلسطينيين من أرضهم...

صحيح أن بعض المستوطنين اليهود الأوائل تسرّبوا إلى فلسطين قبل دخول بريطانيا إليها، وبدأوا تنفيذ مشروعهم الاستيطاني فيها... قلّما وُفِّقوا إلى شراء الأراضي من سكانها العرب، حتى أن المراجع الصهيونية نفسها تؤكّد أنّ مجمل ما كان يمتلكه اليهود عام التقسيم بالذات، لم يكن ليتجاوز 7 بالمائة من مجموع المساحة...

ولكن عملية انتزاع الأراضي بدأت منتظمة، مستندة إلى "تشريع"، يوم صمّمت "السلطة المنتدبة" على فرض سلسلة من الإجراءات والتشريعات، الاقتصادية والجمركية والمصرفية، اضطرّ معها السكان العرب شيئاً فشيئاً، إلى الاستدانة من المصارف - وكانت أصبحت كلّها يهودية - وإلى رهن أراضيهم، فضلاً عن إغراء المال الرهيب الذي دفع بعضهم إلى بيعها راضياً... وقد اتّخذت هذه الظاهرة "القانونية" شكلها الواضح والخطير منذ عام 1930.

وأما ما حدث منذ إنشاء دولة إسرائيل، على صعيد انتزاع الأراضي بالذات، فأمرٌ يتخطّى كلّ مشروعية، إذ هو يعتمد الاستيلاء والتهجير القسري، وتدمير القرى ومحوها من الوجود، ونسف البيوت... كل ذلك باسم أسطورة امتلاك الشعب اليهودي وحده لكامل أراضي "إسرائيل الوعد" - علماً بأنّ أحداً من المسؤولين الإسرائيليين لم يعلن إلى اليوم خطوط حدود "إسرائيل" - وباسم "الوعد الإلهي" و"الأمن القومي" و"إعطاء أرض خالية لشعب لا أرض له..."، وأيضاً باسم البحث عن آثار الأجداد...

وبعد انتزاع الأرض،

كان لا بدّ من انتزاع التراث والثقافة.

وهذا يفترض... إزالة الشعب.

وكان لهم ذلك، إذ كان المسؤولون الإسرائيليون يؤكّدون دوماً بأنّ ليس هناك ما يسمّى الشعب الفلسطيني...

عملية انتزاع مقوّمات الوجود تبلغ بذلك أقصى حدودها...

فكما أعلنت المسيحية ملكيّتها للوعد والعهد والرسالة...

كذلك أعلنت الصهيونية ملكيّتها للوعد والعهد والأرض...

وكلّ ما عداها على هذه الأرض... لا وجود له، لأنها هي التي تقرّر وجوده أو عدمه...

وبذلك يؤكّدون أنّ فلسطين كانت دوماً... يهودية، تاريخاً وثقافة وشعباً...

ولئن قال التاريخ عكس ذلك، فلا حرج أن... يُصحَّح، ليقال أن فلسطين كانت يهودية، حتى أنّ مرجعاً علمياً عالمياً بمستوى الموسوعة الفرنسية المسمّاة "لاروس"، لا تتورّع في مقالتها عن فلسطين، عن تخصيص صفحات طويلة مستفيضة لعهودها الكتابية القديمة، لتوجز بفقرة صغيرة جداً التاريخ الكامل للفترة الواقعة بين القرن السابع الميلادي وأواخر القرن التاسع عشر، ثمّ تخصّ بصفحات مطوّلة المرحلة الحالية بدءاً من فترة الاستيطان الصهيوني لفلسطين أواخر القرن التاسع عشر.

والشعب العربي المقيم أصلاً في فلسطين، قبل وأثناء وبعد غزو الصهيونية لها؟...

هذا الشعب... لا وجود له...

ولا بأس مع ذلك إن كانت الوثائق الرسمية، المحلية منها

والانتدابية والدولية - بل والصهيونية أيضاً - تؤكّد أنّ الشعب العربي كان في فلسطين يشكل بالحد الأدنى، 90 بالمائة من مجموع السكان...

ولا بأس أيضاً إن كانت الوثائق نفسها تؤكّد أنّ ما لا يقلّ عن مليون ونصف المليون من السكان العرب، قد خرجوا من فلسطين بين عام 1947 وعام 1948.

لا بأس بكلّ ذلك.

لأنّ الصهاينة ينفون أبداً وبإصرار، وجود ما يسمّى الشعب الفلسطيني...

أمّا أن يباد هذا الشعب، أو يُهجّر، أو يُقتَل، أو يُقاتِل، أو يُقاوِم، فكلّ ذلك ليس بالبرهان الكافي...

بل هو هو التبرير الضروري للصهيونية:

قتلونا...

فلنقتلهم...

لا بأس إن كان الذي قاتل اليهود عبر الألفي عام الماضية... هو الغرب والغرب وحده.

المسيحيّة برّرت قديماً قتل اليهود بقتلهم المسيح...

والصهيونية تبرّر اليوم قتل فلسطين والفلسطينيين والعرب والمسلمين، بقتل الغرب لليهود...

ذلك هو منطق الصهيونية...

الفصل الأوّل

اللاسامية في العصور القديمة

السؤال - المفتاح:

من المُسلَّم به أن "سام" هو الجدّ الأوّل الذي تحدّرت منه الشعوب السامية، ومنها العرب واليهود.

ومن المفروض بالتالي أن كلمة "لاسامية" يجب أن تعني معاداة المتحدّرين من هذا الأصل دونما تمييز.

ولكن من المعروف أنّ هذه الكلمة لم تعنِ يوماً معاداة جميع هذه الشعوب، بل هي كانت وما تزال تعني معاداة اليهود دون سواهم...

لماذا؟... لماذا؟...

لماذا هذا التحديد وهذا التخصيص في مدلول الكلمة؟

لا شكّ أنّ في هذا التخصيص دلالة كبيرة...

ولا شكّ أن البحث عن أسبابه سيكشف أمامنا حقائق يجدر بنا أن نتذكّرها في خضمّ التشوّشات الفكرية التي تثيرها، لدى النزيه والمغرض معاً، الأحداث القائمة في الشرق الأوسط، وعلى أرض فلسطين بالذات...

ذلك هو السؤال الذي سيوجّه بحثنا في الفصول القادمة:

لماذا هذا التحديد والتخصيص في مدلول اللاسامية؟

ومن المسؤول عنهما؟

الفقرة الأولى: من البدء حتى نهاية العصر الهيليني

لنقرّ منذ الآن بواقعة مؤسفة، ولكنّها ذات دلالة كبيرة أيضاً.

إنّ معظم - إن لم نقل جميع - مَن بحثوا ويبحثون في الغرب هذا الأمر، ويستنطقون التاريخ والأحداث بهذا الشأن، هم من اليهود أو الصهيونيين، أو ممّن تأثّروا تأثّراً كبيراً باليهودية، سواء من حيث الفكر اللاهوتي، أو من حيث الرؤية السياسية...

وليس من شك أنهم التزموا إلى حدٍّ ما جانب الموضوعية، إذ إنّ التاريخ وقائع لا يمكن محوها، أو إنكارها، أو تزييفها دوماً، بالسهولة التي قد يتمنّاها البعض...

ولكن ما من شكّ أيضاً أنهم كثيراً ما قوّلوا التاريخ ما لم يقل، ذلك بأنّ التاريخ أيضاً قراءة لهذه الأحداث والوقائع...

وتلك هي بالذات حجّتنا في استنطاقنا التاريخ: هم الشهود على أنفسهم، ولسنا في ما نرمي إليه، بحاجة إلى شهود غيرهم:
تكفينا شهادتهم...
ماذا تقول هذه الشهادة في خطوطها الرئيسية؟

ثمّة واقعتان أساسيّتان تُجمِع عليهما جميع هذه الدراسات:

الأولى،

إنّ اليهود جاؤوا أرضاً كان يسكنها قوم قبلهم، وجاؤوها بقوّة السلاح، غزاةً فاتحين، وإنهم أعملوا فيهم السيف ما وسعتهم القوة والحيلة والتحالفات...

الثانية،

إنّ اليهود ادّعوا لأنفسهم امتيازاً فريداً، إذ اعتبروا أنفسهم،

موضع اختيار إلهيّ، خصّهم به الله دون سائر الشعوب، وروّجوا لهذا الادّعاء، باستعلاء واستمرار عبر تاريخهم كلّه، وعبر المجتمعات كلها.

فماذا كانت النتيجة الطبيعية لهاتين الواقعتين؟

طبيعي أن ينجم عنهما عداوة عميقة على مستويين، هما أكثر المستويات عمقاً في الإنسان:

- مستوى الوجود: الوجود في الأرض، والوجود مع بني القوم، والوجود الحضاري كلّه...
- مستوى الهوية: هوية الإنسان المختار لدى الله، والمفضّل على سائر الناس. وما يستتبع ذلك من علاقات مع سائر الشعوب.

وبذلك وضع اليهود أنفسهم في مواجهة مباشرة وجذرية:

أولاً، مع سكان الأرض الضيّقة، فلسطين، التي دخلوها غزاةً فاتحين.

ثانياً، مع سكان الأرض الواسعة التي سيحلّون فيها تجّاراً، أو سيُحمَلون إليها إثر الجلاء الأول (عام 721 ق.م.) والثاني (عام 586 ق.م.)، أو إثر حروب واضطرابات أخرى كثيرة.

تلك حقيقة ثابتة يُقرّها التاريخ ولا ينكرها أيّ من الباحثين، حتى أكثرهم انحيازاً للصهيونية اليوم...

وثانوي جدّاً في نظرنا البتّ في صحّة الوعد الإلهي، الذي يدّعون أنهم دخلوا الأرض بموجبه.

وثانوي جداً أيضاً البت كذلك في صحة الاختيار الإلهي الذي ينسبونه لأنفسهم... فالتاريخ لا يقوّم الله، إنما هو يقوّم بشراً.

وحسبنا من البشر ما فعلوا...

أما أن يكونوا فعلوا ما فعلوه باسم الله، أو باسم أنفسهم، فهذا لا شأن له بدراسة التاريخ... لا من قريب ولا من بعيد...

لنستنطق إذن وقائع التاريخ، دون تأويل ديني أو لاهوتي...

من المؤرّخين واللاهوتيّين مَن شاء أن يعود بجذور اللاسامية، كحركة عنصرية مناهضة لليهود، إلى العهود الأولى، بل إلى الوجود العبري في مصر أيام الفراعنة، حتى أنّ الأسقف الفرنسي "شارل جورنيه"، يرى في خروج العبرانيين من مصر، نتيجة مباشرة لأوّل اضطهاد دموي حلّ باليهود عبر التاريخ، وبدافع عداوة عنصرية صرف... وإنهم ليذهبون في ذلك إلى ربط هذه المعاداة للعبرانيين، بالعداوة التي كان يكنّها المصريون لقبائل الهيكسوس التي جاءتهم من الشرق، والتي أذاقتهم طويلاً مرارة الاحتلال.

ومن المؤرّخين أيضاً مَن ينفي هذه الدعوى، ويعتبرها قراءة مغرضة للتاريخ، ولكنه إلى ذلك يقرّ بأنّ فكرة الاختيار الإلهي التي استمرّ تبلورها منذ الخروج من مصر، حتى العودة إلى القدس بعد الجلاء الثاني، عام 537، بأمر من قورش نفسه، قد أحدثت لديهم نزعة حتمية إلى الانعزال الذاتي، ذلك الانعزال الذي بلغ أوجه في عهد الثنائي نحميا وعزرا في منتصف القرن الخامس، فتسبّب في ظهور "بعض العوامل التي من شأنها أن تولد اللاسامية".

وهناك مِن يرى أنّ اليهود لم يستثيروا العداء لهم في شكله العنصري المعروف باللاسامية، طالما كانوا يعيشون على... أرضهم (كذا)... ولكن هذا العداء أخذت بوادره العنصرية تتبدّى بجلاء منذ بدء الشتات، ولم يتّخذ شكله العنصري السافر إلاّ في القرن الثالث.

لنستعرض قليلاً هذه الحقبة.

يعترف المؤرّخ اليهودي يوسيفوس بالصعوبة التي واجهها في تفسير إعراض المؤرّخين الإغريق - وهم أوّل من كتب التاريخ - عن ذكر اليهود. وهو يعزو ذلك في نتيجة التحليل، إلى انعزال اليهود في منطقة جبلية، حيث يعيشون حياة زراعية بعيدة عن خطوط التجارة الدولية... ومن الثابت أنّ أعظم المؤرّخين الإغريق، الذي هو هيرودوتس، لم يأتِ على ذكر اليهود، ولا مرة واحدة في جميع ما كتب، علماً بأنه زار بلاد الشرق كلها، بما فيها "فلسطين سورية" كما يسمّيها...

ومع بدء القرن التاسع، بدأ اليهود انتشارهم

جلاء...

وهجرة...

ونشأت لهم مراكز دينية أولاً، ثم اجتماعية وتجارية هنا وهناك، ولا سيما في بابل ومصر وروما نفسها. ثم تناثروا في منطقة البحر الأبيض المتوسط كلها: من فارس إلى أرمينيا والعربية والحبشة، وحتى إسبانيا وبريطانيا...

كانت العلاقات بين اليهود وسائر الأقوام، بادئ ذي بدء، طبيعية، لا تتّسم بأي توتّر، ذلك بأن اليهود، في ما يبدو، واصلوا العمل الزراعي الذي ألفوه أوّلاً في فلسطين، إمّا بصفة عبيد، وإما بصفة مزارعين أحرار... وإنّ القلة بينهم مارست التجارة... ولكن انتهى الأمر ببعضهم إلى التغلغل، بحيث استطاعوا أن يحتكروا أعمالاً مهمّة كالحياكة والصباغة وصناعة الزجاج... ومنهم من اختصّ بإدارة الضرائب وجبايتها...

ولقد بلغ من طبيعة العلاقة بين اليهود والشعوب الأخرى، أنّ العديد منهم رفض مثلاً أن يعود إلى فلسطين، بعد أن أذن لهم

قورش عام 537 بالعودة. وقد كانوا، أنشأوا لهم هناك مراكز مالية مرموقة... وألاّ تكون وثائق العصر، ما بين القرنين الرابع والثالث قد أتت على ذكرهم لا خيراً ولا شرّاً، فأمرٌ ذو دلالة.

ومع ذلك فثمّة سفر في العهد القديم، يتحدّث صراحة عن حركة مناهضة لليهود في بلاد فارس، وبكلمات لا تدع مجالاً لأي شكّ في بروز النزعة العنصرية حيالهم، ولنسمع كيف يخاطب الوزير "هامان" الملك احشورش الأول، كما جاء في سفر استير:

« ما بين شعوب لا حصر لها انتشر في مملكتك، شعب يستعصي على الاندماج، وله سُنَن مغايرة لسُنن الآخرين كلّهم، وهو لا يُقيم أيّ وزن للأوامر الملكية. »

إن هذا النص من الخطورة في دلالته، بحيث أنّ بعض المؤرّخين والنقاد يرفضون أن يعيدوه إلى العهد المنسوب إليه، وإنما هم يرون فيه انعكاساً للحالة التي كانت سائدة عهد الثورة المكابية، ضدّ انتيوخوس السلوقي في القرن الثاني...

ولكن سواء أصحّت نسبته إلى القرن الخامس أو الثاني ق.م. فالخطورة في مضمونه الذي يؤكّد على أمر بات المأخذ الأكبر على اليهود عبر تاريخهم كله: انعزالهم ورفضهم الاندماج مع الآخرين...

ومع فتوحات الاسكندر، بدأت مرحلة جديدة وحاسمة، من مراحل اللقاء والصدام بين اليهود والشعوب الأخرى...

فمع الاسكندر انتشرت على نحو مفاجئ وواسع معاً، حركة الهيلينية التي فتحت الشعوب على بعضها البعض، شرقاً وغرباً... وانتشرت حياة جديدة في المنطقة كلها، لا على أساس الحشود العسكرية وحدها، كما كان في السابق، وإنما على أساس حضاري

يحمل التلاقح الثقافي بين الشرق والغرب، مع نمط من الحياة الجديد، وشبكة من الاتصالات البشرية والتجارية واسعة...

ومع اندماج كل شعب في هذه الحضارة الناشئة، برزت خصائص تميّز بها الشعب اليهودي، منها، على الصعيد العام، اعتباره القدس المدينة التي لا تعلو عليها مدينة، والتي يخصّها كل فرد منهم بمبلغ محدّد يرسله إليها كل عام... ومنها أيضاً، على الصعيد المحلي، انعزالهم العفوي والطوعي داخل كل مدينة أقاموا فيها، في أحياء خاصة بهم، كانت الصورة لما سيطلق عليه فيما بعد اسم الـ "غيتو".

وما كان هذا الأمر ليرتكز على نزعة عفوية في التجمع الاجتماعي والسكني، بقدر ما كان تجسيداً لمفهوم ديني، يعتبر كل أرض خارج الوعد، أرضاً مدنّسة يسكنها قوم مدنّسون، يجب تجنّبهم، قدر الإمكان ووفق الظروف...

بديهي أنّ الصدام كان محتوماً، عاجلاً أو آجلاً، بين هذه العقلية الاستعلائية والسلوكات التي تستتبعها، وبين الشعب الإغريقي، سليل بيريكليس وأريسطو وهوميروس، الذي كان ينظر إلى شعوب الأرض كلها على أنهم برابرة متخلّفون، ثقافياً وسياسياً وحضارياً.

وفي مصر أوّلاً ظهرت، في القرن الثالث، أولى بوادر الشعور اللاسامي. وأن تكون ظهرت في مصر ليس من قبيل الصدفة.

فمصر عهدئذٍ كانت ليس قلب الشتات اليهودي وحسب، بل أيضاً وخصوصاً قلب الحركة الهيلينية، بعد أثينا. وكانت الاسكندرية بمثابة أثينا ثانية. ولقد كان الاسكندر نفسه قد شجّع اليهود على الهجرة إلى مصر والإقامة فيها، وفي الاسكندرية بالذات التي أصبحت آنذاك عاصمة العالم التجارية والفكرية. وكان قد خصّهم

بامتيازات كبيرة لم تُتَح لغيرهم، منها السماح لهم بالسكن في حي خاص بهم، يعيشون فيه بموجب شرائعهم الخاصة. وإنّ الاضطراب الذي ساد فلسطين بعد موت الاسكندر، قد شجّع المزيد من اليهود على الهجرة إلى الاسكندرية، حيث بلغوا من العدد والنفوذ، ما مكّنهم من أن يكون لهم مجلس شيوخ خاص بهم، وحاكم يدير شؤونهم، ويمارسوا نشاطاً تجارياً خطيراً، احتكروا معه تجارة الحبوب والملاحة على النيل...

ولم يكن المصريون من عشاق الغرباء، ولا من الراضين بهذا الغنى يتمتّع به اليهود، ولا خصوصاً بهذه الامتيازات تُمنح لهم دون سواهم... إلاّ أنّ أكثر ما كان يثير المصريين ضدّ اليهود، هو رفضهم للتشريعات الدينية والاجتماعية التي كان معظم السكان يأخذ بها... كان من الواضح أن مصر ستصبح المركز الرئيسي للاسامية في العصور القديمة.

وكان أول من أطلق الحملة ضدّهم، بعض الكتاب الإسكندريين، أبرزهم المؤرّخ اليوناني "هيكاتيه الابديري"، الذي روّج لحقارة منشئهم وكُرههم للشعوب كلها، وانعزالهم عنهم. وقد واصل هذه الحملة كتّاب آخرون، غذّوها بدورهم، منهم:

"بوسيدونيوس" و"ابولونيوس مولون"، ولا سيما "ابيون" و"تاكيتوس".

ثم انتقلت المعركة إلى القدس نفسها.

توالى الحكّام، بعد موت الاسكندر، على فلسطين، حتى استقرّ الأمر للسلوقيّين عام 198 ق.م. الذين صمّموا على فرض نمط الحياة الهيلينية على اليهود. ووُفِّقوا بالعديد من العملاء، حتى بلغت هذه الحركة الاندماجية ذروتها، في عهد الكاهن الأكبر يشوع،

الـذي اسـتبدل اسمـه اليهـودي باسـم يونـاني هـو "جـازون"، والـذي تعامـل إلى أبعـد حـدّ مـع الملـك السـلوقي انطيوخـوس الرابـع... وقـد كان من تطرّف هذا الملك، أنه أعمل في القـدس قـتلاً وذبحـاً، ودخـل قـدس الأقـداس في الهيكـل وكرسـه للإلـه زوس، وحـرّم تحـت طائلـة الموت الالتزام بالشريعة اليهودية.

وكانت تلك الشرارة التي أطلقـت الثورة ضـد الاحـتلال والـرجس الوثنيين، وقد انتهت بطرد السلوقيّين على يد الإخـوة المكابيين عـام 165 ق.م.

ومـن هـذا الانتصـار انطلقـت في فلسـطين وفي الشـتات، حركتـان، الأولى ثقافية دينيـة تغـذّيها مؤلّفـات "نبويـة" تتوقّـع انتصـار اليهـود على سائر الشعوب، وخضوع الجميع لهم، ولإلههم، بحجّـة أنهـم هـم روّاد كل حضـارة وثقافـة، والثانيـة حركـة دينيـة تبشـيرية، تهـدف إلى نشر الديانة اليهودية بين الشعوب الأخرى.

ولقد كان من تأثير هذا الانتصار، ومـا أعقبـه مـن نشـاط فكـري وديني وتبشيري، بالإضافة إلى المكاسب التي كان اليهود قد حقّقوهـا اجتماعياً وماليـاً وتجارياً، أن المفكر والكاتب اللاتيني "سينيكا"، الذي عـاش مـن 66 إلى 2 ق.م. شـكا مـن "أنّ اليهـود بلغـوا مـن النفـوذ مـا يجعلهم يتصرّفون في كل مكان من العالم، وكأنهم في بيتهم".

كمـا وأنّ عنـف مـا قالـه بعـض الكتّـاب المنـاوئين لليهـود، واتسـاع نطاقـه، جعـلا بعـض المؤرّخين اليـوم، يتسـاءلون مـا إذا كانـت هـذه الحملات، نتيجة أو سبباً للعداوة المتنامية، التي سجّلت علـى اليهـود في تلك الحقبة. وأغلب الظن أنها كانت الاثنين معاً.

وفي الواقـع، فإنّ الأمور لم تقف عند حـدّ الحمـلات الكلاميـة، بـل هـي تجاوزتهـا إلى العنـف الفعلـي، حيـث يـذكر المؤرّخـون، ومنـهم

"يوسيفوس" و"يوردانوس"، مذبحتين حدثتا في مصر، الأولى عام 146 ق.م. في عهد بطليموس السادس، والثانية عام 88 ق.م.

ليس من شك أنّ بعض أسباب هذه الصدامات، تعود إلى عوامل سياسية واقتصادية... وقد لا يرى بعض المؤرّخين سوى هذه الأسباب، يفسّرون بها تلك الصدامات التي انتهت أحياناً إلى مجازر جماعية...

ولكن من المؤرخين من يؤكّد:

« إنّ جميع هذه العوامل لا تقدّم تفسيراً كافياً لحالة التوتر الذي بلغته الأمور. وإنّ قسماً لا بأس به من هذا التوتر، يعود إلى النقمة الناجمة عن السلوك الاستعلائي لليهود، وعن مطالبهم الدينية. »

وإنّ هذه الحقيقة الأساسية لتتّفق تمام الاتفاق مع ما جاء في العهد القديم، وعلى لسان اليهود بالذات، إبان الصراع الذي قام بين النزعة الانعزالية والنزعة الاندماجية، قبيل الصدام مع السلوقيين. فلقد بلغ من إحساس اليهود في القدس بخطورة انعزالهم وممّا جلبه عليهم، أنهم كانوا يقولون:

« هيا بنا نقيم تحالفاً مع الشعوب المجاورة، لأننا منذ أن انفصلنا عنهم، جلبنا لأنفسنا العديد من المآسي. »

ههنا بالذات تكمن المشكلة: مشكلة اللاسامية: في الشعب اليهودي نفسه.

الفقرة الثانية: في ظل الإمبراطورية الرومانية

1) التواصل بين العالم الإغريقي، والعالم الروماني:

انحسرت إمبراطورية الإسكندر. وحلّت محلّها جيوش روما، شرقاً وغرباً. ولكن الحركة الهيلينية لم تنحسر. فقد تبدّلت بعض المعطيات السياسية والعسكرية تبدّلاً أساسياً، وحلّت عاصمة جديدة محلّ سابقاتها. إلاّ أنّ المناخ الثقافي والاجتماعي الذي أطلقته الحركة الهيلينية، لم يتبدّل كثيراً. وقد بلغ من تأثيرها على روما نفسها، مبلغاً جعل بعض المؤرّخين يقولون بأنّ المهزومين قهروا في نهاية المطاف قاهريهم.

وانتقلت إلى الرومان، في ما انتقل إليهم، الأفكار السابقة السائدة عن اليهود. فجاءت اللاسامية الرومانية وليدة اللاسامية الإغريقية، ولكن على مزيد من تعقيد.

2) في فلسطين

ففي فلسطين، ظلّت روح العداء الذي قاده المكابيّون ضدّ انطيوخوس عام 164 ق.م. متأجّجة. بل إنّ الصدام بين التصلّب اليهودي الديني، والنفوذ الروماني الوثني، عرف تصعيداً - تخلّلته فترات من الهدنة، إن صح التعبير - انتهى إلى احتلال القدس وتدمير هيكلها عام 70 ب.م. وجلاء الآلاف من اليهود إلى روما، ثم إلى احتلالها مجدّداً عام 134 ب.م. وتدميرها تدميراً تاماً، بل ومسحها من الوجود، وجلاء جميع اليهود عنها، واستبدالها بمدينة رومانية وثنية جديدة، أطلق عليها اسم "ايليا كابيتولينا"، اعتبرت عاصمة لمستعمرة رومانية، حُظّر على اليهود دخولها، وألحقت بولاية سورية.

إلاّ أنّ هذه اللمحة السريعة جداً، لا تنسينا أن الأمور لم تكن دوماً، لا داخل فلسطين ولا خارجها، في أرجاء الإمبراطورية الواسعة،

على مثل هذه الحال من التوتر والتصادم. فسياسة روما حيال اليهود كانت، في نتيجة الأمر، جزءاً من سياستها الواقعية والمتحرّرة نسبياً، حيال الشعوب التي أخضعتها. والحقيقة التاريخية تقضي بالاعتراف بأنّ روما خصّت اليهود بامتيازات لم تخصّ بها سواهم.

3) <u>في روما</u>

ففي روما، كانت ثمة جالية يهودية ذات نفوذ قوي، سياسياً واجتماعياً. وكانت تلك الجالية، من حيث الظهور الزمني، من أواخر الجاليات اليهودية التي انتشرت في الشتات. فكانت من أقلّها تشدّداً، ومن أكثرها مرونة. فكان أن حظي العديد من أفرادها بمراكز مرموقة، وكان بعضهم من المقرّبين للأباطرة، حتى أن بعضهم لعب أحياناً دوراً حاسماً في سياسة روما.

وبلغت الجالية اليهودية في روما قدراً من القوة والنفوذ، وضعها في المرتبة الثانية بعد جالية الاسكندرية. وقد شهد بذلك "شيشرون"، يوم دافع عن "فلاكوس"، وهو حاكم روماني سابق لآسيا الصغرى، فأشار "إلى مدى كثرتهم، وتضامنهم ونفوذهم في الجمعيات العامة".

وكان أن بعض الأباطرة منحهم رعاية خاصة، فزادهم ذلك نفوذاً، كأن يحقّ لهم أن يصوّتوا في الجمعيات العامة. وكانت النتيجة أن نما ثقلهم السياسي. ولمّا كان تغلغلهم في الأوساط التجارية كبيراً، وثروات بعضهم طائلة، مال بعض الأباطرة إلى إغداق المزيد من الامتيازات عليهم دون سواهم.

أما على صعيد التبشير، فقد استطاعوا أيضاً أن يكتسبوا إلى عقيدتهم العديد من الناس، حتى في صفوف الحاشية الإمبراطورية. بل إن إحدى عشيقات نيرون، وهي بوبيا، كانت يهودية.

وكان أن انعكس نجاحهم السياسي والاجتماعي نقمة لدى عامة الشعب، ونجاحهم الديني نقمة لدى المثقفين.

4) النزاع الأكبر: الدين

إلا أن أبرز مصدر للنزاع بين اليهود وسواهم، في الإمبراطورية الرومانية عامة، وروما خاصة، كان الميدان الديني.

فالرومان ديّنون، والدين لديهم يتغلغل في جميع مرافق الحياة. وكانت آلهتهم تنتشر تماثيلها في كل مكان، كما أن ممارساتهم الدينية ترافق جميع مراحل الحياة العامة والخاصة لديهم. وكانوا فخورين جداً بالآلهة التي مكّنتهم من السيطرة على المعمورة كلها. وكانوا لهذا السبب متسامحين حيال الديانات الأخرى، فيضيفون آلهة مستعمراتهم إلى صفوف آلهتهم، وبعض ممارساتهم إلى طقوسهم. فكانت هذه الحرية الدينية مصدر ارتياح كبير للشعوب المستعمَرة، ومبعثاً لهم على الأخذ بما كان الرومان يفرضون عليهم لقاء هذه الحرية، من ممارسة لطقوس محدّدة جداً، وهي الانحناء أمام تمثال جوبيتر، كبير الآلهة، وأمام تمثال الإمبراطور، الإله المتجسّد، في مناسبات محدودة جداً.

وكان هذا الميدان بالذات سبب الصدام المباشر والدائم بين اليهود والرومان. فقد كان اليهود متساهلين في كل شيء إلاّ في دينهم: فالشعب "المختار" لا يتهاون في دين آبائه. والدين لديه يتغلغل في تلافيف حياته، وهو يعبد إلهاً "غيوراً لا يقبل الشرك".

وفي نهاية المطاف، وجد الرومان أنفسهم أمام خيار صعب:

إما التنازل لليهود عما ألِفوا أن يفرضوه على جميع مستعمراتهم،

وإما فرض هذه الممارسات بالقوة...

وكان حدّا الاختيار صعبين من كل وجه.

5) **الواقعية الرومانية وسياسة الامتيازات**

وتغلبت سياسية الواقعية الرومانية. فمُنح اليهود مزيداً من الامتيازات الدينية، في روما، وفي فلسطين، وفي أرجاء الإمبراطورية. والحق يقال إن قصة هذه الامتيازات هي التي تحكمت بتاريخ العلاقات الرومانية- اليهودية كلها، إن من حيث الأحلاف، أو من حيث الصدامات.

فقد مُنِح اليهود، منذ الاحتكاكات الأولى التي نشأت بينهم وبين الرومان، عام 161 ق.م. حقّ التقاضي وفقاً لشرائعهم الخاصة. وقد عُمِّم هذا الامتياز، حتى شمل جميع اليهود في كل الإمبراطورية، بل وخارجها في مناطق حلفائها. ولم يكن يُستَثنى من هذا الامتياز سوى المتهوّدين. وقد وضعهم هذا التعامل في مستوى المساواة مع سائر الديانات المنتشرة في الإمبراطورية.

إلا أنّهم خُصّوا أيضاً دون سواهم، بما مكّنهم من ممارسة فرائضهم الخاصة، كأن يُعفَوا من كل عمل أو تظاهرة دنيوية يوم السبت، حيث لم يكن يطلب منهم سوى الصلاة من أجل الإمبراطور.

ولكن كل ذلك لا ينسينا التأرجح الذي عرفته سياسة روما حيال اليهود. فبعض الأباطرة عُرِف بتأييده لهم، وبعضهم كان صريح العداء لهم. من ذلك أن يوليوس قيصر (100–44 ق.م.) منحهم مزيداً من الامتيازات، تقديراً منه للدعم الذي قدّموه له إبان الحرب الأهلية التي نشبت بينه وبين خصمه بومبيوس. وقد اعتبرت هذه الامتيازات أشبه شيء بشرعة اليهود الكبرى في العصور القديمة. وواصل بعض خلفاء قيصر هذه السياسة، وأضاف بعضهم إليها جديداً، من ذلك أن أوغسطس قيصر أذن لهم باستلام كميات الحبوب في يوم آخر غير السبت. إلا أن طيباريوس (14–37 ب.

م.) بدأ بمناصبتهم العداء، تحت تأثير وزير خارجيته "سيجانوس"، فأمر بنفي أربعة آلاف يهودي إلى جزيرة سردينيا، بسبب سوء تصرف بعضهم. ولكنه ما عتّم أن أحاطهم برعايته بعد موت وزيره. والمعروف عن كاليغولا (13–41 ب.م.) أنه حاول أن يفرض عليهم عبادة الإمبراطور في كنسهم نفسها، ولكنه مات قبل أن يباشر بتنفيذ قراره هذا.

إلا أن أكثر ما أثار الحكام الرومان ضد اليهود، كان نزعتهم التبشيرية. فمنذ عام 139 ق.م. اتّخذ حاكم روما "هسبانيس" قراراً بطرد اليهود من روما، لهذا السبب. وقد حاول بعض الأباطرة فيما بعد، ومنهم خصوصاً "دوميسيانوس" (81–96) أن يقلّل من غلواء اليهود الدينية، ففرض على مَن يمارسون الدين ضرائب خاصة. كما أن "سبتيموس ساويروس" (193–211 ب.م.) حظّر اعتناق اليهودية. وقد تميّز الأباطرة الذين خلفوه بتحيّزهم لليهود، وبمناصبتهم العداء للمسيحية، هذا العداء الذي لم يكن اليهود بمنأى عن التأثير فيه... ولكن هذه قصة أخرى لها وقتها.

6) أخطر مراحل الصدام

وفي إطار الصراع العام بين اليهود والرومان، ثمّة أعوام ثلاثة لا بدّ من تسجيلها:

عام 70 ب.م. :

اقتحم تيطس القدس، إثر ثورة استطالت أربعة أعوام، وبعد حصار طويل وقاس، فدمّر الهيكل، وجلا معظم سكان القدس، وصلب الآلاف من الرجال مقابل القدس على جبل الزيتون. ووضع حدّاً للمساهمة السنوية المالية، التي كان اليهود يرسلونها للهيكل، وأسماها "الضريبة اليهودية"، وأمر بتوجيهها إلى معبد جوبيتر في روما.

عام 115 ب.م. :

انتهز اليهود الحرب التي كان يشنّها الإمبراطور "تراجانوس" ضد البارتيّين، فأثاروا سلسلة من الفتن الشرسة في ما بين النهرين، ثم في مصر، ثم في القيروان وقبرص. وقد تصاعدت وحشيّتهم في قبرص والقيروان، بحيث بلغ عدد ضحاياهم فيهما وحدهما، نصف مليون ضحية، ويؤكّد المؤرّخ الروماني "ديون كاسيوس"، "أنهم نشروا بعضهم، وتطهّروا بدمائهم، وأكلوا لحوم آخرين وأطعموها للوحوش". الأمر الذي جعل المؤرّخ اليهودي المعاصر "أبرام ليون ساخار"، يكتب معلّقاً على هذه الأحداث، في كتابه الضخم "تاريخ اليهود" الصادر عن باريس عام 1973، فيقول:

« "إن هذه الرواية هي الصيغة المشوّهة لما يمكن أن يقدّمه عن الأحداث مؤرخ مشحون بالأفكار المسبقة. ولكن من الواضح أنّ اليهود كانوا آنذاك تحت سيطرة تعصّب جنوني وغير مسؤول، أغرق القيروان وقبرص في الدماء. مما اضطرّ تراجانوس لإرسال أحد أبرز قادته لمواجهة جنون اليهود، وجاء الرد دماراً شاملاً: فعندما أُخمِدت آخر بؤر التمرّد، كان من الضروري إعادة بناء قبرص من أساساتها. ومنذئذٍ لم يعد يؤذَن لأي يهودي بدخول الجزيرة، حتى أنّ بعض التجار اليهود الذين كانوا يتعرّضون للغرق، والذين يلجأون إليها مؤقّتاً، كانوا يُعدَمون فور اكتشاف أمرهم. »

وأما عام 136 ب.م. فقد سجل بداية نهاية الصراع بين اليهودية كقوّة عسكرية ودينية مركزها القدس، والإمبراطورية الرومانية. فقد أراد الإمبراطور "هادريانوس" أن يضع حدّاً للتبشيرية اليهودية،

ولعادة الختان. كما أنه أراد أن يبني مدينة جديدة حيث كانت تقوم القدس، مدينة وثنية صرفاً... وانتهى النزاع بانتهاء اليهودية كليةً من فلسطين، بمسح مدينة القدس من الوجود، بكل ما فيها من آثار، يهودية ومسيحية، وباستبدالها بمدينة أخرى رومانية، وبجلاء اليهود عنها وعن ولايتها جلاءً تاماً... وحظّر على أي يهودي العودة إلى القدس تحت طائلة الموت. وقد سُمح لهم، فيما بعد، في التاسع من آب فقط من كل عام، بالبكاء على ما تبقّى من آثار الهيكل، وذلك لقاء مبلغ من المال.

7) **موقف الشعب من اليهود**

أما الشعب، فلم يُعرَف عنه في طول الإمبراطورية وعرضها، أنه كان لاسامياً. إلا أنّ الامتيازات التي تمتّع بها اليهود من جهة، وممارساتهم الدينية والاجتماعية والتجارية التي ذكرنا، من جهة ثانية، أثارت عليهم، بين حين وآخر، حفيظة الناس. ولكن حماية بعض الأباطرة لهم، المعلنة، كانت تحول دون انفجارات شعبية محتملة.

إلا أنّ عهد "كاليغولا" المتقلّب عرف أوّل مجزرة جماعية قامت ضدّهم. كان ذلك في الإسكندرية عام 38 ب.م. فقد انجرف حاكم المدينة مع مطالب الجماهير الهائجة، التي كانت تلحّ في رفع تماثيل الإمبراطور في الكنس اليهودية. وانتهت المجابهة بحرمان يهود الاسكندرية من حقّ المواطنة، وبتكديسهم في أحد أحياء المدينة، بل وفي مقابرها وشواطئها. وقد لاقى بعضهم الإهانة والتعذيب، بل والموت.

كما نشبت أيضاً في هذه أو تلك من المدن التي تجمّع فيها عدد كبير من اليهود، اضطرابات مماثلة، ولا سيما في عهد

"فسباسيانوس" (69–79) و"تيطس (78–81). ففي أنطاكية، قامت احتجاجات ضدّ حقوق اليهود السياسية، تطالب روما بإلغائها. وحدثت مجازر أخرى في كل من أفسس والقيروان، وفي عدد من المدن اليونانية، تعود في أساسها إلى موقع اليهود المحدّد والمتشنّج من الجماعات الأخرى، وفي سببها المباشر إلى رفضهم المشاركة في الطقوس الدينية الوثنية العامة. وفي فلسطين نفسها، نشبت في مدينة القيصرية نزاعات متعاقبة حول نفوذ الجماعات السياسية، أدّت إلى مجزرة أودت بحياة عشرين ألف يهودي. وانتقلت العدوى إلى المدن المحيطة بفلسطين، كدمشق وصور وعسقلان، حيث كانت الحركة التبشيرية اليهودية على أشدّها. فتكرّرت النزاعات والمجازر الجماعية. وقد حدث كل ذلك، وذهب صعوداً في الفترة التي سبقت وأعقبت بقليل ظهور المسيحية.

8) موقف المثقفين

إلا أن دعاة اللاسامية الحقيقيّين عبر الإمبراطورية الرومانية، كانوا المثقّفين قبل سواهم.

صحيح أنّ بعضهم لم يكن ليُعير اليهودية أدنى اهتمام. ولكن الذين أبدوا بعض الاهتمام بها، انقسموا ما بين مهادن متحفّظ، وعدوّ شرس. فهناك "فارون" (116–27 ق.م) الذي برهن على احترام بيّن لليهودية. فيما تمسّك كل من "بلينوس القديم" (23–79) و"تيتوس ليفوس" (59 ق.م. – 17 ب.م) بموقف محايد.

وكان أبرز من بدأ مناوأة اليهودية الخطيب شيشرون. فقد طُلب إليه أن يدافع عن "فلاكوس"، وهو حاكم سابق لآسيا الصغرى، اتُّهم باختلاس كنوز اليهود في ولايته... وإذا بمرافعته تكشف عن تخوّفه من عدد اليهود في روما، ومن تضامنهم ونفوذهم، كما هي تكشف

عن إعجابه بفلاكوس الذي تجرّأ على مجابهة "خرافاتهم البربرية". وقد تصدّى فيها لديانة اليهود وطقوسهم، كما تصدّى لثوراتهم المتكرّرة ضدّ السلطة الرومانية. وهو يرى أخيراً "أنهم ولدوا ليعيشوا في العبودية". والجدير بالذكر أنّ التاريخ لم يسجّل نتيجة هذه المرافعة بالنسبة إلى موكّله. ولكن التاريخ نفسه يؤكد أنّ شيشرون "نُفي من روما في العام التالي لدفاعه عن فلاكوس"... هل هذا مجرد صدفة، أم...؟

وفي نهاية القرن الأول قبل المسيح، تناول كل من الشعراء "هوراسيوس" و"تيبولوس" و"أوفيدس" بشيء من السخرية بعض الممارسات اليهودية، ولا سيما ما يتعلّق منها بنزعتهم التبشيرية والحفاظ على راحة السبت.

إلا أن أبرز من هاجمهم في منتصف القرن الأول للمسيح، كان "سينيكا"، الذي رأى فيهم "أمّة في منتهى الفساد"، وقد أخذ عليهم محافظتهم على السبت، "على أنّه تبذير صرف لِسُبُع الحياة". وأما "بترون"، صديق نيرون وضحيّته، وكذلك "مارسيال" و"كينتليان"، فقد كتبوا بسخرية لاذعة عن اليهودية، واعتبروا اليهود "أمّة خبيثة تضمّ كل ما هو سافل". وكان هذا أيضاً مأخذ "جوفينال" (65–128) عليهم، الذي أكّد على فرط تضامنهم واحتقارهم للشرائع الرومانية.

ولكن المؤرّخ "تاكيتوس" (55–120) بزّ جميع المثقفين الرومانيين بمناوأته لليهود، حتى قال عنه أحد مؤرّخيهم، "إنه أبرز ممثلي اللاسامية في جميع العصور دون منازع".

وفي الواقع، فإنّ ما كتبه هذا المؤرّخ تاكيتوس هنا وهناك عن اليهود، يكثّف ويلخّص كل ما كتبه أسلافه ومعاصروه. وقد تناول

فيه تاريخهم ومعتقداتهم ومؤسساتهم، وأخلاقهم وعلاقاتهم. فهو يرى أنهم جماعة من المجذومين الذين طردوا من مصر، فتبعوا قطعاناً من الحمير الوحشية قادتهم عبر الصحراء إلى عين ماء. فعبدوا من يومها الحمار... وهم يمتنعون عن أكل لحم الخنزير بسبب مرضهم السابق، لأنّ الخنزير في رأيه، أكثر الحيوانات عرضة لهذا المرض. وأما محافظتهم على السبت، فتعود إلى ما ألفوه من كسل. ثم إنّ مؤسّساتهم كلّها "مشؤومة، سافلة، وتدين باستمرارها لفسادهم". وهم يستمدّون ازدهارهم من "تضامنهم العنيد، الذي يتناقض مع بغضهم المتأصّل لسائر البشر". وهم فضلاً عن ذلك "لا يؤاكلون الغرباء، وعلى الرغم من اندفاعهم وراء الفحش، يمتنعون عن كل علاقة جنسية مع النساء الأجنبيات. ولكنّهم لا يحرّمون على أنفسهم شيئاً. وإنّ أولى المبادئ التي يتلقّونها، تقوم على احتقار الآلهة والتنكّر للوطن وإهمال الوالدين والإخوة والأبناء". ويرى "أن اليهود أحقر الشعوب المستعبدة، مشحونون بالخرافات، معادون لكل ممارسة دينية، يأخذون بعادات لا معقولة وحقيرة".

بمثابة خاتمة

تلك هي الخطوط الكبرى للعلائق التي قامت بين اليهود من جهة، والشعوب القديمة من جهة ثانية.

فماذا عسانا أن نستنتج؟

لندع بعض الباحثين - ومعظمهم كما قلنا من اليهود أو من مؤيّديهم - المعاصرين، يُدلُون بنتائجهم:

يرى "فلانيري" - وهو كاهن أميركي يبدي تعاطفاً كبيراً حيالهم:

« "إن اللاسامية الرومانية واليونانية، لم تكن بأي حال سوى ردّ فعل

حيال الانعزالية اليهودية. والحقيقة التاريخية تؤكّد أن العالم الوثني بشقّيه اليوناني والروماني، لم يعرف العداء الديني. وفي الواقع، فقد كان العالم الوثني متساهلاً يتقبّل العبادات والمعتقدات الغريبة في كنفه. وإنما التعصّب اليهودي هو الذي بدأ بالأحرى بمسّ إحساس الناس، فحرّضهم على مواجهته. فقد وَلّد ذلك الجرح الاحتقار ثم الغضب، وأخيراً البغض: من هنا أن كل ممارسة وكل خاصية يهودية وجدت أسوأ التأويلات. من هنا أنهم أصبحوا عرضة لسلسلة عشوائية من الاتهامات، تتناول عباداتهم وتاريخهم وطبائعهم وذكاءهم، وحتى قسمات وجوههم. وباتوا هدفاً لجميع حرمانات النفس الوثنية. وعلى الرغم من أن اللاسامية حرّكت بعض الجماهير بين حين وآخر، إلا أنها ظلّت قبل كل شيء أدبية وثقافية... أخيراً لا يمكن الحديث عن تمييز عنصري أو عرقي مُسبَق وقع في ذاك العهد... »

ويدعم اليهودي "جوستر" هذا الرأي برأي يكمّله حول "الدور الاقتصادي المفرط"، الذي قد يظنّ البعض أنّ اليهود لعبوه في تلك العهود، ممّا قد يفسّر عداء الناس لهم. ويعترف "جوستر" بأن هذا الدور شكّل عنصراً حاسماً في مدينة الإسكندرية، وبعض المدن اليونانية. ولكنّه يجد نفسه مضطراً للاعتراف أيضاً:

« بأن العوامل الاقتصادية لم تكن ذات طبيعة تفي بتفسير نشوء اللاسامية... وما من كاتب وثني واحد وصف اليهود بأنهم تجّار. ولم يحدث أبداً في الحقبة الوثنية أن اعتبرت كلمة "يهودي" مرادفة لكلمة "تاجر". وليس ثمّة في تلك الحقبة ما يحمل على الاعتقاد بأنهم كانوا يتزعون نزوعاً خاصاً نحو التجارة. »

لنختم هذه اللمحة مرة أخرى بكلمة للأب "فلانيري":

« إن اللاسامية القديمة لم تكن بمستوى عنف الحركات اللاسامية اللاحقة. ولكنها كانت حقيقة واقعة. وهي تتبدّى كمثال على ردّ فعل حيال الانعزالية اليهودية. »

الفصل الثاني

ذاك المسمّى يسوع

منذ ألفي عام إلى اليوم، واسم يسوع يجثم كالكابوس على الفكر اليهودي كلّه، لسببين:

ديني صرف، وتاريخي اجتماعي.

يعود السبب الديني إلى تخطّي تعليم يسوع خطّ التاريخ اليهودي كله، بحيث وضع الشعب اليهودي في موقف اختيار حرج ونهائي.

ويعود السبب التاريخي الاجتماعي إلى انتصاب صليب يسوع في قلب التاريخ البشري كلّه، بحيث جلب لأبناء دينه السابقين العار والويل.

تعليم يسوع وصليب يسوع: القضية كلها بين هاتين الكلمتين.

والحقيقة أنّ ما من كاتب يهودي تصدّى ليسوع، بشكل أو بآخر، إلا وسيطر عليه الاضطراب والحرج والغضب...

والحقيقة أيضاً أنّ ما من كاتب غربي - مسيحي أو غير مسيحي - تصدّى لعلاقة المسيحية باليهودية، إلا وسيطر عليه القرف والغضب أيضاً...

فكيف يمكن التوفيق بين تعليم يسوع القائم أساساً على المحبّة، والمنتهي بصاحبه على صليب، وما ارتكبه أتباعه من أهوال بحقّ من رفضه من أبناء دينه السابقين؟

السؤال، في نهاية المطاف لغز...

ولكن لا بدّ من مواجهته،

أوّلاً لأنه واقع تاريخي لا يجوز إنكاره أو تجاهله،

ثانياً لأنه واقع آثم، نتحمّل، نحن العرب، ذيوله الرهيبة، دون أن تكون لنا يد فيه، لا من قريب ولا من بعيد.

فما هي إذن تلك القضية بالتحديد؟

لندع جانباً كل نقاش لاهوتي أو عقائدي، حول المسيحية واليهودية.

ولندع جانباً كلّ نقاش لاهوتي أو عقائدي، حول المسيح والمسيحية.

ولندع جانباً كلّ نقاش تاريخي أو غير تاريخي حول المصادر التاريخية للمسيح والمسيحية.

فحول هذه الأمور كلها، وغيرها الكثير، جدل كبير لا يقدّم ولا يؤخّر في ما ننوي بيانه.

ولكن ثمّة واقعتان تاريخيتان متلازمتان، يتحتّم علينا التوقف عندهما، إذ كان لهما تأثير حاسم ونهائي - أقلّه إلى اليوم - على مصير كل من المسيحية واليهودية في ذاتهما أوّلاً، وفي علاقتهما الواحدة بالأخرى، وفضلاً عن علاقتهما بالتاريخ البشري العام...

هاتان الواقعتان أساسيتان بحجمهما الكلي. ومهما تباينت الآراء بشأن بعض جوانبهما، بل مهما حارت أو تفنّنت في تفنيد بعض جوانبهما، إلا أنها لا تختلف على جوهرهما.

إنهما، مرة أخرى، تعليم يسوع أولاً، وصليبه ثانياً.

يذكر الكاتب اليهودي الكَنَدي المعاصر "لابيد" في كتاب له بعنوان "روما واليهود"، هذا المثل اليهودي:

« ما كان صالحاً في تعليم يسوع، لم يكن جديداً، وما كان جديداً لم يكن صالحاً. »

يبدو لي أنّ هذا المثل يلخّص المشكلة من أساسها. وإن كان لي أن أترجمه على نحو يطرح القضية بصورة جدلية، لقلت:

كان على يسوع أن ينكر ذاته، فلا يُصلب...

أو كان على اليهودية أن تُنكِر ذاتها، فلا تصلبه...

وكلا الأمرين كان حدّاً مستحيلاً.

ولذا جاء صلبُه في المنطق الحتمي لتعليمه.

فما الذي قاله يسوع، ممّا لم يكن بإمكان اليهود أن يتقبّلوه أو يتساهلوا بشأنه؟

قال الكثير... ولكن لنختصر:

بشأن الله: رفض بصورة تامة احتواء الشعب اليهودي، بل احتكاره لله ولمواعيده، على حساب سائر الشعوب، وأعلنه أباً لجميع البشر دون استثناء، وإن كان ثمّة من استثناء، فلصالح الفقراء والمعذبين والمستضعفين...

بشأن المسيح: رفض الحلم اليهودي القديم في مسيح يحمل السلاح في وجه المستعمر الروماني أولاً، ثم في وجه البشرية جمعاء ليفرض عليها سيطرة اليهود دون سواهم...

وأعلن ذاته مسيحاً جديداً، متواضعاً محبّاً، يدعو إلى شمولية محبّة تصل بصاحبها إلى الصليب من أجل الجميع دون استثناء...

بشأن الشريعة: وضع الإنسان فوق كل تشريع، وسخّر كل تشريع لخدمة الإنسان، حتى التشريع الإلهي.

قال،

وفعل ما قال، وبما قال...

وكان في ذلك يطعن في الصميم آمال اليهودية وأحلامها...

صحيح أنّه وجد من أبناء الشعب استجابة سريعة، ولكنها كانت سطحية... وعندما واجهه الرؤساء، وهم يعتبرون أنفسهم القيّمين على الله وهيكله وشريعته ومواعيده، لم يجد حوله أحداً، وحتى إن تلاميذه تخلّوا عنه في اللحظة الحرجة والحاسمة...

وكان الصليب: الصليب، تتويجاً لحياة يسوع كمسيح، وتتويجاً لنضال رؤساء اليهودية ضدّه.

تلك هي الحقيقة الكبرى المنتصبة بكل قسوتها على درب يسوع واليهودية أولاً، ثم على دروب اليهودية والمسيحية معاً.

قد يعتقد بعضهم، بل قد يجزم بأنّ حياة الحقائق الدينية ليست على مثل هذا المستوى، من التماس والتفاعل مع ظروف البيئة والقهر السياسي أو النفسي.

ولكن التاريخ أمامنا. وهو يؤكّد أنّ العكس هو الصحيح.

وإن المؤرّخين اليهود المعاصرين والقدامى، سواء بسواء، يُجمعون دون تردّد، على إبراز هذه النقطة من الصراع بين يسوع واليهودية، على أنها النقطة المركزية، وذلك على الرغم ممّا يعتري سائر مواقفهم من حيرة وبلبلة، بل وغضب وتناقض.

لنستنطق هذا التاريخ قليلاً، وبلسان المؤرّخين اليهود بالذات:

عن المرحلة التي سبقت يسوع، يقول المؤرّخ المعاصر "أبراهام ليون ساخار" في كتابه "تاريخ اليهودية":

« إنّ الأجيال الأربعة من السيطرة الرومانية التي أعقبت استيلاء بومبيوس على القدس، زخرت بتمرّدات فاشلة. لم تمضِ سنة واحدة دون ضريبة باهظة من الأرواح البشرية. وعلى كل مفترق، انتصبت الأعمدة والصلبان، تعلن تمرّد الوطنيين يواصلون تحدّيهم للجيوش الرومانية. ومع مرور الزمن، فقدت الجماهير أملها في تحقيق تحرّرها بالسلاح، واستسلمت، مرغمة وبمرارة، للأمر المحتوم.

"واتجه جمع صغير، بحثاً عن العزاء، شطر الوعود التي جاءهم بها الأنبياء، تلك التي تتعلّق بزمن المسيح، حيث ستحقن الدماء وينتشر العدل من جديد. وكانوا يتقصّون كلمات الأنبياء بجدّية مثيرة، وهم يجهدون ليستخلصوا منها، حساباً وتفسيراً، التاريخ الدقيق لظهور ملكوت الله. وبرز أدب رؤيوي جديد، يعالج أمر المسيح ومجيئه.

"وظهرت جماعات جديدة صغيرة، بعضها يحيا حياة بسيطة وادعة، بعيداً عن قسوة العالم، وبعضها يقوم بممارسات صوفية استعداداً لمجيء الزمن الجديد. وكان، كل ثلاث أو أربع سنوات، يظهر نبي جديد، يدّعي أنه المسيح المنتظر منذ أمد طويل، ويجرّ وراءه إلى الكارثة، مئات الأتباع المهووسين.

"وفي تلك السنوات المشحونة باليأس السياسي والرجاء "المسيحي"، قام يسوع الناصري بأداء رسالته. »

وفي المرحلة كلّها التي رافقت يسوع حتى الصلب، يقول الكاتب اليهودي المعاصر أيضاً "لابيد" بكل وضوح:

« رذَل اليهود يسوع لأنه تجاهل، عمداً، في تعاليمه الأخيرة، جميع التزامات الحياة الوطنية. ذلك بأنهم كانوا يدركون تماماً في أعماقهم، وفي ذلك الوقت أكثر من أي وقت مضى، أنه لا يجوز لهم أن يتلاشوا في هوة الشعوب الرومانية، الذين انهاروا، نتيجة افتقارهم إلى الإيمان وإلى الأخلاق الاجتماعية. »

وعن المرحلة التي رافقت الصلب وأعقبته، يقول كاتب يهودي معاصر آخر، هو "جوزيه ايزنبرغ"، في كتابه "تاريخ لليهود"، وهو يصف حدث الصلب على صعيد العلاقة بين اليهودية والمسيحية:

« إنّ محاكمة يسوع وموته، هما ولا شك الحدث التاريخي الذي نال أكبر قسط من الكتابات في التاريخ البشري. والحال أنّ موت المسيح يشكّل ليس العنصر الرئيسي وحسب في اللاهوت المسيحي، ولكن أيضاً معطى كان له وزن ثقيل على مصير اليهودية بسبب تفسير المسيحية له، وبسبب الدور الذي نسبته لليهودية فيه. ههنا يتداخل اللاهوت والتاريخ باستمرار، وليس من السهل التمييز بينهما دائماً. »

المهم في الأمر أن يسوع علّم جديداً، ولأنه علّم جديداً، مات صلباً.

ولكن الأهم من ذلك توزيع مسؤولية موته.

وهنا نجدنا أمام تأويلين، نشير إليهما، لا لأهميّتهما بالنسبة إلى التاريخ الماضي وحسب، وإنما أيضاً بالنسبة إلى ما قد يترتّب عليهما من أحداث قادمة:

التأويل الأول، يستند إلى المصادر التاريخية الأولى وهي الأناجيل. وهذه تقول بأنه ليس ثمة مجال للشك، في أنّ المسؤولية الأولى في محاكمة يسوع وصلبه، تقع على اليهود، وعلى زعمائهم الروحيين بالذات وبالدرجة الأولى...

من هنا كانت التهمة الكبرى بأن اليهود قتلوا المسيح. وكانت تلك المقولة التاريخية في العالم المسيحي، في الشرق أولاً منذ قسطنطين حتى الفتح العربي، ثمّ وخصوصاً في الغرب حتى سقوط النازية...

وأما التأويل الثاني، فيتقدّم به الكتّاب اليهود، أو الكتّاب المتأثّرون باليهودية أو الثائرون على اللاسامية. وهم يستندون إلى العديد من الدراسات الاجتماعية والسياسية والحقوقية، ليبرّئوا اليهود من مسؤوليّتهم الكبرى أولاً عن قتل يسوع، ثانياً عن اتهامهم بقتل المسيح في شخص يسوع، وهم يُلقون التبعة الكبرى في ذلك على الرومان المستعمرين...

من هنا الخطورة الكبرى الكامنة في ما يُكتب اليوم، وما قد يُكتب غداً بهذا الشأن.

من هنا أيضاً الخطورة الكبرى الثانية لما يُعقد ولما سيُعقد من ندوات لبعث ما يسمّى بالحوار الديني اليهودي- الإسلامي- المسيحي عموماً، واليهودي - المسيحي خصوصاً...

ذاك إذن كان موقف اليهودية الأساسي من يسوع...

ولكن ثمّة موقف جديد أعقبه، هو موقف أتباع يسوع من اليهودية... موقف سيترتّب عليه الكثير الكثير.

الفصل الثالث

الصراع المكشوف

كلمتان تلخّصان هذه المرحلة: الكنيس أم الكنيسة؟
تماماً كما في المرحلة السابقة: اليهودية أم يسوع؟

فكلا الأمرين، أولاً، بعيدان عن مقصدنا.

وكلا الأمرين، ثانياً، إن طرقنا بابهما، يُفضيان بنا إلى المنزلقات إياها التي سقط فيها معظم المثقفين الغربيين - من مسيحيين ويهود وحياديين...

ولنكتفِ باستعراض بعض الوقائع التاريخية الأساسية، التي حدثت في القرن الأول، تلك التي لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يخفّف من شأنها، أياً كان انتماؤه الديني أو الآيدلوجي، بل القومي أو العنصري...

ثم نعمد إلى استطلاع التوجّهات التاريخية التي انطلقت من هذه الوقائع، والتي كُتِب لها أن تتحكّم لقرون طويلة بالعلاقات بين اليهودية والمسيحية.

ولكن ثمة ملاحظة منهجية أولية لا بد منها، وهي اعتمادنا على استعمال كلمة كنيسة، لنشير إلى الجماعة المسيحية، وكنيس، لنشير إلى الجماعة اليهودية.

من هذه الوقائع:

أولاً، على الرغم من قضاء اليهود على يسوع، ظهرت جماعة

يهودية صغيرة في فلسطين، اعتبرت نفسها تابعة ليسوع، دون أن تنفصل بأي حال عن الجماعة اليهودية الكبرى، فظلّت على يهوديتها، من حيث الصلاة في الهيكل، ومن حيث تقيّدها بالتشريعات اليهودية النافذة كلها.

ثانياً، رافقت هذه الجماعة في المرحلة الأولى، طقوس دينية جديدة، كالعماد وكسر الخبز، نبعت من العقيدة الناشئة، دون أن تُحدث شرخاً في العلاقات الدينية الأساسية بين الجماعتين.

ثالثاً، ظهرت في وسط هذه الجماعة، روح اجتماعية جديدة، نبعت من الإيمان بمساواة الجميع أمام الله، ومن ضرورة العيش بمحبة كاملة، كما دعا إلى ذلك المعلّم، وتجلّت في اشتراك الجميع في ما يملكون كلّهم، في نزعة اشتراكية عفوية دفعت الأغنياء إلى بيع ممتلكاتهم، لوضعها في تصرّف المسؤولين عن هذه الجماعة، لتكون في خدمة الجماعة.

رابعاً، لم يكن أفراد هذه الجماعة يهوداً حصراً، بل قبلوا في صفوفهم عدداً من الهيلينيين، كان من أبرزهم استفانس.

خامساً، لم تنشأ هذه الجماعة دون معارضة، ولكن هذه المعارضة تفاوتت بين تهديد ومحاكمة، وسَجن وضرب، حتى انتهت إلى أوّل عملية اضطهاد، وقد ذهب ضحيّتها استفانوس إيّاه، وكان الشاهد على قتله شاول.

سادساً، مجموع هذه العوامل الدينية والاجتماعية والنزاعية، انتهت بهذه الجماعة إلى اتخاذ موقفين، كانا حاسمين على صعيد العلاقات بين اليهودية والمسيحية:

الموقف الأول: تبشيري، وهو انتشار أفراد هذه الجماعة داخل

فلسطين وخارجها، بحيث كان لهم فرع في دمشق بالذات، بلغ من النفوذ ما دفع زعماء اليهود إلى تكليف أشدّهم عداوة للمسيحية، وهو شاول بالذات، لاقتياد مسيحيّي دمشق إلى القدس، كي يُصار إلى محاكمتهم هناك والقضاء عليهم.

الموقف الثاني، لاهوتي، وهو بلورة العقيدة الجديدة، بعد أخذ وردّ مضنيين وطويلين، انتهى بالمسيحية إلى أن اعتبرت نفسها الامتداد الشرعي الوحيد لليهودية، بل البديل الكامل لها، التي تُلغي بوجودها، وجودَ اليهودية كدين.

مرة أخرى نواجه المفترق الخطير والنهائي: الكنيس أم الكنيسة؟

وتبدأ وقائع جديدة، زادت الصراع حدّة والمجابهة جذرية، نشير إلى أهمها:

أولاً: اتساع نطاق انتشار الجماعة الجديدة، حتى كان من أبرز معتنقيها ذاك المسمّى شاول، الذي سيتّخذ بعد اعتناقه المسيحية، اسم بولس، والذي سينصبّ جميع المؤرّخين اليهود والحياديين على اتهامه بتحريف عقيدة البدعة الجديدة وتضخيمها، بحيث بات في نظرهم المؤسّس الحقيقي الوحيد للمسيحية، فكرياً وحضارياً.

ثانياً، اتساع نطاق اضطهاد اليهودية للمسيحية، وملاحقتها في كل مكان، بدءاً من القدس وفلسطين، حيث أمر الملك أغريبا بقتلهم عام 44، وامتداداً إلى سائر أنحاء الإمبراطورية، مسخّرين لذلك كل ما كانوا يتمتّعون به من نفوذ، وانتهاءً بروما حيث استطاعوا أن ينظّموا ضدّهم اضطهاداً كان من أبرز وأقسى ما واجهت المسيحية، وذلك على يد نيرون عام 66.

ثالثاً، موقف الإمبراطورية الرومانية، سلطات وشعوباً، من الجماعة الجديدة، في المرحلة الأولى، لم يكن ليختلف عن موقفها

من اليهود: كانت كلا الجماعتين يهودية، وبالتالي تتمتّعان بالامتيازات نفسها، وتتحمّل القيود المهينة نفسها.

ولكن ما إن اتضحت خطوط التباين بينهما، حتى انصبّت الاتهامات القديمة التي ألصقت باليهود، على الجماعة الجديدة. فأصبحت الكنيسة في نظر السلطات الرومانية والمثقفين الرومانيين، عدوّ البشرية الأول، تدعو إلى الإيمان بخرافات حقيرة، وإلى ممارسات طقسية غريبة فاجرة... حتى انتهى الأمر بها بظهور ما يُشبَّه بتحالف بين الإمبراطورية والكنيس ضد الكنيسة.

تلك هي بعض الوقائع الأساسية التي لا يمكن دراسة العلاقة بين اليهودية والمسيحية، في القرن الأوّل، دون أخذها بعين الاعتبار.

ولن نتصدّى لمحاولة المثقّفين المسيحيين في الغرب، في تبرير هذه الوقائع بما يتلاءم وعقدة الذنب حيال اليهود، المتأصلة فيهم كالسرطان...

حسبنا فقط استعراض التوجّهات الكبرى التي نجمت عنها في كلا الجماعتين، والتي تحكّمت بعلاقة كل منهما بالأخرى، مشيرين بين حين وآخر، إلى ما رافقها من وقائع رئيسية، تحدّثنا عن بذور العدوانية المتبادلة بين الكنيس والكنيسة، وبالتالي عن بذور اللاسامية في الغرب.

التوجّه الأول: من الجانب المسيحي: رسوخ إيمان الجماعة الجديدة بحلولها محلّ الجماعة القديمة بالكلية، ديناً وعقيدة ودعوة إنسانية شاملة. والإعلان عن ذلك صراحة، على يد الرسل أولاً، قولاً وكتابة، في هيكل القدس بالذات، وفي الكنس اليهودية، وفي بيوت الصلاة، وفي الساحات العامة، ولدى القضاة، ثم في رسائل بولس خصوصاً، وبطرس ويوحنا عموماً، وفي كتاب أعمال الرسل،

ثم في الأناجيل الأربعة بحسب كل من متّى ومرقس ولوقا ويوحنا. ثمّ، ومن بعد الرسل، على يد المسؤولين الأولين في الكنيسة، المعروفين باسم آباء الكنيسة، سواء في القدس أو في روما.

والتوجّه الثاني من الجانب اليهودي: إصرار عنيف على رفض المسيحية، بعد رفض يسوع، يرافقه تصميم على ابتلاع الجماعة الجديدة في الحد الأدنى، ثم اجتثاثها من جذورها في الحد الأقصى. وقد تجلّى هذان الإصرار والتصميم في أغرب صوره، في فقرة أضافها أحد الكنس، عام 80، على الصلاة المعروفة باسم "اسمع يا إسرائيل"، وعُمّمت بسرعة مدهشة في الأوساط اليهودية كلها، وهي صلاة يتوجّب على كل يهودي أن يتلوها مرات في اليوم الواحد، وقد جاءت بمثابة الردّ اليهودي الرسمي على خروج المسيحيّين عن اليهودية، إذ تقول:

« ليُحرَم الكفرة من كل رجاء، وليُستأصَل سريعاً في أيامنا سلطان الكبرياء، وليُبَد الناصريون والكفرة في ثانية، وليُمحَوا من سفر الحياة، فلا يُحصَوا مع الصالحين. تباركت أيها الأزلي، مُحقّر المتكبّرين. »

توجّهان ما كان يمكنهما التلاقي بأي حال: فالصراع مصيري، لا يحتمل المساومة.

وتتوالى الشواهد على ذلك. نقتصر منها على أبرزها:

الحدث الأول: اضطهاد نيرون للمسيحيين في روما، حيث لم تكن السلطات لتميّزهم عن اليهود. وما من شك في أن محظيّته "بوبيا" اليهودية أو المعروفة بتعاطفها مع اليهود، كان لها التأثير الأكبر في تحويل النقمة الشعبية وتركيزها على المسيحيين. ويقول البابا اكليمنضس في رسالته إلى الكورنثيين، في الفصلين الرابع والخامس، إنّ ما دفعها إلى ذلك إنما هو "الحسد والغيرة".

والحدث الثاني، كان الحرب الطاحنة التي قامت بين اليهود في فلسطين والسلطات الرومانية ما بين سنة 66 وسنة 70، والتي انتهت باحتلال تيطس للقدس، وتدميرها وإحراق هيكلها، إذ كان لها أثر على صعيد العلاقات بين المسيحية واليهودية. فالمسيحيون كانوا غادروا مدينة القدس منذ بدء القتال، فبدا ذلك لليهود بمثابة غدر بهم، وتخلٍّ ليس عنهم فحسب، بل أيضاً عن الشريعة اليهودية والمصالح القومية. إلاّ أنّ المسيحيّين رأوا في دمار الهيكل تتمة نبوءات المسيح، وإيذاناً بانتهاء عهد اليهودية إلى الأبد، وبداية إحلال ملكوت المسيح، أي الكنيسة، محلّه، إلى الأبد.

ولقد لاحظ العديد من المؤرّخين التغيير العميق الذي طرأ على موقف الإنجيل من اليهود، في ما دُوِّن منه في أواخر القرن الأول، أي في إنجيل يوحنا. حتى إنّ بعضهم اعتبر الإنجيل بحسب يوحنا، مصدراً من مصادر اللاسامية الأساسية. إلاّ أنّ هناك من الباحثين من يؤكّد بأنّ الإنجيلي يوحنا "ليس سوى نبي يهودي، شُحِن بالسخط والغضب على المسؤولين عن الكنيس، لأنهم غرّروا بأبناء شعبه المحبوب، على هذا النحو المأساوي".

وينتهي الكاتب نفسه إلى تقرير ما يلي:

« ليس ثمة أساس ثابت يمكّن من توجيه التهمة للعهد الجديد، بأنه يحتوي على مصدر احتقار لليهود أو حقد عليهم. وإنّ الصيغة النهائية للعهد الجديد، تحمل ولا شك أثر الصراع القائم بين الكنيسة الفتية والكنيس، ولكنها لا توحي قطعاً أي احتقار للشعب اليهودي، ولا تنطوي على أيّ اتهام ظالم، أو أيّ نبوءة مهينة. »

الفصل الرابع

المواجهة الحاسمة

امتدّت هذه المواجهة قرنين كاملين: الثاني والثالث.

واتسمت منذ مطلع القرن الثاني، من الجانب المسيحي بطابع هجومي، جاء في منطق انتشاره السريع، على الرغم من مقاومة السلطات اليهودية والرومانية.

وقد تناول هذا الهجوم جوانب ثلاثة أساسية في علاقة المسيحية باليهودية:

أولها: الوعد والعهد، فأكّدت المسيحية على سقوط اليهودية من هذين الوعد والعهد بصورة نهائية، وعلى حلولها محلّها أمينة عليهما إلى الأبد...

ثانيها: الممارسات اليهودية، فأكّدت المسيحية على ضرورة تجنّب اتباعها أي شكل من أشكال العدوى باليهودية، واصفة الذين يأخذون بهذه "الممارسات البائدة"، "بشاهدات الأضرحة التي لا تحتوي سوى أسماء بشرية".

ثالثها: "الجريمة اليهودية"، أي جريمة قتل اليهود للمسيح، وما يستتبعها من عقوبة إلهية، حلّت وستحلّ بهم.

وقد جاءت هذه المواقف في المؤلفات المسيحية الأولى، المعروفة خارج أسفار العهد الجديد. بعضها لا يُعرَف واضعها، ولكنه نُسِب إلى الرسل بصورة جماعية، ككتاب "تعليم الرسل"، المعروف باسمه

اليوناني "الديداكي"، وبعضها نسب إلى هذا أو ذاك من الرسل أو إلى أحد تلاميذهم الأولين، كالكتاب المعروف باسم "رسالة برنابا". وكلاهما يعود على الأرجح إلى مطلع القرن الثاني.

إلاّ أنّ من المؤلّفين من وصلتنا كتاباتهم كاملة، وقد حرصوا على إبراز مواقف المسيحية من اليهودية بجرأة ووضوح، لا يدعان مجالاً لأي لبس. على رأسهم يأتي "حوار مع تريفون"، للفيلسوف النابلسي الشهيد يوستينوس (100–165 م). وهو يؤكّد على الحقد اليهودي المشحون برغبة القتل حيال المسيحيين، فيقول: "أنتم تبغضونا، وكلما أتيحت لكم الفرصة، تقتلونا". وهو يعود باليهود إلى جريمتهم الأولى: قتلهم المسيح، حيث يقول لهم: "لقد صلبتموه، هو المنزّه الأوحد عن الخطيئة، والصدّيق، ولقد ذهبتم بالفساد فيكم إلى المدى الأبعد، فأبغضتم القديس الذي قتلتم". وتجدر الإشارة إلى أنّ تريفون اسم محوّر لحاخام يهودي شهير يدعى تارفون، اختاره يوستينوس محاوراً له في أولى المحاولات المسيحية التي قامت لدحض اليهودية.

ومن شمال أفريقيا، يُطلّ علينا الكاتب اللاتيني ترتوليانوس (155–222) بوصف مماثل لموقف اليهود من المسيحيين، حتى إنه يصرّح في كتابه "إلى الأمم"، "بأن اليهود منبع جميع الافتراءات ضدّنا نحن المسيحيين". ويلتقي هذا الرأي مع رأي الفيلسوف الفلسطيني الشهير "أوريجينوس" (185–253)، الذي يؤكّد "أن اليهود يستشيطون غضباً ضدّ المسيحيين دون كلل". ويذهب أوريجينوس إلى ما يمكن تسميته بلاهوت الغضب الإلهي، فيقول عن اليهود في كتابه "ضدّ سلسيوس":

« بوسعنا أن نؤكّد بكل ثقة، أن اليهود لن يستعيدوا أبداً وضعهم

السابق، لأنهم ارتكبوا أكثر الجرائم هولاً، إذ حاكوا تلك المؤامرة ضد مخلّص الجنس البشري... فكان نتيجة لذلك محتوماً على المدينة التي تألم فيها يسوع، أن تُدمّر برمّتها، وعلى الشعب اليهودي أن يُطرَد من داره، فيوجّه الله دعوته لسواهم ليكونوا محطّ اختياره. »

مثل هذه التأكيدات بلغت في المؤلّفات المسيحية الأولى، حدّاً من الاتساع والتكرار، جعل بعض المؤرّخين، بل واللاهوتيين المعاصرين، يتّهمون واضعيها بالمبالغة، وبتحويلهم الإنسان اليهودي إلى "صورة مجرّدة"، يُسقطون عليها اتهاماتهم جزافاً. ولكن المعروف عن هؤلاء الآباء الأولين، أنهم كانوا على اتصال وثيق ببعض الحاخاميين، يستشيرونهم في بعض التفسيرات الكتابية دونما حرج. والثابت أيضاً أنّ عنف اليهود في وجه المسيحيين، واقع تاريخي لا ينكره حتى ولا المؤرّخون اليهود أنفسهم.

وقد اتّخذ هذا العنف أشكالاً متعدّدةً، فكان تارة تحريضاً ناجعاً للسلطات الرومانية على المسيحيين، وتارة أخرى مشاركة في مقتل هذا أو ذاك من المسيحيين، الذين حكم عليهم الرومان بالموت، كما فعلوا بالقديس سمعان أسقف القدس، عام 117، في عهد الإمبراطور ترايانوس، وكما فعلوا أيضاً بالقديس بوليكربوس في مدينة أزمير، إذ حكم عليه بالموت حرقاً عام 155، وكان طوراً اضطهاداً مباشراً شاملاً يطال المسيحيين الذين يرفضون إنكار المسيح، كما فعل بهم "باركوكبا" إبان ثورته عام (132- 135). وقد جاء بهذا الصدد كلمة على لسان القديس "بيونيوس"، أسقف أزمير الذي قال لليهود، قبيل تنفيذ حكم الموت فيه حرقاً: "أيها اليهود، اصغوا إليّ: لئن كنّا أعداء بالنسبة إليكم، إلا أننا بشر. هل بينكم من أسأنا إليه؟ هل أنزلنا بكم

أي تعذيب؟ متى اضطهدناكم ظلماً؟ متى شهّرنا بكم في خطبنا؟ متى عاملناكم بقسوة وقدناكم إلى التعذيب؟"

إلاّ أنّ جميع هذه الأشكال من الاضطهاد والافتراء، لم تكن لتضاهي، في نظر المسيحيين، بهولها، الافتراءات التي حاكها اليهود ضدّ يسوع. فشكا من هذا الأمر جميع من كتبوا: يوستينوس وترتوليانوس واوريبيوس وهيبوليتوس واوريجينوس. وأُدرِجت بعض هذه الافتراءات في التلمود الفلسطيني الذي صيغ خلال القرنين الثالث والرابع. وقد لخّصها اوريجينوس في كتابه "ضدّ سلسيوس"، على النحو التالي: "يسوع ابن غير شرعي لمريم ولمجنّد روماني يدعى "بانتيرا"، وقد كان مشعوذاً وساحراً قتله اليهود. ونُسِبت إليه بعد موته خوارق غير معقولة".

وكان أن ذهب أحد الحاخاميين، وهو "تارفون الأورشليمي"، إلى اعتبار المسيحية "العدوّ الأكبر"، وكان يستنزل على ذاته لعنة الله، إن لم يحرق العهد الجديد دونما اكتراث بالاسم الإلهي الموجود فيه، ذلك بأنّ المسيحيين في نظره أسوأ من الوثنيين. أما الحاخام "ميئير"، فكان يصف العهد الجديد بأنه "وحي الخطيئة".

من الواضح أنّ المقاومة اليهودية في وجه المد المسيحي، لم تكن متساهلة، ولا غبية. والحقيقة أن هذا المدّ المسيحي، سواء في بُعده الاجتماعي، أو في أساسه اللاهوتي، كان يبدو وكأنه يهدّد الوجود اليهودي برمّته. فعلى الصعيد الاجتماعي، اتسعت المسيحيّة اتساعاً مذهلاً، نافست به اليهودية في حركتها التبشيرية. وعلى الصعيد اللاهوتي، انتزعت منها مبرّر وجودها، وباتت تردّد تحت أقلام أئمّتها وعلى ألسنتهم بأنّ الكنيسة حلّت محلّ الكنيس، وبأنها أقدم من إسرائيل نفسه، وبأنها الشعب الجديد، وبأنّ يسوع هو المسيح

المنتظر، وبأن الشريعة الموسوية لم تكن تخصّ سوى اليهود، ذاك الشعب الذي تمرّد على ربّه، وخرج على طاعته، وصلب مسيحه، فبات ملعوناً منبوذاً، حُقّت عليه لعنة الله والبشر... واستحقّ ما ينزل وسينزل به من مصائب.

إلا أنّ هذا الخط المتصلّب، لم يكن ليخلو أحياناً من ومضات من التعاطف، يُستشَفّ منها تأثّر واضح بلاهوت القديس بولس بشأن اليهود. وأبرز هذه الومضات جاءت في كتاب يُعرف باسم "ديداسكاليا"، وهو مجموعة من الصلوات الطقسية تعود إلى القرن الثالث، ولا تتردّد في اعتبار اليهود مسؤولين عن موت المسيح، ولكنها كذلك لا تتردّد في وصفهم "بالإخوة". وفيها إيعاز إلى المسيحيين بضرورة الصيام من أجل اليهود أثناء فصحهم بالذات: "سوف تصومون من أجل إخوتنا الذين تمرّدوا. ولا بدّ لكم من أن تدعوهم إخوة، حتى لو كنتم تبغضونهم".

ثمّة سؤال لا بدّ من مواجهته، قبل الانتهاء من استعراض هذه الفترة:

لئن كانت الكنيسة في مثل هذا المدّ الكاسح، فما الذي يستدعي من فلاسفتها ومفكّريها ردّاً على اليهودية، على مثل هذا النحو من التشديد والشمول؟

إن الإجابة تقتضي إشارة سريعة لواقع العلاقات القائمة بين أتباع الديانتين، ولواقع النزعة التبشيرية لليهودية.

صحيح أن اليهودية تعرضت بعد حرب عام 70 وعام 135، لانكماش روحي كبير، بدت فيه وكأنها تخلّت عن اندفاعتها التبشيرية، وانطوت على ذاتها تُطيل التأمل في ما حلّ بها، وفي الشريعة كهدف وحيد تبقّى لها.

إلاّ أنّ هذه الفترة، في الواقع، لم تدم طويلاً، فاستردّت اليهودية أنفاسها، وواصلت اندفاعتها التبشيرية بزخم أعظم، فعرفت اليهودية والمسيحية منافسة عنيفة وخطيرة، دامت حتى منتصف القرن الخامس. ويُجمع المؤرّخون على أنها كانت إذ ذاك تشكّل خطراً على المسيحية في اتجاهات ثلاثة:

الاتجاه الأول:

اكتساب أكبر عدد من الوثنيين إلى صفوفها، وكانت في ذلك تتمتّع بامتيازين تفتقر إليهما المسيحية: امتياز القِدَم، وامتياز امتلاكها كتاباً منزلاً.

الاتجاه الثاني:

التأثير على المسيحيين الجدد، ولا سيما اليهود منهم، لتبنّي العادات والتقاليد والطقوس اليهودية، فضلاً عن التقويم المتعلّق بعيد الفصح. وقد كان أحدث هذا التأثير، الكثيرَ من التمزّقات، وزرع بذور هرطقات لاهوتية اتسع نطاقها بمرور الزمن.

الاتجاه الثالث:

وكان أفدحها خطراً، ويأتي في منطق الاتجاهين السابقين، وهو نشوء هرطقات لاهوتية بتأثير اليهودية مباشرة أولاً، والإسهام ثانياً في الهرطقات المسيحية الصرف، بحيث يتّسع نطاقها ويعمّ شرّها. وقد بدأت هذه الظاهرة منذ القرن الأول، بحركة عُرِفت باسم الايبيونية - تهدف إلى التوفيق بين الإيمان بالمسيح والوحدانية الموسوية - وتواصلت في حركات كثيرة، منها "القاسية"، و"السيماخية"، و"السيرانتية"، و"الغنوصية"، أجمعت كلها على الأخذ بالشريعة اليهودية، ولكنها اختلفت بشأن المسيح، وانتهت بالأريوسية، التي كادت تقوّض أركان المسيحية في الشرق كلّه.

بعد كل ذلك نعود إلى السؤال الأساسي:

هل من مكان للاسامية في الكنيسة عبر القرون الثلاثة الأولى؟

ثمّة صعوبة: في تلك الفترة اختلطت الأمور على جميع الأصعدة: دينياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً، بحيث بات من المتعذّر على الباحث، تبيّن المكمن الحقيقي لتلك الحركة العنصرية المسمّاة اللاسامية. صحيح أن الصراع على البقاء بين المسيحية واليهودية كان حادّاً، وقد استدعى من كلا الطرفين اتخاذ مواقف لم تكن في الغالب لتشرّفهما كليهما. إلاّ أنّ ظاهرة اللجوء إلى العنف الجسدي، الفردي والجماعي، كان من نصيب اليهودية وحدها آنذاك، كما أن الدسّ على المسيحية لدى الأوساط الرومانية المتنفذة من جهة، والاندساس إلى صفوفها والتشويش على معتقداتها من جهة ثانية، قد سارعا كثيراً في بلورة لاهوت مسيحي، احتلّت فيه جريمة قتل المسيح مكاناً واسعاً، ودفعته في اتجاه سيكولوجي، مهّد لسيطرته طوال القرن الرابع، ولاستفحاله عبر القرون التالية.

الفصل الخامس

المنعطف الكبير: القرن الرابع

الفقرة الأولى: تلاقي السياسة واللاهوت

يجمع المؤرّخون على أنّ القرن الرابع كان منعطفاً حاسماً، في تاريخ العلاقات بين المسيحية واليهودية. ففيه تمّ التلاقي شيئاً فشيئاً بين السياسة الرسمية واللاهوت المسيحي، على نحو لا ينفي قيام تنابذ عابر بين حين وآخر. كما أنّ الانتقال من هذين الصعيدين إلى صعيد التشريع القانوني، جاء في منطق الأمور، يدعمه واقع العنف المعاش بين الجماعتين.

قد يبدو لنا اليوم أنّ سير التاريخ آنذاك كان منطقياً أو محتوماً: الحقيقة أن المؤرّخين يعانون إلى اليوم من صعوبة تفسير ما أسموه "ثورة قسطنطين". فلم يكن في الأفق السياسي ما ينذر بحدوث مثل هذا التزاوج السريع بين الإمبراطورية والكنيسة. والاضطهاد الذي أشعله في أرجاء الإمبراطورية كلّها "ديوكليسيانوس"، في مطلع القرن الرابع، كان أعنف ما واجهت المسيحية حتى ذلك الحين. وكل ما حدث بعد ذلك، بدا وكأنه مجرّد مرحلة من صراع على السلطة، بين قائدين اقتسما مناصفة الإمبراطورية: قسطنطين وماكسانس. وعندما قُتِل ماكسانس على أبواب روما، في 28 تشرين الأول عام 312، لم يكن من المتوقع أن الإمبراطور قسطنطين سيقدم في العام التالي على الإعلان في ما

يعرف بشرعة ميلانو، عن تساوي الديانات كلها في نظر السلطة، وعن الاعتراف للمسيحية بحقها في الحياة والممارسة.

ولكن سرعان ما توالت أحداث أظهرت السلطة الإمبراطورية الجديدة وكأنها تبنّت بالكلية المسيحية ومصالحها، على حساب الوثنية وسائر الديانات، بما فيها اليهودية. وكان من ثم تحالف بين السلطة السياسية والكنيسة، ذهب عمقاً وصعوداً، إلى أن دعا الإمبراطور نفسه، بالاتفاق مع السلطات الكنسية كلّها، بما فيها البابا في روما، لعقد مجمع يضم ممثلي الكنائس كلّها، شرقاً وغرباً، للنظر في حركة أريوس، ومن ثم لاستصدار أسس لاهوتية وتشريعات كنسية، تتلاقى والتطورات الجديدة، المفاجئة والجذرية. وكان ذلك في نيقيا، بالقرب من العاصمة القسطنطينية، عام 325. من يومها ارتبط مصير الكنيسة بمصير السلطة الإمبراطورية، وأصبحت الكنيسة كنيسة السلطة والدولة.

في الجانب المقابل، بدأ نجم اليهودية في أفول. فاليهودية عندها كانت قد رُحّلت نهائياً عن فلسطين، فاتخذت لها مركزاً فكرياً وروحياً في ما بين النهرين. ثم أخذت تنكمش على نفسها في نطاق الإمبراطورية، وتفقد من زخم روحها التبشيرية. ثم صدر عام 425، مرسوم إمبراطوري بإلغاء مركز البطريرك، وهو السلطة العليا في اليهودية. وكانت قبل ذلك بمائة عام تقريباً، قد صدرت، قبيل وفاة قسطنطين، قرارات بحقّ اليهود، حرمتهم العديد من امتيازاتهم السابقة، وحظّرت عليهم بصورة نهائية العمل التبشيري.

من الأسباب الواضحة الكامنة وراء تدهور وضع اليهود في الإمبراطورية، صعود نجم المسيحية من جهة، عدداً ومثقفين، وتصميم اليهود، من جهة أخرى، على التسلل إليها بقصد

"تهويدها". ثم إن اتساع عدد معتنقي المسيحية آنذاك، ولا سيما من أبناء الطبقة الوسطى، حقن المسيحية والسلطة الإمبراطورية بالأفكار السابقة المناوئة لليهودية، فكان ما يشبه التواصل بين "اللاسامية الوثنية" و"اللاسامية المسيحية". وقد التقى كل ذلك بتفسير حَرفي للعهد القديم، تبنّاه معظم آباء الكنيسة آنذاك، وأبرز كل ما تميّز به اليهود من مساوئ، وما أكثرها، فدعم اتجاهاً لاهوتياً عاماً، سيطر طوال القرن، ويقوم على اعتبار كل الشقاء الذي حلّ - وسيحلّ - باليهود، نتيجة حتمية لصلبهم المسيح. ولا ننسَ إلى ذلك، الوضع الخاص الذي كان اليهود يُصرّون على إبرازه في علاقاتهم مع سواهم، بوصفهم "الشعب المختار" أبداً.

كثيرون هم الأساقفة والآباء الذين تصدّوا بعنف، وأحياناً بعنف لا مثيل له، لليهودية، طوال القرن الرابع، حتى إنّ الإنسان ليحار حقاً في تفضيل أحدهم على سواه، من حيث عنف اللغة والفكر. إلاّ أنّ الجميع يُجمعون على النهل من العهد القديم بالذات، ليبرزوا ما يريدون أن يذهبوا إليه، في الكشف عن الشر المتأصل في هذا الشعب. وقد أمدّهم الأنبياء أنفسهم والمزامير، وبعض الأسفار التاريخية، بما كانوا يبحثون عنه، وعلى أكمل وجه... ثم إن العهد الجديد، بتأكيده في بعض آياته على تصلّب اليهود، ورفضهم المسيح من جهة، وتشتّتهم وخراب هيكلهم من جهة ثانية، قدّم لهم الدليل القاطع على أن غضب الله يلاحقهم دون هوادة.

من كلا العهدين إذن، نهل آباء الكنيسة، آنذاك، بوفرة.

من أبرز هؤلاء الآباء، أسقف قيصرية فلسطين، المؤرّخ أوسابيوس، الذي توفي عام 340. وقد كتب مجلدين ضخمين، هما "تمهيدات إنجيلية" و"براهين إنجيلية"، يؤكّد فيهما، في ما يؤكّد، أن

الشعب اليهودي شعب فاسد في جوهره، وأنّ لعنة الله تطارده أينما حلّ. وقد ردّد النظرية نفسها أسقف مدينة بواتييه، هيلاريون، الذي توفّي عام 367، في كتابين آخرين، هما "شرح إنجيل متّى" و"شرح المزامير". كما حذّر أفرام السوري، في أناشيده الطقسية الشهيرة، من التعامل مع "العاهرة"، وكان يعني بذلك الكنيس اليهودي. أما أسقف القدس، القديس كيرللس، الذي توفّي قرابة عام 386، فاعتبر اليهود شعباً حقيراً يتزّعمه تنظيم خطير مدمر، يرأسه أجدادهم الأولون. ويذكر القديس أبيفانيوس، الذي توفّي عام 403، في معرض حديثه عن دسائس اليهود، جماعة تدعى "الهيروديين"، فيقول عنهم "إنهم يهود حقيقيون، لأنهم وقحون وغادرون". والمعروف أن القديس غريغوريوس النيصائي، الذي توفّي عام 396، والقديس ايرونيموس التلحمي، الذي توفّي عام 420، كانا من أعنف من تصدّى لليهودية.

إلا أن الأثر الأكبر والحاسم في هذا المجال، كان لكل من القديس يوحنا الملقب بصاحب الفم الذهبي، رئيس أساقفة القسطنطينية، والقديس أغسطينوس، أسقف هيبون، في تونس الحالية.

بلغت لغة القديس يوحنا حداً من العنف، جعل المؤرخين اليهود والمسيحيين الغربيين المعاصرين، يعتبرونه مسؤولاً بنسبة كبيرة عن الشحنات اللاسامية التي شُحِن بها اللاهوت المسيحي عموماً، والمسيحية الغربية خصوصاً، طوال قرون متتالية. وقد تناثرت هنا وهناك في عظاته اللامحدودة والنارية، تهجّماته على اليهود، إلا أنه خصهم أيضاً بست عظات تحمل عنواناً فاضحاً: "ضد اليهود". والمعروف أنه لم يكن ممّن يهادنون، حتى إنه لم يهادن السلطة

الإمبراطورية نفسها، ممّا عجّل في القضاء عليه. فلم يكن بيده بالتالي أن يهادن اليهود. لم يفعل، سواء يوم كان خطيب كاتدرائية أنطاكية العظمى، أو يوم أصبح رئيس أساقفة القسطنطينية. وكان اليهود في كلا المدينتين الكبريين، يؤلّفون جماعة كثيرة وقوية، لها نفوذ مالي وسياسي وديني كبير. فسخّر نبوغه الخطابي وإيمانه كلّه، لمهاجمتهم ومهاجمة مَن يدعمهم، أياً كان مركزه.

وكان له عليهم مآخذ كثيرة، منها "أنهم لصوص شهوانيون، جشعون، حقودون، دهاة"، و"أنهم متأصلون في الإجرام وفي تدمير الناس"، و"أن الفسق والسكر منحاهم عادات خنزيرية"، و"أنهم يهوون العربدة والاقتتال والاسترسال في أكثر أشكال القتال عنفاً"، و"أنهم يتفوّقون بوحشيّتهم على الحيوانات المفترسة"، و"أنهم نجسون وكفّار يحبّون السرقة والجشع وخداع الفقراء". ومن يعرف حبّ يوحنا للفقراء ودفاعه عنهم، ومهاجمته السلطة الإمبراطورية نفسها، بسبب المظالم المرتكبة آنذاك بحقّ الفقراء، يُدرك تماماً بعض أسباب نقمته على اليهود...

ويرى يوحنا في الكنيس اليهودي "مبغى"، و"وكر لصوص، ومسكناً للشيطان والعار، كما هي النفس اليهودية"...

إلا أنّ القديس يوحنا لم يكن ليكتفي بهذه الهجومات المذهلة بعنفها. بل كان يدعمها بنظرة لاهوتية إلى اليهودية، كانت في أساس موقفه كله. وهذه النظرة تُلخّص بكلمة واحدة: الشعب اليهودي فاسد في جوهره، لأنه أقدم على قتل المسيح. فتلك جريمة "لا مغفرة لها ولا تكفير"، وهي تستحقّ عقاباً أبدياً. ومن دلائل هذا العقاب، تشتّتهم ودمار الهيكل. ويوحنا يؤكد أن هذين الدمار والتشتت، حدثا بفعل البشر، ولكن الفاعل الحقيقي هو الله. ولذلك حُكم عليهم

بالعبودية المؤبدة. ولئن كان الله محبّة، إلا أنه يكره اليهود، ويكره الذين يحبّون اليهود أو يتعاملون معهم، ولا سيما المسيحيين منهم. واللعنة ستحلّ بأصدقائهم يوم الدينونة، لأن الله سيقول لهم في ذلك اليوم: "ابتعدوا عني، لأنكم أقمتم علاقات مع قتلتي..." ويرى يوحنا أن من واجب المسيحي بغض اليهود، وأن شرط محبة المسيح قتال اليهود. وهو يحرّض المسيحيين على نبذ اليهود وملاحقتهم. ولا يتورّع عن تقديم نفسه قدوة في ذلك فيقول: "أبغِضُ الكنيس بصورة خاصة، لأنها تمتلك الشريعة والأنبياء، وأبغض اليهود أيضاً لأنهم يلحقون الإهانة بالشريعة".

لا شك في أن مثل هذا العنف، يصدر عن إنسان في مكانة يوحنا الكنسية، وفي مستوى قداسته الحقيقية، أذهل ويذهل. وقد حاول الكثيرون تفسيره بعض الشيء، أو العثور على تبرير له. والحقيقة أن معظم الذين تصدّوا لمثل هذا الإشكال، قلّصوا، لسبب أو لآخر، حجم النفوذ اليهودي آنذاك، ليُبرزوا تجاوز يوحنا لحدود المحبة المسيحية، ويَصِموه باللاسامية، بل ليعتبروه أحد مؤسسي اللاسامية.

أما القديس أغسطينوس، وقد عاش من 354 إلى 430، فهو يتخذ من اليهودية موقفاً لا يخلو من الازدواجية أحياناً. وهي تعود إلى أنه حاول أولا السير على لاهوت بولس الرسول، من حيث فكرة نبذ الله لليهود أولاً، ثمّ من حيث عودتهم إليه، ودخولهم في ملكوت المسيح.

ولكن اغسطينوس عاد واصطدم بواقع اضطرّه للتخلي عن هذه النظرة، هو واقع تصلّب اليهود في وجه المسيح ثم المسيحية، وواقع تصميمهم على تدميرهما بكل الوسائل المتاحة لهم. وما كان ذلك

بخافٍ على أسقف هيبون. وإذا به، بذلك، يلتقي سائر الآباء الأولين في تنديدهم باليهودية، ولكنه يلطُف بهم بعض الشيء في وصفهم، لرقّة في طبعه. وهو مع ذلك، يجد نفسه مضطرّاً لوصفهم بالشعب الفاسد والقصير النظر، الذي يجسّد يهوذا، التلميذ الخائن، نمطه الحقيقي.

وفي سعيه إلى الكشف عن لغز هذا الشعب، انتهى به الأمر إلى صياغة لاهوت بهذا الشأن، كُتب له أن يلعب دوراً حاسماً وطويل المدى، على مسرح اللاهوت المسيحي كلّه. ذلك بأنه أبدع ما يُعرَف منذ ذلك الحين بنظرية "الشعب- الشاهد". وهي تُلخّص بفكرتين أساسيتين:

الأولى تقول أنّ الشعب اليهودي، بتصلّبه في وجه المسيح والمسيحية، يشهد على نفسه بأنه شرير.

والثانية تقول أنّ المسيحية هي حقّاً الديانة الصحيحة، لأنها انتصرت بالكلمة وحدَها وبالمحبّة، على جميع أشكال الرفض اليهودي، والاضطهاد اليهودي الوثني المشترك.

ويرى اغسطينوس نتيجتين حتميتين لهذه النظرية، تُعتبَران بمثابة توجيهين رئيسيين للمسيحيين عموماً، من حيث علاقتهم باليهود:

الأولى تقول بعدم جواز قتل اليهود، كي يظلوا على مدى التاريخ، شهوداً ضد أنفسهم، وبالتالي شهوداً للمسيح.

والثانية تقول بضرورة الأخذ بالمحبة في التعامل معهم، كي يعودوا يوماً إلى المسيح.

إنّ المتتبّع لأحداث التاريخ، ولتعرّجات العلاقات التالية بين

اليهودية والمسيحية، لا سيما بعد التحالف الذي قام بين الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة، ليكتشف خطورة تلك النظرية، في شقّها الأول - وقد أُهمِل الشقّ الثاني بالكلية - الذي برّر الكثيرون باسمه، فيما بعد، شتى أنواع الاضطهاد التي أنزلتها المسيحية، خصوصاً في الغرب، باليهود.

الفقرة الثانية: امتداد السياسة واللاهوت في التشريع والحياة.

كان منطق التاريخ يقضي بترجمة التلاقي الذي تحقّق بين سياسة الإمبراطورية ولاهوت الكنيسة، إلى تشريع ينظم العلاقات، وواقع يعاش يومياً. وهكذا كان. إلا أن ذلك لم يأت اعتباطاً ولا ارتجالاً، بل نتيجة اختمار طويل وتطوّر بطيء.

ذلك بأن الإمبراطورية الرومانية كانت، ككل المؤسسات القوية والواسعة، تنزع إلى المحافظة على إنجازاتها ومكتسباتها وعلاقاتها. وقد كان لها آنذاك مع اليهودية تقليد من العلاقات، كما رأينا، لا يمكن تغييره بسهولة، فكيف بها بالاستغناء عنه... كما أنها كانت، ككلّ دولة حريصة على استمرار سلطتها، وتفادي كل ما من شأنه أن يبلبل أوضاعها القائمة، تريد الحفاظ على النظام والسلام داخل حدودها، وبين مواطنيها واتباعها.

وقد أملى ذلك على الأباطرة الرومان، الذين تعاقبوا على السلطة طوال القرن الرابع وحتى مطلع الخامس، موقفاً تميّز بالمحافظة، على ما بدر من قسطنطين من انحياز سافر للمسيحية، وعلى ما اعترى سياسة هذا أو ذلك، تارة من رغبة صريحة في ترجيح كفّة المسيحية، وطوراً من نزعة عنيفة إلى تقليصها، إن لم نقل إلى استئصالها، كما فعل أبرزهم "يوليانوس" الملقب بالجاحد.

وكان من الواضح أن عجلة التاريخ بدأت تسير لصالح المسيحية،

ولم يكن عموماً بوسع الأباطرة العودة بها إلى الخلف. فإن الكنيسة كانت بلغت من الانتشار والنفوذ والعدد، ما وضع الدولة شيئاً فشيئاً في وضع التابع، لا الآمر، فأخذت الكنيسة تزن بثقلها على شروط العلاقات القائمة بينها وبين الكنيس من جهة، وبينها وبين الدولة الرومانية من جهة ثانية. بل إن ثقتها بنفسها أولاً، وتصميمها على قطع الطريق على محاولة تهويد اليهود للمسيحية ثانياً، أمليا عليها مواقف ترجمتها في مجامع كنسية محلية، قبل أن تأخذ بها الدولة، بل قبل أن تكون الدولة قد اعترفت بالكنيسة، مؤسسةً لها شرعيّتُها وقوانينُها. وإنّ قراءة تشريعات كل من الكنيسة والدولة الرومانية، لتكشف عن حقيقة الضغط البطيء، ولكن الأكيد والحاسم، الذي مارسته الكنيسة على الدولة، والذي صيغ في نتيجة الأمر بصورة قوانين نافذة، بدّلت شيئاً فشيئاً أصول الوجود اليهودي في الإمبراطورية الرومانية، بل أصول وجود الدولة الرومانية، حيث أن الجانب الديني أخذ يحتل المكانة الأولى في تشريعات الإمبراطورية، على حساب الجانب السياسي.

ثمّة خطّان متوازيان ومتكاملان لهذين التشريعين: خط التشريع المجمعي، وخط التشريع الإمبراطوري.

فعلى الصعيد الكنسي، تلاحقت القوانين منذ عام 306، التي ترمي إلى الفصل شبه الكامل بين الجماعتين، وكان أولها ما قرّره مجمع "ألفيرا"، بإسبانيا، في العام نفسه، بشأن حظر الزواج بين اليهود والمسيحيين، ما لم يعتنق الطرف اليهودي المسيحية. كما حظّر هذا المجمع على المسيحيين، طلبَ البركة لحقولهم من الحاخامين اليهود، والاستعانة بالأطباء اليهود. ثم جاء المجمع المسكوني الأول، الذي عقد في نيقيا، بإشراف الإمبراطور

قسطنطين نفسه، عام 325، واتخذ قراراً حاسماً بشأن إحدى أخطر المشاكل العالقة، وهي تاريخ الاحتفال بعيد الفصح، وقال بعدم الاحتفال به مع اليهود، كما كانت تقضي بعض الأعراف حتى ذلك الحين. ولكن الأمر لم يُنفّذ بسهولة وبسرعة، ممّا اضطرّ مجمع أنطاكية، المنعقد عام 341، للتشديد على القرار نفسه. وكان على الكنيسة أن تواجه المشكلة الرئيسية، ألا وهي التهويد، فعالجته في مجمع عُقد في بلدة صغيرة من تركيا الحالية تدعى "اللاذقية" عام 343، وحظّرت نهائياً على المسيحيين الالتزام براحة يوم السبت، وأمرتهم بالأخذ بالأحد، يوم راحة دائماً وثابتاً، إحياء لذكرى قيامة الرب. كما أنها حرمت عليهم قبول التقادم، أياً كان نوعها، التي تمتّ بصلة قريبة أو بعيدة، إلى احتفالات اليهود وأعيادهم.

وإنه لمن الواضح أن هذه القوانين الكنسية ليست بمستوى العنف، الذي بادر به آباء الكنيسة الكبار، اليهود واليهودية. ويبدو أن الكنيسة لم تتحرك، على العموم، إلا في المناطق، وخصوصاً في الظروف التي صادفت فيها خطراً على مؤمنيها. ومن المؤرخين من يرون أن اليهودية نعمت بحرية تامة، حيث لم تكن تشكل أي خطر. ومع ذلك فالمؤرخون اليهود المعاصرون يؤكّدون أن ظاهرة "الغيتو" تدين بوجودها لهذه التشريعات الكنسية الأولى... ولكن من المؤرخين الموضوعيين، من يهود أيضاً وسواهم، مَن يؤكّدون، استناداً إلى الوقائع التاريخية الثابتة، بأن "الغيتو" لا يدين في أساسه إلا "لطبيعة اليهودية بالذات" وأنه يعود إلى فترة سبقت بكثير ظهور المسيحية.

أما تشريعات الدولة، فقد تأرجحت أوّلاً بين مدّ وجزر، بين مسايرة للمسيحية مفرطة، وتأييد لها متردّد، وتمرّد عليها صارخ.

ولكنها في نتيجة المطاف، اندرجت في خط التشريع الكنسي، وجاءت متمّمة له، تدعمه بما تملك السلطة من نفوذ وقوة تنفيذ.

ثم إنها تناولت شتى الميادين، بدءاً من ميدان التبشير، وانتهاء بميدان الزواج والتوظيف والعمل.

على صعيد التبشير، صدر أول قانون معاد لليهودية في الإمبراطورية عام 315، وهو ينصّ على الحكم بالموت على من يرجم اليهود المهتدين إلى المسيحية، وعلى المسيحي الذي يعتنق اليهودية. إلا أنّ هذا القانون قلّما وجد طريقاً إلى التنفيذ، كما يعترف بذلك أحد أشدّ المؤرخين اليهود نقمة على المسيحية، وهو جول اسحق. وقد صدر عام 408، قانون جديد يجعل من التبشير اليهودي مساساً بالإمبراطور نفسه. كما صدر عام 438 قانون يحكم بالموت على من يحمل مسيحياً على اعتناق اليهودية، في حين أن اهتداء اليهود إلى المسيحية يلقى تشجيعاً واضحاً في نصوص القانون منذ عام 428.

وعلى صعيد الزواج، صدر العديد من القوانين التي تحظّر الزواج بين المسيحيين واليهود تحت طائلة الموت، يعود أبرزها إلى عام 339، وهو يصف هذه الزيجات "بالمخجلة"، وعام 388، وهو يعتبرها "زنى" يستوجب الموت لجميع الأطراف. ولكن الحقيقة تقضي بالاعتراف بأن تكرار هذه القوانين بين حين وآخر، يعني، كما يُقرّ بذلك المؤرّخ اليهودي المعاصر جول اسحق، أن هذه القوانين قلّما كانت تُنفّذ.

أما الوظائف ضمن الدولة، سواء في نطاق الجيش أو الإدارة، فقد حُظّرت على اليهود شيئاً فشيئاً، في حين كانوا فيهما من الكثرة بحيث أن آباء الكنيسة أبدوا أحياناً تخوّفهم من هذا الأمر.

وقد صدرت سلسلة قوانين، أبرزها عامي 408 و418، حظّرت عليهم دخول هذين الميدانين، وتبعتها قوانين أخرى حرّمت عليهم ممارسة المحاماة عام 425، وشتى الوظائف الثانوية عام 438، حتى وظيفة حارس السجن. كما ألغت محاكمَهم الخاصة، وحوّلتها إلى هيئات تحكيمية ليس إلاّ، للشؤون الدينية الصرف.

ورافق ذلك صدور قوانين أخرى حظّرت على اليهود أولاً إرغام عبيدهم على الخضوع لعادة التطهير اليهودية. ثم مُنعوا تحت طائلة الموت ومصادرة جميع ممتلكاتهم، من اقتناء العبيد، ولا سيما المسيحيين منهم. حدث ذلك عام 384 وعام 423. وكان هذا التشريع يُخفي صراعاً اجتماعياً واقتصادياً ودينياً كبيراً، بين اليهودية من جهة والكنيسة والدولة من جهة ثانية، إذ كان لليهود دور كبير في الصناعة والزراعة، وكلتاهما تحتاج إلى يد عاملة كثيفة وثابتة ومجانية. من هنا كانت خطورة القوانين الجديدة على هذا الصعيد. وقد انتهى الأمر باليهود إلى التخلي عن العمل في مجالي الزراعة والصناعة، وإلى التوجه شطر التجارة، حيث نجحوا على كل حال نجاحاً واسعاً، بفضل انتشارهم ونفوذهم في شتى أنحاء الإمبراطورية.

أما المجال الديني الخاص باليهود، فقد حظي بعناية خاصة من المشرّعين الرومان. صحيح أن دينهم كان لا يزال يعتبر مشروعاً، وذلك ثابت من القوانين الصادرة بهذا الشأن. فاليهودية في عرف القانون "ليست بدعة محظورة"، وللسلطات الدينية فيها حقوق رجال الدين المسيحي سواء بسواء، ولا سيما البطريرك، الذي كان يقيم في القدس، والذي كان اليهود يخصّونه كل عام بضريبة مستقلة. والقانون يحمي جميع اليهود الذين يمارسون شعائرهم

الدينية بهدوء ودون تعرض للمسيحيين، كما يحظّر على أي إنسان التعرّض لهم في ما يمارسون.

ومع ذلك، فلا بد من الإقرار بأن ثمة قوانين صدرت، تضيّق الخناق عليهم دينياً، وتكشف عن عدوانية واضحة مارسوها حيال المسيحيين في بعض أعيادهم، وفي بعض مقدساتهم كالصليب مثلاً، أو حيال اليهود الذين اعتنقوا المسيحية. ومن القوانين ما ضيّق أيضاً عليهم إمكانية الاهتمام بكنسهم وبترميمها أو إعادة بنائها، حتى إن البطريرك غماليئيل الرابع قد أقيل عام 415، لا لشيء إلا لأنه بنى كنيساً دون ترخيص مسبق، وكان أن هُدِم الكنيس بعد ذلك. ولقد ذهب المشرّع الروماني إلى أبعد من ذلك، فحظّر على اليهود ترميم الكُنُس أو تحسينها دون ترخيص مسبق، وكان ذلك عام 423. ولكن الضربة القاضية كانت عام 425، إذ صدر قانون بإلغاء منصب البطريرك، وبتحويل الضريبة المخصصة له إلى صندوق الدولة.

وبوسع أي قارئ للتشريع، أن يستشفّ من خلاله، حياة تزخر بالعنف والنزاع، لا سيما وأن القرن الرابع كان يحمل لجميع الأطراف، الإمبراطورية واليهودية والكنيسة، الإحساس العميق بأن هذه الحقبة ستقرّر مصير كل منها، والواقع، في الحقيقة، لم يكن سوى ذلك.

كان اليهود ما يزالون ينعمون بسمعة عنيفة في أرجاء الإمبراطورية كلّها. وكان من الواضح أنهم، بعد ما شلّ جنود روما حركتهم، تحوّلوا إلى حلفاء لروما على المسيحية تارة، وإلى مهاجمين منفردين طوراً. ولم تكن الذرائع لتنقصهم ولا المناسبات. والشكوى منهم متواصلة على لسان معظم آباء الكنيسة، من باسيليوس إلى غريغوريوس النيصائي، إلى المؤرخ سوزومينوس. وكانوا كلهم يجمعون على أن اليهود يضمرون للمسيحية "كراهية لا تلين".

كانت أولى مظاهر تمرّدهم في عهد قسطنطين، حيث حاولوا إشعال الثورة في فلسطين، بدءاً من مدينة قيصرية الجديدة، فكان مصيرها ومصير العديد من المدن، ذات الغالبية اليهودية، الدمار التام. وفي الاسكندرية انضموا إلى الهراطقة الأريوسيين ضد أثناسيوس وأعوانه. وفي عهد "يوليانوس الجاحد"، أحرقوا عدداً كبيراً من الكنائس، وتحالفوا مع الإمبراطور لتدمير معالم المسيحية في الإمبراطورية. وفي بلاد فارس، حرّضوا الكسرى شيبور الثاني على المسيحيين، وأشعلوا في "المدائن" و"أمنشتار" الاضطهادات عام 415، ثم عام 436. ولكن من أسوأ مظاهر عنفهم، ما أقدموا عليه في الاسكندرية عام 414، في عهد البطريرك كيرللس، حيث قتلوا مدرّساً وعدداً من المسيحيين. فأمر البطريرك، وكان يلقب "بالفرعون" لنفوذه الكبير، بالرد عليهم، فقُتِل من اليهود كل من صادفه المسيحيون في طريقهم، ولم ينجُ إلاّ الذين هجروا المدينة، وكانت الاسكندرية من أعظم مراكزهم عدداً ونفوذاً وتجارة.

وكان المسيحيون، على العموم، يقصرون عنفهم حيال اليهود، على التهجّم على كنسهم، مما حمل المشرّع الروماني على إصدار العديد من التشريعات، التي تحظّر على المسيحيين المساس بأماكن عبادة اليهود. إلاّ أنّ إحدى هذه الهجمات كُتب لها أن تفتح ثغرة كبيرة في التشريع والممارسة الرومانيين، سجّلت فيها السلطة الكنسية انتصاراً كبيراً على سلطة الإمبراطور نفسه. كان ذلك بمناسبة الاعتداء الذي وقع على كنيس مدينة "كالينيكوس" في ما بين النهرين، عام 388، حيث أحرق المسيحيون، بقيادة أسقفهم، الكنيس اليهودي. فأمر الإمبراطور "تيودوسيوس" بإعادة بناء الكنيس، وبمعاقبة المعتدين. فتدخّل أسقف ميلانو، "أمبروسيوس"،

وكان ذا نفوذ يَحسب له الإمبراطور نفسه حساباً كبيراً، وهدّد الإمبراطور بعدم قبوله في كنيسته الكبرى إن فعل، واتهمه بالإسهام في بناء "مكان خُصّص للكفر والإلحاد والجنون"، وأعلن أن على السلطة الزمنية أن تكون في خدمة الإيمان... وكان تهديد أمبروسيوس أعظم من أن يقاومه الإمبراطور، فأذعن وتراجع، وسقط بذلك، كما يقول أحد المؤرّخين، في اللاشرعية، إذ سلّم بأولويّة الدين على الشريعة المدنية.

بعد ذلك لم يعرف العنف المسيحي حدوداً، وانهال على الكنس يُهينها أو يدنّسها أو يحوّلها إلى كنائس. وتوالت مثل هذه الأعمال في شتى المناطق، في إيطاليا، وأفريقيا، وروما، وأنطاكية، والرها، وفلسطين. ولقد بلغ العنف بأسقف ميلانو امبروسيوس، مبلغاً جعله يُعلن، بعد الخراب الذي أُلحِق بكنيس روما، وأمر الإمبراطور "مكسيموس" بإعادة بنائه، بأن هذا العمل الشنيع هو الذي جلب اللعنة على الإمبراطورية، فسقطت تحت ضربات البرابرة.

إن هذا الاستعراض السريع لتطور التشريع، ولتوتر العلاقات بين اليهودية والمسيحية، يكشف عن أمور كثيرة أبرزها:

أن هذا التطور لم يكن لصالح اليهودية قطعاً.

وأن العنف اليهودي البادئ، قوبل بعنف لاحق أشد بلاءً، إذ استند إلى لاهوت كنسي، وإلى تشريع مدني، وإلى سلطة زمنية، سوف تزن بأرهق الأثقال على مصير اليهودية والمسيحية معاً في الغرب، طوال القرون الطويلة اللاحقة.

وأن الإنسان اليهودي بدأ يتحوّل منذ ذلك الحين بالتحديد، إلى أسطورة "اليهودي التائه"، المشحون بأحقاد، وهمية أو حقيقية، سوف تَنصبّ يوماً، ظلماً وخراباً، لا على الغرب، بل على الشرق العربي برمّته.

الفصل السادس

مـدّ وجـزر: حقبة القرون الوسطى

I- السقوط البطيء

نقف الآن على عتبة مرحلة هامة من تاريخ العلاقات بين اليهودية والمسيحيّة. إنها مرحلة القرون الوسطى التي تقودنا من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن الخامس عشر، أي قرابة ألف عام. وإن تقييم هذه المرحلة واجه ويواجه على جميع الأصعدة، تبايناً شاسعاً بين المؤرّخين والباحثين، من حيث طبيعة هذه العلاقات وأسبابها وأشكالها. إلا أنّ ما يستوقفني الآن هو، على نحو خاص، تقييم من كان منهم حيادياً بامتياز، دون إغفال تقييم من كان منهم مسيحياً أو ذا ثقافة مسيحية، ومن كان منهم يهودياً أو ذا ثقافة منحازة إلى اليهودية، لأن تلك الحقبة كانت تعني اليهودية والمسيحيّة معاً، أوّلاً وأخيراً.

والحقيقة التاريخية تقتضينا الاعتراف بأن تلك الحقبة كانت فترة مخاض طويل وعسير، بدأ بما بدا فوضى عارمة، ثم كان أن تداخل فيه كل ما كانت الإمبراطورية الرومانية قد اختزنت من حضارات قديمة، وثقافات إغريقية ورومانية، وبما كان يتدفّق عليها، بفعل الموجات البربرية، المختلفة والمتعاقبة، من زخم فوّار، وعنف أهوج، وقوى جديدة، مجهولة ومتحفّزة، فضلاً عمّا كانت الحروب

الدائمة مع الفرس تسبّبه من مدّ وجزر، داميين ودائمين، وفضلاً أيضاً وخصوصاً عما كان ينطوي عليه من تهديد مفاجئ ومتكرّر، الزحف الإسلامي، الطالع من مجاهل الجزيرة العربية.

وفي خضمّ هذه الفوضى العارمة، بدت الكنيسة، ولا سيما في الغرب، القوة الروحية الوحيدة، القادرة على مواجهة هذه القوى الجديدة، والسيطرة عليها، بل وتوجيهها، ليس فقط بما يحول دون انهيار كل شيء دفعة واحدة، بل بما يصنع حضارة جديدة وموحّدة. ومرة أخرى، تقتضينا الحقيقة التاريخية الإقرار بموضوعية، بأن صنّاع هذه الحضارة الجديدة، الفاعلين والحاسمين، كانوا قبضة من الشخصيات السياسية والدينية، الاستثنائية، الذين كان لحضورهم الشخصي، ولأدوارهم المختلفة، الفضل الأكبر في بناء هذا الكيان، التاريخي والجغرافي الجديد، الممتدّ على اتساع الإمبراطورية الرومانية السابقة، والذي انقسم شيئاً فشيئاً إلى كيانات سياسية وجغرافية مستقلّة، اتخذت لها أسماء مختلفة، ومساحات واضحة، دون أن تفقد ما كان يوحّدها من توجّه ديني مسيحي شامل، يخضع لسلطة دينية واحدة، هي سلطة البابا في روما. وأما هذه الشخصيات الفذّة، فكانت، وفق تسلسلها الزمني، "تيودوريك الكبير" (493–526)، زعيم قبائل "القوط"، والإمبراطور البيزنطي "يوستنيانوس" (527–565)، والبابا "غريغوريوس الكبير" (590–604)، والإمبراطور "شارلمان" (800–814)، مؤسّس السلالة الكارولية.

ثمّة فترتان طويلتان في هذه الحقبة، المسمّاة القرون الوسطى، تستدعيان وقفتين منفصلتين ودقيقتين. ولسوف أخصّ كلاً منهما بفصل كامل، إذ إنّ أوضاع اليهود، طوال تلك الحقبة، تلوّنت

بظروف متباينة جداً، ما بين الشرق والغرب، من بلاد فارس إلى العربية، ومن إيطاليا إلى إسبانيا. وليس بالطبع من تفسير واحد لهذا الذي حدث لهم، لا سيما وأن ازدهارهم أو تشرذمهم، كان يتوقّف على رغبات البابوات والملوك، أو الأساقفة والمجامع الكنسية، أو الخلفاء والنبلاء، وأحياناً على جموع الشعب أو الرعاع هنا وهناك. كما كان يتوقّف أيضاً على القوانين المختلفة، القديمة أو المرتجلة، التي كان مصيرهم مرهوناً بها. وكثيراً ما كانت الصدامات، الفردية أو الجماعية، تنشب بين اليهود وسواهم، دون سبب واضح. ومع ذلك، فإنه ليسعنا القول مع مؤرّخين وباحثين كثيرين، إنّ اليهود، خلال تلك الحقبة الطويلة، كانوا على صعيد العلاقات الاجتماعية، بل على صعيد العلاقات مع الكنيسة والدولة، حيثما كانوا وعاشوا، ينعمون، عموماً، بظروف معقولة.

حسبنا إذن استعراض هذه الفترة الأولى، في ملامحها الرئيسة، تبعاً للمناطق الجغرافية والسياسية التي تعنينا.

1) "إيطاليا" وقبائل القوط

في العام 450، كانت روما، عاصمة الإمبراطورية الرومانية السابقة، قد سقطت في أيدي قبائل القوط، في حين كانت الإمبراطورية البيزنطية لا تزال تخضع لحكم استبدادي، دبّ فيه الاضطراب، على كونه يستند إلى حقّ إلهي مطلق، يمارسه أباطرة يسوسون شؤونها الدنيوية والدينية على حدّ سواء. وأما المسائل المتعلّقة بالجماعات اليهودية، فقد كانت تعالَج نظرياً، وفقاً لقانون كان قد سنّه الإمبراطور البيزنطي "تيودوسيوس الكبير" (379-395)، وقد بات يُعرف باسمه. وكان ينطوي على امتيازات عديدة، إلا أنّه لم يكن ليخلو من تضييقات كثيرة، كان اليهود يضجّون منها،

ويحاولون التحرّر منها. ولما كان معظم المسيحيين يجهلون القوانين الضامنة لحقوق اليهود، كانت الصدامات تنشب بينهم، هنا وهناك. إلا أنّ الصدام الأعمق والأقدم، كان بالطبع بين الكنيس والكنيسة.

وفي هذه الحقبة، حلّت مدينة أنطاكية السورية، محل الإسكندرية، بوصفها مركزاً رئيسياً للحركة السياسية والتجارية، لقربها من العاصمة بيزنطة. واتخذها اليهود، شيئاً فشيئاً، مركزاً أيضاً لتجمّعاتهم وعلاقاتهم ونشاطاتهم المختلفة. وسرعان ما تسبّب كل ذلك في نشوب صدامات بين اليهود والمسيحيين الكثر فيها، على الرغم من القوانين الناظمة لجميع العلاقات بينهم، والتي جاء على رأسها قانون "تيودوسيوس"، والذي كان يضمن لهم حيّزاً واسعاً من الحقوق، ولا سيما حقّهم في الوجود، ممّا كان يمكّنهم من العيش في أرجاء الإمبراطورية، في ما يمكن تسميته طمأنينة معقولة. وبدءاً من أواخر القرن الخامس، لا سيما في عهد الإمبراطور زينون (472–491)، تطوّرت هذه النزاعات إلى مجازر ارتكبت بحقّ اليهود، وإلى تطاول على العديد من كنسهم، حرقاً وتدميراً، أو تحويلاً لبعضها إلى كنائس!

وما كان اليهود، من جهتهم، ليستكينوا، ولا كان عنفهم، أحياناً كثيرة، ليكون دون عنف خصومهم. وجاء يوم لم يعد فيه بطريرك أنطاكية، "ساويروس" (512–519) يتورّع عن الإعلان عن خوفه من اليهود، ومن كثرة تطاولهم على الناس وعلى أماكن العبادة. وقد بلغ العنف المتصاعد بين الطرفين، حداً باتا معه يتنافسان في إلحاق الأذى بالعدد الأكبر، وفي إحراق المزيد من الكنائس أو الكنس. وهنا لا بدّ من الاعتراف بأنه يصعب على المرء اليوم أن يتصوّر مدى العنف الذي كان الرهبان المسيحيون يمارسونه حيال اليهود

والهراطقة، في أنطاكية وضواحيها، وقد كان أحياناً كثيرة، يخرج عن سيطرة الكنيسة والدولة على السواء!

وجاء عهد الإمبراطور "يوستنيانوس" (527–565)، وما لازمه من قانون جديد بشأن اليهود، كان له تأثير حاسم على أوضاعهم كلّها، طوال القرن السادس. من ذلك أنه ألغى العديد من الامتيازات التي كان القانون السابق قد منحهم إياها، وألغى خصوصاً القوانين التي كانت تصون حقوقهم، ومنها حقّ اليهودية في الوجود. ثم فرض قيوداً جديدة على مختلف جوانب الحياة لديهم. من ذلك أنه انتزع منهم حقّ استعبادهم المسيحيين، وقيّد حقّهم في الملكيّة، واستُبعدوا من جميع وظائف الدولة، وحُظّرت عليهم مهنة المحاماة، كما مُنعوا من الإدلاء بشهاداتهم أمام القضاء، ضدّ كلّ مَن هو مسيحي.

إلاّ أنّ أخطر ما ابتدعه هذا القانون، كان وضع يد الإمبراطور والسلطة الزمنية، على الطقوس الدينية اليهودية، تماماً كما كان يفعل بالنسبة إلى الكنيسة. ومنع بذلك اليهود من الاحتفال بعيد الفصح لديهم، لا في وقت واحد مع المسيحيين، ولا قبلهم. كما حُظّرت عليهم قراءة التوراة خلال صلواتهم، باللغة العبرية، كما كانوا يفعلون منذ القديم، وفُرض عليهم استخدام اللغة المحليّة، أو اليونانية أو اللاتينيّة. وأُلغيت من صلواتهم جميع الشروح الشفهية المعروفة "بالميشنة". وأما جميع اليهود الذين كانوا لا يقرّون بالقيامة، ولا بوجود الملائكة، ولا بالدينونة الأخيرة، فقد كانوا يُعتبرون خارجين على الدين و... يُقتلون!

لقد حار العلماء والمؤرّخون في تفسير مثل هذه القوانين، ولا سيما في مثل هذا التطاول على الإيمان والصلاة اليهوديين. ورأى بعضهم أنه امتداد لإجراءات الاضطهادات السابقة ضدّ اليهود،

بوصفهم قتلة المسيح. ورأى آخرون فيه تحايلاً عليهم، كي يُرغموا أخيراً على اعتناق المسيحيّة، ووضع حدّ نهائي لكل ما كانوا يشكّلونه من خطر، من حيث تهويد المسيحيين والمسيحيّة.

وعلى أي حال، فإن هذا التشريع الجديد مهّد الطريق على المدى البعيد، أمام تجاوزات على حقوق اليهود الطبيعية، ما كان التشريع السابق ليجيزها. كما وأنّ حرمان اليهودية من حقّها في الوجود، فتح الباب على مصراعيه، أمام خروقات لاحقة فادحة. منها ما جرى في مدينة "بوريون" في الشمال الإفريقي، عام 535، حيث اعتُبرت اليهودية خارجة على القانون، فأُغلقت جميع كنسها، وأُرغم جميع اليهود فيها على الاختيار بين تقبّل العماد المسيحي أو... الرحيل. وكانت تلك الإجراءات سابقة مقلقة، بات جميع اليهود بموجبها، محرومين من أية مرجعيّة قانونية!

إلاّ أنّ الحقيقة التاريخية تضطرّنا للاعتراف بأنّ جميع هذه الإجراءات لم تأت بالنتائج المرجوّة، حتى القصيرة المدى، بقدر ما زادت اليهود تصلّباً واحتقاناً، وهيّأتهم لانتقامات لاحقة، حدث بعضها هنا وهناك، في تفجّرات شعبية دامية، ولكن محلية أولاً، ثم حدث بعضها الآخر على نطاق أوسع وأخطر، طال الحكم البيزنطي نفسه في سورية. فلقد ثارت جماهير اليهود عام 556، في مدينة قيصرية بفلسطين، فقتلت جموعاً من المسيحيّين، ودمّرت العديد من كنائسها. وبعد قرابة خمسين عاماً، ثارت ثائرة اليهود في مدينة أنطاكية بسورية، فقتلوا ما طالت أيديهم من المسيحيين، وأحرقوا جثثهم، وسحلوا البطريرك في الشوارع قبل أن يُجهزوا عليه! وفي كلا المدينتين، تعرّضوا لقمع وحشي، كما كان متوقّعاً، قامت به السلطات البيزنطية!

ولكن احتقان اليهود المزمن وجد له، على نحو مفاجئ، منفذاً سريعاً وقوياً، في زحف الجيوش الفارسية على فلسطين عام 614، في عهد الإمبراطور البيزنطي "هرقل" (610-641)، وفي احتلالهم لمدينة القدس بالذات، فتعاونوا مع الجيوش الغازية، وسهلوا لها احتلال المدينة المقدسة، حيث نظّموا مذبحة طالت ثلاثين ألف مسيحي. ثم أخذوا يجتاحون المدن والقرى في فلسطين، وأعملوا في المسيحيين تقتيلاً، وفي الكنائس تدميراً. وواصلوا زحفهم نحو الشمال، بتحريض من يهود مدينة صور، فحاصروا المدينة، ولكنهم لم يستطيعوا اقتحامها، فانتقموا بتدمير جميع الكنائس المحيطة بها، ممّا دفع المسيحيين المحاصَرين داخل المدينة، إلى الانتقام من يهود المدينة، فقبضوا على المئات منهم، وقطعوا رؤوس مئة يهودي، عن كل كنيسة دمّرت.

وظلّت مدينة القدس بأيدي الفرس طوال أربعة عشر عاماً. ولما لم يظفر اليهود من الفرس المحتلّين، بما كانوا وعدوهم به من حيث مشاركتُهم الواسعة في إدارة المدينة، انقلبوا عليهم، وما إن علموا بمقدم الإمبراطور هرقل على رأس جيش بيزنطي عرمرم، عام 628، حتى انقلبوا على الفرس، وتعاونوا مع البيزنطيّين. إلا أن هرقل، ما إن استعاد مدينة القدس، حتى انتقم من اليهود انتقاماً مروّعاً، وعاد إلى العمل بالقانون القديم، الذي كان يحظّر عليهم الإقامة في القدس. ثم مضى إلى ما هو أبعد من ذلك، فأصدر عام 632، قراراً بإرغام اليهود في فلسطين كلّها، على الخضوع للعماد القسري، ظنّاً منه بأنّه يُنجز بهذه الطريقة، توحيد شعوب الإمبراطورية. إلاّ أنّ هذه الإجراءات القسرية الجديدة، سرعان ما أتت بنتائج عكسية وكارثية. ذلك بأنها هيّأت اليهود لاستقبال

الجيوش الإسلامية التي قُيّض لها أن تزحف على سورية بعد سنوات قليلة، على أنّها جيوش مُحرّرة ومنتقِمة!

وفي منتصف القرن الخامس، كانت جحافل قبائل البرابرة، من "الاوستروقوط"، ومن "القوط" و"الفرنكيين" و"البورغونديين" و"الفندال" و"اللومبارديين"، قد احتلّت مساحات واسعة من الإمبراطورية الرومانية في الغرب، بدءاً من قلبها وعاصمتها روما. وكان من كل منها أن اقتطعت لها من هذه الإمبراطورية، بلداً أقامت فيه. وكان مجمل قادتها من الحنكة والذكاء بحيث أنّهم أبقوا على معظم ما كان فيها من مؤسسات وقوانين نافذة.

من ذلك، أنّ قبائل "الاوستروقوط"، التي كانت من حيث العقيدة، على الآريوسيّة، اتخذت من إيطاليا وبعض الثغور من حولها، مملكة لها. وكان المدعو "تيودوريك" (493–526)، أحد أوّل وأبرز ملوكها. وقد حرص على التمسك الدائم بالقانون الروماني السابق، وعلى تطبيقه على جميع رعاياه دون استثناء، على نحو غير مسبوق، بحيث بات الجميع في مملكته متساوين أمام القانون. وكان ذلك مجلبة سعد لليهود بصورة خاصة. ولما كان تجمّعهم الأكبر في مدينة ميلانو، في شمالي البلاد، رأى أن يخصّهم برسالة، قال لهم – ولسواهم الكثيرين! – فيها، في لغة لا عهد للناس بها:

« إنّ الذين يحيدون عن الطريق المستقيم في أمور الدين،
لا يجوز لأحد أن يحرمهم من نعمة العدالة.
ونحن، لن نستخدم القوة في أمور الدين،
لأنه لا يجوز لأحد أن يُكرِه إنساناً على الإيمان!... »

وقد أُتيح لهذا الملك سريعاً أن يجد تطبيقاً لهذه المبادئ الخارجة عن المألوف، في مناسبات كثيرة، كانت أولاها في مدينة "رافينا"، حيث اتُّهم اليهود بتدنيس القربان المقدّس، فهبَّ بعض المسيحيين وأحرقوا الكنيس اليهودي. فما كان من الملك "تيودوريك" إلا أنّ أمر المسيحيين بإعادة بناء الكنيس، وبإنزال عقوبة الجلد بالسياط بمَن أحرقوه. وقد حدث بعد فترة، أن أُحرق كنيس لليهود في روما، فوبّخ الملك "مجلس الشيوخ" على تقاعسه في إحلال الأمن والنظام، وأمر بمعاقبة الجناة. وعندما جاءه وفد مشترك يمثل اليهود في كل من مدينة ميلانو وجينوا، يسأله الحماية، أعلن أنه لا يجوز للكنيسة الكاثوليكيّة أن تتطاول على حقوق اليهود، وأنه يتوجّب على اليهود، بالمقابل، أن يحترموا حقوق الكنيسة الكاثوليكيّة.

وفي عام 590، اعتلى عرش البابوية، "غريغوريوس الأول"، الذي لُقّب بالكبير، بسبب ما كان يتمتّع به من نفوذ شخصي، على الصعيدين الروحي والزمني، فضلاً عمّا كان للبابوية آنذاك، من سطوة عظيمة. وقد اتضح سريعاً أنه لم يكن هناك، على الساحة السياسية، من يستطيع أن ينافسه في فرض القانون والنظام، في زمان ساده اضطراب واسع. وأما مواقفه من اليهود، فقد كانت، منذ لحظة اعتلائه البابوية، نموذجاً يُحتذى في الحكمة والحصافة والعدالة. وقد أُتيح له أن يعبّر عن كل ذلك، في العديد من رسائله الثمانمائة التي وصلت منه. ولقد اعتمد بشأن التعامل الصعب مع اليهود، القانون الذي كان الإمبراطور "تيودوسيوس" قد سنّه، وذلك في حياد صارم، وثبات لا يلين. وكان يكتب تعليماته الصريحة بهذا الشأن، للعديد من الأساقفة. من ذلك أنه كتب لأسقف مدينة "باليرما" بإيطاليا، المدعو "فكتور"، يقول له:

« مثلما أنه لا يجوز لليهود أن يرتادوا كنسَهم، إلا وفق التعليمات الواردة في القانون، فإنه لا يجوز لأحد أن يرفض لهم ما يجيزه لهم القانون. »

وكتب أيضاً لأسقف مدينة "نابولي"، يذكّره بحقّ اليهود في الاحتفال بأعيادهم في حرّيّة تامة. كما أنّه تدخّل سريعاً، عندما بلغه أن بعض الكنس في كل من مدينة "تراسينا" و"باليرما" و"كالياري"، قد دُنّس أو حوّل إلى كنيسة، وأمر بإعادة الكنس إلى اليهود، وهكذا كان. إلا أنّه كان من ناحية أخرى، يطالب اليهود بالالتزام الدقيق بقيود القانون. ولذلك كان شديد التمسك بتطبيق القانون الذي يحظّر على اليهود امتلاك عبيد مسيحيّين، والاتجار بهم. وما كان، بأي حال من الأحوال، ليسمح لهم بأن يتحايلوا على هذا القانون.

وإلى ذلك، فقد كان البابا راغباً في هداية اليهود إلى المسيحيّة، ولكن بالمودّة والكلمة الطيبة والسلوك الصالح، بعيداً عن أي قهر أو قسر. وقد جاء في إحدى رسائله هذا القول الصريح:

« إنّ الذين خارج الإيمان، لا يجوز أن يُجلَبوا إلى الإيمان إلا باللطف والحنان والتشجيع والإقناع العقلي. »

وفي ذلك كلّه، كتب المؤرّخ اليهودي الفرنسي المعاصر، "جول اسحق"، في كتابه "نشأة اللاسامية"، يقول:

« "إنّ البابا غريغوريوس الكبير" قد ابتكر حيال اليهود، سياسة تقوم على الإنسانية والعدالة والحماية النسبية، وهي تشرّفه، وقد شرّفت من بعده بابوات آخرين. فتأسّس بذلك تقليد كنسي، عرف الكثيرون، بدافع من روحهم الطيبة وقلوبهم، أن يستلهموه. »

2) في إسبانيا

كان لليهود في إسبانيا حضور موغل في القدم والعدد والثراء. وكانت بعض البنود المناوئة لهم، في قانون "تيودوسيوس"، قد سقطت بفعل اللامبالاة أو الرشوة، أو بفعل التواطؤ مع السلطات المسيحيّة. إلاّ أنّ استيلاء قبائل "الفيزيقوط" على إسبانيا، وكانت على الآريوسيّة، واهتداء ملكها "ريكاريو" إلى الكاثوليكية، عام 587، أحدثا على الصعيد الوطني العام، ما يشبه جبهة متراصّة بين الملكيّة والكنيسة والشعب. وعندها، برزت تلقائيّاً الخصوصيّة اليهودية، كما لو كانت نشازاً في سمفونية موسيقية واحدة. فأُعيد العمل بسرعة بالقوانين المعادية لليهود. ودعمت المجامع الكنسية في إسبانيا هذا التوجّه العام، فبدأت بمنع اليهود من تملّك عبيد مسيحيين. كان ذلك في مجمع عقد في "طليطلة" عام 589. كما حُظّر عليهم الزواج من مسيحيّات، وأُقصوا عن جميع المراكز الحكومية.

وازداد الوضع سوءاً، عندما اعتلى العرش الملك "سيزيبوت" (612-621)، وقد أعلن عن تصميمه على تحرير أراضيه من تهديد الإمبراطورية البيزنطية. ولما كان يخشى تحالف اليهود معها، أراد الأخذ بالبنود المعادية لليهود، التي وردت في قانون "تيودوسيوس"، والتي كانت قد سقطت من زمان طويل، فلم يُجْدِه ذلك نفعاً، فعمد إلى إجراءٍ كان الأخير وكان الحاسم: الخيار بين العماد القسري أو الرحيل، فغادر الكثيرون البلاد، إلا أن الغالبية بقيت ورضخت للعماد القسري. وقد أحدث هذا الإجراء الملكي، اضطراباً واسعاً وعميقاً في أوساط المسؤولين الكنسيين، والمجامع الكنسية التي عُقِدت منذ ذلك الحين. كما أنه أحدث بلبالاً بَعيدَ الغور على مستوى الشعبين، المسيحي واليهودي، ذلك بأنّ الكثيرين من اليهود المعمّدين قسراً،

ظلّوا يمارسون طقوسهم الخاصة سرّاً. إلا أن الأخطر من كل ذلك، كان القرار الذي أصدره أحد المجامع الكنسية في إسبانيا، والذي كان يولي الكنيسة حقّ انتزاع الطفل المعمّد من والديه اليهوديّين، إذا ثبت أنّهما تنكّرا للمسيحيّة، ليتلقّى تربية مسيحية، ويعيش بعيداً عن أهله! ولقد كان هذا الإجراء فاتحة لمشكلة إنسانية معقّدة، تورّطت فيها الكنيسة منذ ذلك الحين، مراراً، حتى أواخر القرن العشرين!... وإلى ذلك، فإنّ إجراءات العماد القسري، أدخلت الكنيسة في إسبانيا، في متاهات لا حصر لها، ظلّت المجامع الكنسية والسلطات الزمنية معاً، تتخبّط فيها زماناً طويلاً. من ذلك أن الملك "شنتيلا" قرّر عام 636، أنه لا يحقّ البقاء في إسبانيا، إلاّ للمسيحيين حصراً، ثم حمل مجمع "طليطلة" عام 638، على فرض قَسَم علنيّ على جميع الملوك من بعده، يعلنون فيه التزامهم بهذا القرار المجمعي، تحت طائلة الحُرم والنار الأبدية! ولقد مضى الملك في تماديه، فكتب للبابا "هونوريوس" في العام نفسه، يوبّخه على السماح لبعض اليهود في روما، نالوا العماد القسري، بالعودة إلى يهوديّتهم. ومضت السلطة في إسبانيا في تصعيد تشدّدها هذا، يوم اعتلى العرش فيها الملك "ريكسفينت" (648–672)، فأراد أن يستخدم سلطات المجامع الكنسية من أجل فرض المزيد من التضييق على اليهود، فصدرت قرارات كنسية، تُرجمت إلى إجراءات حكومية تهدف إلى "تطهير" المملكة كلّها مما سمّي "رجس الملحدين والكفرة"! فحُرِم اليهود من جميع حقوقهم، وفُرضت عليهم عقوبات شديدة لأتفه الذنوب، منها الجلد بالسياط ونتف الشعر! كما أرغم اليهود، خلال قَسَم مغلّظ، على التوقيع على "تصريح ملكي"، يمنعهم كلّيّاً من ممارسة أي طقس ديني، تحت طائلة الموت رجماً أو حرقاً! وحظّر في الوقت نفسه على المسيحيّين، تحت طائلة عقوبات صارمة، تقديم أي

عون أو حماية لليهود... وأما مجمع "طيلطلة" المنعقد عام 655، فقد أرغم جميع اليهود المعمّدين قسراً، على قضاء كل عيد مسيحي أو وثني، بحضور أسقف!

وقد عرف هذا الاضطهاد، تصعيداً جديداً في عهد الملك "ارفيغ" (680-687)، إذ أصدر ثمانية وعشرين قانوناً، لا غاية منها سوى تحويل حياة اليهود والمتهودين في إسبانيا، إلى جحيم حقيقية. فأمر اليهود بقبول العماد، وأمر مَن كان منهم معمّداً، بضرورة الحصول على إذن من الكاهن، إذا كان يريد السفر. كما أُرغموا على الاستماع إلى العظات في الكنائس خلال الطقوس المسيحيّة. وأُمروا أيضاً بأكل جميع اللحوم دون استثناء. وحُظّر عليهم اللجوء إلى التحايل أو الرشوة، أو التهرب من التقيّد بالقوانين.

وقد بلغ هذا التصعيد ذروته، عندما اعتلى العرش، الملك "ايجيكا" (687-702)، يوم كان الإسلام في شمال إفريقيا، يقرع أبواب إسبانيا. فأظهر الملك الجديد شيئاً من المرونة، بادئ ذي بدء، ثم أصدر بالتنسيق مع مجمع "طليلطة" عام 693، أمراً بتخلّي اليهود عن كل عمل تجاري، وبإرغامهم على إعادة كل ما حصّلوه من المسيحيين، إلى أصحابه الأولين. وفي عام 694، تحالف الملك "ايجيكا" مع مجمع "طليطلة" أيضاً، واتّهما اليهود بالتآمر مع مسلمي شمال أفريقيا، ثم اتّخذا أقسى ما أمكنهما من إجراءات، كان أولها تحويل جميع يهود المملكة إلى... عبيد، وكان ثانيها حظراً مطلقاً لكل طقس يهودي في إسبانيا، وكان ثالثها، مرة أخرى، انتزاع الأطفال اليهود الذين كانوا قد تجاوزوا السابعة من العمر، من أهلهم، كي يُعهَد بهم إلى مؤسسات مسيحية، تسهر على تربيتهم تربية مسيحية مدى العمر، بعيداً عن جميع ذويهم!

ولما اعتلى عرش إسبانيا، الملك "فيتيزا" (702–709)، حاول أن يخفف الخناق عن اليهود، ليعيد شيئاً من التماسك إلى مملكته المتداعية! يومها، كانت الجيوش الإسلامية على الحدود... فما تسنّى له إبداء مقاومة جدّية، لا سيما وأن اليهود كانوا يهلّلون في سرّهم، لقدوم العرب المحرِّرين. وقد يكونون تعاونوا معهم، كما يرى بعض المؤرّخين...

3) في عهد القبائل الفرنكية

خلافاً لما عُرِف عن يهود إسبانيا، كان اليهود في فرنسا ينعمون بحرية نسبية، وبطمأنينة واسعة. وقد كانت بعض المدن في الجنوب، مثل "أرل" و"مرسيليا" و"ناربون"، التي كانت يومها ملحقة بإسبانيا، قد تحوّلت إلى مراكز تجارية هامة، كان لليهود فيها اليد العليا دون منازع.

إلا أنّ الأمور أخذت، بُعيد منتصف القرن الخامس، تتجّه نحو التشدّد حيال اليهود، خوفاً من تأثيرهم الديني الواسع على المسيحيّين، ومن تمادي ظاهرة التهويد في تلك المجتمعات. ومنذ ذلك الحين، أخذت المجامع الكنسية تُصدر قراراً تلو قرار بهذا الشأن: ففي عام 465، حَظّر مجمع "فان" على رجال الكنيسة تناول الطعام مع اليهود. ثم حَظّر الزواج بين اليهود والمسيحيين، كما حظّر أي اعتداء من يهودي على مسيحي، تحت طائلة قطع اليد، أو الموت إن كانت الضحية... كاهناً! إلا أن ما يُجمِع عليه المؤرّخون هو أنّ جميع هذه الإجراءات والقرارات، توحي بأن العلاقات بين اليهود والمسيحيين في تلك المجتمعات، كانت، على أرض الواقع، أوثق من أن تتأثر بتلك "التوجيهات الاسمية". وهذا بعينه ما انتهى إليه أحد أهم مؤرّخي هذه الحقبة، وهو المؤرّخ الألماني "بلومنكرانس"، إذ كتب يقول:

« حتى إجراءات الطرد وأعمال العنف الأخرى، الممارَسة على اليهود من قبل ممثّلي المسيحيّة، تفقد شيئاً من فظاعتها، إذا ما لاحظنا أن اليهود ما كانوا ليتردّدوا، إذا ما أُتيحت لهم الفرصة، أن يلجأوا إلى إجراءات مماثلة. »

خلال القرن السادس، وفي مطلع القرن السابع، أَولى العديد من المجامع الكنسية الشؤون اليهودية، اهتماماً كبيراً. وكان الأمر الأهم الذي يستدعي هذا الاهتمام، إنما هو موضوع العبيد المسيحيين. فكان بعضهم يطالب اليهود باحترام إيمان عبيدهم المسيحيين، وبعضهم الآخر يطالب اليهود بتحريرهم. ومُنعت الزواجات المختلطة، وتناولُ الطعام المشترك. وحُرِم اليهود من العمل في وظائف الدولة، وتولّي أي مركز يمنحهم شيئاً من السلطة على المسيحيين...

إلاّ أنّ سلطة ملوك "فرنسا" كانت أشد قسوةً على اليهود من المجامع الكنسية. وحسبنا استعراض بعض الإجراءات التي اتّخذها بعض الملوك آنذاك. من ذلك أن الملك "شيلدوبير الأول" (Childebert 1er) (511-558)، منع اليهود من الظهور في شوارع المملكة في أيام عيد الفصح، ومن توجيه السخرية للمسيحيين. وكان كثيراً ما يفرض عليهم العماد القسري الجماعي. وعندما أراد المطران "فيريول" (Ferréol)، مطران مدينة "اوزيس" (Uzés)، حمل اليهود على الإيمان بالمسيحيّة، في حوار ومودّة، ودعا بعضهم إلى بيته الخاص، وجد من وشى به إلى الملك، فأمر باعتقاله ثلاث سنوات، ونُفِّذ الحكم... وفي عام 582، أمر الملك "شيلبيريك الثاني" (561-584)، ذاك الذي لقّبه القديس الفرنسي "غريغوار الطوري"، "بنيرون فرنسا"، بفرض العماد القسري على اليهود، شريطة أن

يكون هو نفسه عرّاباً لكلّ معمّد! وعندما تسلّم الملك "داغوبير" (629-639)، مقاليد الحكم، أمر جميع اليهود في مملكته بالخضوع للعماد القسري أو... الرحيل خارج مملكته!

مثل هذا التوجّه العام والمتشدّد في تطرّفه، ألقى المؤرّخين في حيرة، لمعرفة الأسباب الحقيقية، الكامنة وراء مثل هذه الإجراءات القصوى... أهي الغيرة الصادقة على الإيمان المسيحي بقصد انتشاره؟ أم هي إرادة الاقتداء بما كان قد فعله كل من الإمبراطور هرقل في إمبراطوريته، وما فعله الملك "سيزيبوت" في إسبانيا؟ أم تراه الخوف ممّا كان يتوجّس منه الكثيرون، من تحوّل اليهود إلى طابور خامس، فيما كانت الجيوش الإسلامية تقرع أبواب إسبانيا؟

4) في الإمبراطورية الفارسية

ثمّة حقيقة تاريخية يُجمع حولها جميع المؤرّخين، شرقاً وغرباً: وهي أنّ اليهود كانوا أسوأ حالاً يوم حكمهم المسيحيون، ممّا كانوا عليه يوم كانوا تحت حكم غير مسيحي.

إثر سقوط القدس عام 70 في أيدي الرومان، انتقلت جموع من تبقّى من يهود في فلسطين إلى بلاد فارس، حيث نعموا بحرية نسبية، أتاحت لهم أن ينشئوا مراكز دينية وروحية وثقافية هامة، في كل من المدن التالية: "سورا" (Sura)، "نهارديا" (Nahardea)، و"بومبيديتا" (Pumbedita)، ولكن خصوصيتهم الدينية المفجعة، واقتحامهم ميادين السياسة، سرعان ما أثارا عليهم حفيظة المسؤولين الفرس أوّلاً، ثم جلبت عليهم ردود أفعال شعبية حادة. وكان أن تحوّل كل ذلك، بفعل الاحتقان والتراكم، إلى اضطهاد منظّم، عرف مدّاً وجزراً، طوال عهد الساسانيين (226-641). إلاّ أنّه شمل اليهود والمسيحيين في آن واحد، وذلك بتأثير من الحركة المجوسية.

وقد دُمّرت الكنس اليهودية، وحُظّر عليهم جميع ممارساتهم الدينية. وفي أواخر القرن الرابع، وطوال القرنين الخامس والسادس، تواصل الاضطهاد، فأغلقت المدارس اليهودية، وسُنّت قوانين جديدة، صارمة بحقّهم، كما فُرض عليهم العمل يوم السبت. ومع ذلك، فقد ساند اليهود الفرس في حروبهم ضدّ البيزنطيين. غير أنهم، عندما أخذت الجيوش الإسلامية تزحف على فارس، تحالفوا مع... المسيحيين، ضدّ البلد الذي احتواهم لمئات السنوات.

5) فرنسا مرة أخرى: العصر الذهبي.

عرفت اليهودية في فرنسا عصرها الذهبي، خلال القرنين الثامن والتاسع. فكانت تلك الحقبة أشبه بقفزة استثنائية خارج البربرية، حيث نعم اليهود بحرية لا عهد لهم بها من قبل، وكثيراً ما أتاحت لهم التساوي في كل شيء مع المجتمع المسيحي، بل أحياناً كثيرة التفوّق عليه. وقد أُهملت القوانين السابقة المجحفة بحقّهم. وصدرت قوانين جديدة، كان الهدف منها حماية الكنيسة من بعض الممارسات اليهودية وحسب. وقد بدا كل شيء في عهد الملك "بيبان القصير" (Pépin Le Bref) (751–768) يتجه نحو تحسّن في العلاقات مع اليهود، تواصل على نحو جلي في عهد الإمبراطور "شارلمان" (شارل الكبير)(800–814)، عندما أرسل إلى الخليفة هارون الرشيد، وفداً من ثلاثة، كان أحدهم يهودياً يدعى اسحق. وقد بلغ هذا التوجّه الذروة في فترة حكم ابنه وخلفه "لويس التقي" (Louis le Pieux) (814–840)، حيث احتلّ اليهود مراكز مرموقة وموثوقة في الدولة، وتمتعوا بكامل الحقوق، أسوة بسواهم من المسيحيين. ومن المعروف أنهم أنشأوا لهم مواقع هامة في السوق التجارية، وفي ممارسة الطب، حتى أنّ طبيب الملك الخاص كان يهودياً. غير أنّ

هذه المهنة كانت كثيراً ما تجلب لهم المتاعب، لأنها كانت تجرّ عليهم تهمة التعاطي بالأعمال السحرية، لا سيما عندما كان يُتوفّى أحد مرضاهم، كما حدث لهم إبان وفاة الملك "شارل الأقرع"، ومن بعده الملك "هوك كابيه" (Hugues Capet)...

وفي عهد الملك "لويس التقي"، مُنح اليهود ما سمّي رسائل حماية ملكيّة، وقد جاء في إحداها:

« إنّ تعليم الرسل يحرّض على التزام الرحمة، وعلى تحاشي أي تمييز بين المؤمن والكافر. »

وأُحدث للمرة الأولى مركز يحمل اسم "مُعلِّم اليهود"، يُخوّل المسؤول فيه، صلاحية ضمان حقوق اليهود، ولا سيما حمايتهم من كل عنف، والسماح لهم باستخدام المسيحيين لديهم، وكذلك شراء العبيد الأجانب. وقد فُرض يومذاك على قاتل أي يهودي، دفع كمية كبيرة ومحدّدة من الذهب. كما أن الإمبراطور سمح لليهود بحرمان عبيدهم من الحصول على نعمة العماد، إذا طلب ذلك منهم. ولكن جميع هذه الامتيازات بدت لبعض المسؤولين الكنسيين آنذاك، بمثابة إهانات فاضحة للكنيسة، وتطاولاً متغطرساً عليها، من شأنها أن تحدث ردود أفعال سلبية، ما كان للمسؤولين في الدولة أن ينتبهوا لها.

وفي الواقع، فقد جاء رد الفعل، الأول والقوي، من قبل من كان يقال عنه إنه "أعظم مثقفي عصره"، وهو القديس "آغوبار"، الذي كان رئيس أساقفة مدينة ليون، حيث كان اليهود ينعمون بجميع الامتيازات التي كان الإمبراطور والملوك قد منحوهم إياها، ومنها حقّهم في اقتناء عبيد مسيحيين. فهاجم هذا الأسقف هذه الامتيازات، وطالب بالعودة الفورية إلى العمل بقانون "الإمبراطور تيودوسيوس". واتسع نطاق الصدام بين الأسقف والإمبراطور، حتى

أنه شمل العديد من الأساقفة الذين كانوا قد تجاوبوا مع مطالب "آغوبار" أسقف ليون. إلا أنّ الكلمة الأخيرة في هذا الصراع، كانت بالطبع للإمبراطور. وكان ما كتبه القديس "آغوبار" ضدّ اليهود وداعميهم، من رسائل ومؤلفات، من العنف والتشدّد، بحيث بات يعتبر في القرون اللاحقة، أحد منابع اللاسامية التي انتشرت في طول الغرب وعرضه.

وكان، بعد ذلك، أن تصاعد الصدام من جديد، بين الإمبراطور "شارل الأقرع"، الذي خلف أباه "لويس التقي"، والمطران "أمولو" (Amulo) الذي خلف المطران "آغوبار" على كرسي "ليون". ذلك بأن الإمبراطور كان يثمّن عالياً الخدمات التجارية، التي كان التجار اليهود يقدّمونها لمملكته، حتى أنه كان قد فرض عليهم ضرائب دون تلك التي كانت تُفرض على سواهم من التجار غير اليهود. فأقحم المطران "أمولو" مجمع مدينة "مو" (Meaux) عام 845، في هذا الصراع، إذ قد حمله على الدعوة إلى العودة للعمل بقانون "تيودوسيوس". فحلّ الإمبراطور... المجمع! غير أن الصدام ظلّ يتواصل بين الإمبراطور والأسقف دون هوادة. فكتب المطران رسالة بعنوان "كتاب ضدّ اليهود"، فاق بحدّته ما كان سلفه قد كتب من قبل. والجدير بالذكر أن وضع اليهود أخذ بالتدهور في أعقاب وفاة المطران "أمولو". وكان من مظاهره الأولى، ما فُرض فجأة على اليهود من ضرورة الاستماع، يوم السبت في الكنس اليهودية بالذات، إلى عظات عن المسيحيّة، يلقيها كهنة كاثوليكيون! ثم جاءت وفاة الإمبراطور "شارل الأقرع" (عام 877) ، فحلّ حكم الإقطاع محلّ النظام الملكي، فجاء يوم بات اليهود فيه يعيشون تحت رحمة هذا أو ذاك من حكّامهم الجدد الصغار، الذين أخذوا يتنافسون في

استثمارهم واستغلالهم، لمشاريعهم الخاصة. فساءت أوضاعهم بسرعة، حتى باتوا أشبه بالغرباء وسط مجتمعاتهم السابقة المختلفة.

ولّما اعتلى الملك "شارل الثالث"، الملقب بالبسيط، العرش عام 897، انتزع من اليهود جميع ممتلكاتهم، وأعطاها لأسقف مدينة "ناربون" (Narbonne). ومنذ ذلك الحين، باتت السلطة الكنسية، المرجع الأوحد في كل ما يتعلق بما سنّه القانون الروماني بشأن حماية اليهود أو التضييق عليهم. وجاء يوم كان كل تحالف يقوم بين مسؤول كنسي وأحد الأمراء، كائناً من كان، يتمّ بالضرورة على حساب اليهود. إلاّ أنّ الإجراء العام الذي اتخذه الملك بانتزاع ملكية الأرض من جميع اليهود، كان من شأنه أن يقتلعهم عملياً من جذورهم. وبدأوا شيئاً فشيئاً يتخلّون عن كل ما له علاقة بالأرض، ولا سيما بالزراعة واقتناء العبيد، وباتوا يتجمّعون في المدن، حيث أخذوا ينصرفون إلى الأعمال التجارية والعقارية والمالية.

يتّضح ممّا سبق أن أوضاع اليهود، خلال القسم الثاني من الألفية الأولى، في مختلف البلدان التي اقتسمت أراضي الإمبراطورية الرومانية الشاسعة، في الشرق والغرب، عرفت، على صعيد المسؤولين في الكنيسة والدولة، تفاوتاً متقلّباً بين الحرية والفوضى، وبين الازدهار والتردي. وأمّا على صعيد الحياة الاجتماعية، فقد كانت العلاقات تتّسم عموماً بما يمكن اعتباره ألفة ومودّة، إذ كان اليهود منصهرين في المجتمعات كلّها، ويتكلّمون لغة عامة الناس، ويأخذون بعاداتهم وتقاليدهم، ويلبسون ألبستهم، ويمارسون المهن السائدة آنذاك. وما كانوا يسعون لاحتكار الأعمال التجارية والعقارية والمالية، لا محلياً ولا دولياً، كما اتهموا بذلك في ما بعد. ولكن الصحيح أنهم،

بدءاً من القرن الثامن، أخذوا يلعبون دوراً واسعاً في التجارة الدولية، نظراً لانتشار جماعات لهم، وعلى نطاق واسع، في العالم كله. وقد قُيّض لهم، بادئ الأمر، أن يفوزوا باحتكار تجارة العبيد فقط، حتى أنها ظلّت حكراً عليهم حتى القرن الثالث عشر. ويومها، ما كان لأحد أن يوجّه إليهم أي تهمة في ما يتعلق بالربا.

كل ذلك يُجيز لنا القول إنّ تلك الفترة لم تعرف اللاسامية الشعبية ولا الاقتصادية، بوصفها ايديولوجيا سائدة وثابتة. وما كان سائداً في تلك المجتمعات، على نطاق جميع الدول التي استعرضنا أحوالها باقتضاب، لم يكن ليتجاوز المعادلة، المتحفّزة والطارئة، لليهود، في الميادين الدينية والقانونية، ذلك بأنّ الكنيسة، بوصفها مؤسّسة مسؤولة، كانت لا تزال تخشى تأثيرهم الديني والثقافي، وبالتالي الاجتماعي، على جموع المسيحيين. وما كانت الكنيسة أو الدولة، تسنّه من قوانين، كان يستلهم هذا التخوّف الثابت، لا سيما في ميدان امتلاكهم لعبيد مسيحيين، قد يُرغمون بصورة أو بأخرى، على اعتناق اليهودية. لذلك، ظلّت سياسة الكنيسة في كل مكان، تتأرجح بين تيارين ومنحيين، أحدهما معتدل، وكان أعظم ممثليه من جانب الكنيسة، البابا غريغوريوس الكبير (590–604)، ومن جانب الدولة، الإمبراطور "شارل الكبير" (800–814)، والآخر متطرّف، وكان أبرز ممثّليه من جانب الكنيسة "آغوبار"، مطران مدينة ليون، ومن جانب الدولة "سيزيبوت" (612–621)، ملك إسبانيا.

وأما روح القديس بولس، الصارمة والسمحة في آن واحد، في كل ما يتعلّق باليهودية، منذ نشأة المسيحيّة، فما كانت لتجد طريقها بأي حال من الأحوال، لا إلى التفكير اللاهوتي والسياسي، ولا إلى الواقع الإنساني والاجتماعي، طوال تلك الحقبة المضطربة.

II- في القاع

في النصف الأول من الألفية الثانية، تزامن تاريخ اللاسامية مع تاريخ اليهودية. وفي حين كانت الكنيسة والدولة المسيحيّتان، تبلغان الذروة من السلطة والنفوذ، كان اليهود يواصلون الغوص في أعماق استبداد واستغلال لا غور لهما. وإنها حقّاً لفضيحة تاريخية بحقّ المسيحيّة، إذ كان كل ذلك، من جهة، في عهد البابا "اينوشنتوس الثالث"، والملك الجرماني "هنري الثاني"، وفي عهد البابا "غريغوريوس السابع"، والملك "هنري الرابع"، وفي فترة الحملات "الصليبية"، وفي زمن القديس "توما الأكويني"، والشاعر الإيطالي "دانتي"، والقديس "فرنسيس الأسيزي"، وزمان الكاتدرائيات الكبرى... وكان، من جهة ثانية، زمان المجازر اليهودية، وإجراءات الطرد بحقّهم من هنا وهناك، والأكاذيب المتواترة، والحرائق البشرية، وفرض الشارات المذلة، وزمان السكن في المنعزلات (الغيتو)، ومِحَن أخرى، لا تُعد ولا تُحصى...

كل ذلك، سأسعى إلى استعراضه، ولكن في اقتضاب، بدءاً من فرنسا وألمانيا، وامتداداً إلى إسبانيا وإيطاليا وإنكلترا، ومروراً بكل ما اتهم به اليهود من تعامل مع المال، وقتل للأطفال، وتعاطي السحر، وأنظمة عبودية فُرضت عليهم، وبما بدر من هنا وهناك من هجمات ضدّهم، منظّمة أو... مرتجلة، تبدو أحياناً خارجة عن كل منطق وتحليل. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً. إلا أني أقتصر منها على ثلاثة. أولها حدث حين كان الحاكم بالله الفاطمي، في مصر، يأمر بالتنكيل باليهود والمسيحيين على السواء، ويدمّر كنيسة القيامة في القدس، فقد كان المسيحيّون في مدينة "أورليون" (Orléans) بفرنسا، يتّهمون

اليهود بالتواطؤ مع الحاكم الفاطمي! وثانيها حدث في عام 1012، إذ كان الإمبراطور الجرماني "هنري الثاني"، يطرد اليهود من مدينة "ماينس" (Mainz)، فقد كان اليهود في ألمانيا بالذات يُتهمون بخيانة الإمبراطورية! وثالثها حدث عام 1063، عندما قامت حملة صليبية في إسبانيا ضدّ المسلمين فيها، فقد مُنع اليهود من الانخراط بالجيش، كما كان مألوفاً في السابق، وأخذ جنود هذه الحملة يتعرّضون لليهود بأذى شديد، أينما أتيح لهم ذلك!... وفي هذه الأثناء، كانت الاتهامات تتفاقم حيالهم بالتحالف مع المسلمين وبالخيانة، مما كان يؤجّج شعورهم بالغربة واللااستقرار، أينما كانوا!

إلاّ أنّ كل ذلك، لم يكن سوى البوادر الأولى للعاصفة الهوجاء، التي قُيّض لها أن تعصف بهم بدءاً من نهاية القرن الحادي عشر.

1) **طلائع الحملات "الصليبية"...**

كان العام 1096، عام تلك العاصفة، التي جلبت على اليهود سلسلة من الاضطهادات لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، لا من حيث المدّة، ولا من حيث الكثافة، اللهم باستثناء تلك التي حلّت بهم، لألف سنة خلت، إبان سقوط القدس، عام 70، بأيدي الجيوش الرومانية، وتلك التي ستحلّ بهم، بعد قرابة ألف سنة أخرى، إبّان الإبادة النازية. إذن، كان عام 1096، عام انطلاق الحملة "الصليبية" الأولى. ويومها قامت جموع حاشدة وهوجاء، تضمّ نبلاء وفرساناً، ورهباناً وفلاّحين، وتضمّ أيضاً فقراء ورعاعاً، وقد ساروا بعشرات الألوف، في اندفاع يكاد يكون خالياً من أي تنظيم، سوى التجمّع الأهوج، الصادر عن النداء الأوحد الذي كان يجمعهم بين حين وآخر، وهو "إنها إرادة الله" (Dieu le veut). وكانوا في مسيرهم، يجرفون معهم ألوفاً أخرى لا تختلف عنهم، من فرسان ورهبان

ورعاع. وكانت وجهتهم جميعاً فلسطين، بقصد تحريرها، كما لُقِّنوا، "من الكفرة المسلمين"! وكان أن جاء من يقول لهم إنّ في بلادهم "كفرة" أيضاً، تجب مكافحتهم أولاً، وهم اليهود. وقد كتب أحد مؤرّخي هذه الحملات، عنيت به "غيبير دو نوجان" (Guibert de Nogent) (1053–1124) الفرنسي، يقول عن صليبيّي مدينة "رُوان" (Rouen) في فرنسا، إنهم كانوا يقولون في ما بينهم: "نحن نسعى لمحاربة أعداء الله في الشرق، ولكن لدينا اليهود في ما بيننا، وهم جنس أكثر عداء لله من سائر الناس. فنحن إذن نقوم بعمل يخالف المنطق". وكان أن ترجموا أفكارهم وأقوالهم إلى عمل فوري، فهاجموا اليهود في مدينة "رُوان" وفي مناطق أخرى، بحيث قضوا على كل من كان يرفض أن ينال العماد!

وسارع يهود فرنسا إلى كتابة رسالة إلى يهود ألمانيا، يحذّرونهم فيها من جحافل الصليبيين الزاحفين في اتجاههم. فما أعار يهود ألمانيا هذا التحذير أدنى اهتمام، ظنّاً منهم بأنهم في أمان. وإذ بهم يفاجؤون بالعاصفة الهوجاء تكتسحهم، وتقضي على الكثيرين منهم. يومها، لم يُجدِهم نفعاً، لا تدخل الأساقفة، كما حدث لهم في مدينة "سبير" (Spire)، ومدينة "وُورمز" (Worms)، ولا احتماؤهم في بيوت بعض المسيحيين. ولقد قُضي على الكثيرين منهم، حتى أن بعضهم لجأ إلى الانتحار الجماعي، بل إلى قتل أطفالهم، ثم الانتحار، مخافة التعرض للعماد القسري، وبالتالي "لإنكار اسم الله"! وأما في مدينة "كولن" (Kohln)، حيث أخفى الأسقف المئات منهم في بعض القرى المجاورة، فقد اكتُشف أمرهم، وأُجهز عليهم. وفي مدينة "راتسبون" أرغم الصليبيّون جميع اليهود على النزول إلى نهر الدانوب، لينالوا العماد! وجرت مجازر في مدن "ترير"

(Trier)، و"نُويس" (Neuss)، والمدن الواقعة على ضفاف نهر "الراين"، ونهر "الدانوب"، وفي مدن في المجر، وفي مدينة "براغ"... والمعروف أن الصليبيين، عندما دخلوا مدينة القدس، وجدوا يهوداً يحتمون في أحد الكنس، فأضرموا النار فيه، حتى قضوا عليهم جميعاً!

هذه الموجات المتلاحقة من المجازر، خلّفت لدى اليهود المتبقّين في فرنسا وألمانيا والمجر، حالة من الانهيار واليأس، لا يُحسدون عليها. إلا أنها أثارت أيضاً لدى قلة من المسيحيين، شعوراً بالاشمئزاز والغضب، ظلّ كامناً في الأعماق، ولم يجسر أن يستجيب له إلا... الملك الجرماني "هنري الرابع" (1056–1106)، إثر عودته من إيطاليا، فعاقب كل مَن طالته يده، وسمح لمن تبقى من اليهود، وقد أكرهوا على تقبّل العماد، أن يعودوا إلى يهوديّتهم... إلاّ أنّ هذه المحنة الرهيبة قد تركت بصمتها العميقة في الجماعات اليهودية المنتشرة في الغرب كله، ولا سيما في ألمانيا، وخلّفت حالة من الغضب عارمة، تُرجِمت في الصلوات اليهودية، كما ترجمها عدد من كتّابهم في مؤلفات باتت ترى في المسيحيين قتلة ليس إلا...

ثم، شيئاً فشيئاً تحوّلت هذه الحالة إلى ما يشبه التحدّي، بل صار انبهاراً بالاستشهاد، ينشده حتى اليهودي العادي، "تقديساً لاسم الله". فأقيمت الصلوات الحاشدة في الكنس، وتعمّمت في كل مكان، إجلالاً للشهداء، الذين أصبحوا نماذج فاعلة، يتوق الكثيرون إلى الاقتداء بهم. وأما من الجانب المسيحي، فقد كان الشعور بالعداء لليهود، يتنامى على الرغم من استمرار التدهور في أوضاعهم المادية والاجتماعية. ومن المفارقة الغريبة القول بأن ترسّخ هذا الشعور بالعداء لدى المسيحيين، قد حمل الناس على الاعتقاد بأن اليهود إنما كانوا يستحقّون جميع ما حلّ بهم من أهوال وفظائع!

وفي العام 1146، انطلقت الحملة الصليبية الثانية، بتحريض من البابا "افجينيوس الثالث" (1146–1153)، فجلبت على اليهود، كسابقتها، مصائب كثيرة... إلاّ أنّ تدخّل كلّ من الإمبراطور الجرماني "كونراد الثالث" (1138–1152)، وملك فرنسا "لويس السابع" (1137–1180)، وتدخّل القديس "برنار" (1060–1153)، وبعض الأساقفة، لجم الكثير من مظاهر العنف.

لم يكن العامل الديني المحرّض الوحيد في ما حدث، بل كان للعامل الاقتصادي، هذه المرة، دوره الحاسم. ذلك بأنّ المسيحيين كانوا، منذ الحرب الصليبية الأولى، قد احتلّوا مواقع اقتصادية كثيرة، كانت لليهود في ما سبق، حتى باتوا ينافسونهم في هذا الميدان الحيوي. ولما كان اليهود يمارسون الربا، على نطاق واسع، فقد أثاروا عليهم الكنيسة والشعب على السواء. فأوعز البابا "افجينيوس الثالث" إلى أمراء هذه الحملة، في سعي منه ومنهم لتشجيع الناس على الانخراط في هذه الحملة، بإعفاء جميع المشاركين فيها، من جميع الديون المترتبة عليهم تجاه اليهود... فسارت الأمور، بادئ ذي بدء، دون عنف يذكر. ولكن سرعان ما تطوّرت إلى موجة جارفة من العنف الجماهيري، بحيث لم يعد بوسع لا الإمبراطور، ولا الأساقفة، ولا القديس برنار نفسه، لجمها! واندلعت أعمال العنف في العديد من المدن الفرنسية والألمانية. ولكنها كانت، باعتراف المؤرّخين والباحثين، دون تلك التي رافقت الحملة الصليبية الأولى، اتساعاً وقسوة.

إلاّ أنّ ما حدث داخل المجتمعات الغربية كلّها، من تغيير في العقليات والمؤسّسات، في أعقاب هاتين الحملتين، كان أخطر من كل عنف خارجي. وذلك بأنّ ثورة اقتصادية واجتماعية، كانت، في واقع

الأمر، قد نجمت عن هاتين الحملتين. فالثورة الاجتماعية تُرجمت في ما سمّي بلغة القانون "عبودية اليهود". وأما الثورة الاقتصادية، فقد كانت تعني تورّط اليهود في التعامل مع الربا، وما يستتبع ذلك من إجراءات صارمة ودائمة، بحقّهم. فأما "عبودية اليهود"، فقد نجمت في حقيقة الأمر، عما شاؤوها، هم أنفسهم لأنفسهم، حماية يطالبون بها حكامهم، من أباطرة وملوك وأمراء، حيثما وجدوا، وعمّا شاءه هؤلاء الحكام بالذات، من جهتهم، ثمناً لهذه الحماية... فأخذوا بادئ ذي بدء، يعتبرونهم "أقناناً" تابعين لحكامهم، يولونهم الحماية المطلوبة، ولكن لقاء مبالغ طائلة يملأون بها صناديقهم النهمة أبداً إلى المال... وشيئاً فشيئاً، تحوّل اليهود، من حيث يدرون أو لا يدرون، إلى ما يكاد يكون بضاعة، يتداولها الحكام أو الأمراء، وفق حاجاتهم، بل يتبادلونها، تماماً كما يتم التبادل بالبضائع التجارية... فمنها ما يُشرى، ومنها ما يُعار، ومنها ما يُباع!... وجاء يوم عمّت فيه هذه النظرية وهذه الممارسة بلدان الغرب كلّها، من إيطاليا إلى ألمانيا، ففرنسا وانجلترا وإسبانيا...

وقد ساهم اللاهوت المسيحي في تأسيس هاتين النظرية والممارسة، بناء على مقولةِ تفوّق المسيحيّة على اليهودية، التي سادت القرون الأولى، والتي كانت في السابق، قد برّرت في ما برّرت، حرمان اليهود أولاً، من شغل أي مركز في جميع الدوائر الحكومية، وثانياً من الإدلاء بأي شهادة ضدّ المسيحيين، لدى المحاكم أو أي مرجع مسؤول. ولقد كان المجمع الكنسي، المنعقد في "اللاتران" عام 1179، أعلن "استعباد" المسيحيين لليهود، كما أن البابا "اينوشنتوس الثالث" (1198–1216) قد أعلن "عبودية اليهود الأبدية". وأما اللاهوتي الشهير "توما الأكويني" (1225–1274)، فقد دعم مبدأ

"عبوديـة" اليهـود للكنيسـة والدولـة، تبعـاً للمفـاهيم الإقطاعيـة السائدة آنذاك، ولكنه لطّفها ببعض التحفظات، فكتب يقول:

« تبعاً للتقليد، يجوز الإبقاء على اليهود، بسبب جريمتهم، في عبودية دائمة. ولذا، فإنه يحقّ للأمراء أن يعتبروا أملاك اليهود، أملاكاً خاصـة للدولة. ولكنه لا يجوز استخدام هذا الحقّ، بحيث يَحرمون اليهود مـن الأشياء الضرورية لحياتهم. »

إلاّ أنّ هذا المبدأ ما عتّم أن تُرجم إلى قانون ناظم. ولذلك كتب أحد رجال القانون الكبار في انجلترا، "براكتون"، يقول:

« لا يحقّ لليهودي أن يملك أيّ شيء خاص. وإنّ كل ما يقتنيه، إنما هو يقتنيه لا له، بل لخدمة الملك. »

2) تورّط اليهود في الربا

من الواضح أن مبدأ "عبودية اليهود" يعود إلى أسباب اقتصادية، أكثر ممّا يعود إلى أسباب قانونية أو لاهوتية. فقد كان امتلاك اليهود آنذاك، يشكل عملية في غاية الأهمية. صحيح أن اليهود لم يكونوا كلهم أغنياء، وأن الكثيرين منهم كانوا يمارسون مهناً وضيعة، إلا أن ذلك لم يمنعهم من التفوق سريعاً على سواهم، في ميدان التعامل مع المال، وقد أصبح بعضهم فائق الثراء. والحقيقة أن كل شيء كان يسهّل توغّلهم في عالم الربا. فقد كانت القوانين المتعلّقة بملكية الأرض، قد أقصتهم عن الزراعة. وكان انتشارهم في أقطار الأرض، مع النمو الاقتصادي الذي طرأ في القرن الثاني عشر، قد سهّل عليهم التعاطي الكثيف في الميدان التجاري. وعندما شقّت الحملة الصليبية الأولى، طرق التجارة نحو الشرق، كانت رؤوس الأموال قد أصبحت ضرورية لهذا الاقتصاد الجديد. وفي حين كان التجار في السابق، يتدبّرون شؤون التمويل بأنفسهم،

برزت ضرورات التمويل الجديد، أكبر من أن يتدبّرها أي تاجر بنفسه. فأقبل الناس على الربا، على ما فيه من فوائد فاحشة. وكان لليهود يومها اليد العليا، ولكن لا الوحيدة في هذا الشأن، وإذ بهم يصبحون من حيث لا يدرون، مَصرفيّي العالم!

أقبل المسيحيّون بكثرة على تعاطي التجارة، بحيث باتت شيئاً فشيئاً حكراً عليهم، لا سيما وأنّ اليهود لم يكونوا ينعمون بما ينعم به سواهم، من أمان وسلامة، على الطرقات التجارية. وكانوا، من ناحية أخرى، يُمنعون من ممارسة أعمالهم المألوفة، بسبب الحظر الذي كان يفرض عليهم من قبل الجمعيات القائمة آنذاك، والتي كانت أشبه بنقابات لا تَمنح حقّ العضوية فيها إلا... للمسيحيين! ولما كانت الكنيسة تمنع المسيحيين، على نطاق واسع، تحت طائلة أشدّ العقوبات، من تعاطي الربا، وجد اليهود أنفسهم مدفوعين تلقائياً في هذا الاتجاه. وما كانت الكنيسة يومذاك لتعيب عليهم هذا الأمر، لأنها كانت هي في طليعة المستدينين منهم، لتوفير الأموال الطائلة لبناء الكاتدرائيات الضخمة والكنائس!

صحيح أنّ الحاخاميين كانوا يحظّرون بدورهم على اليهود تعاطي الربا، وهم يستندون في ذلك إلى بعض من آيات التوراة، وبعض من تفاسير التلمود... ولكن ضرورات الوجود والحياة اليومية كانت الأقوى، لا سيما وأنّ هذا الحظر بالذات وجد له، منذ مطلع القرن الثالث عشر، من يُلغيه عملياً، إذا كان المستدين مسيحياً! وإلى ذلك، لا يفتنا أن نذكّر بأن اليهود كانوا طوال تلك الأزمنة، بحاجة ماسة إلى مبالغ طائلة، كان يطالبهم بها، على نحو عشوائي، الملوك والأمراء على حين غرّة. وما كان لهم أن يتنصّلوا، لأنهم كانوا عندها يتعرّضون لضرائب مفتعلة، ومصادرات لا تنتهي، وإلغاء تعسفي لديون باهظة، بله

لإجراءات الطرد وتهديدات بالموت. ولذا باتت الأموال في نظرهم، بأهمية الهواء للرئة، والطعام للمعدة. وكان كل ذلك يفسّر ارتفاع فوائد ديونهم، إلى حدود غير متوقّعة. ولقد كان من أحد ملوك المجر، وهو "فلاديسلاس"، أن سمح لهم بتقاضي من الفوائد، ضعف ما كان المرابون المسيحيون يتقاضونه. والمعروف أنهم ما كانوا ليقصّروا في رفع الفوائد إلى حدود خياليّة، حتى شكا المؤرّخون اليهود أنفسهم من هذا الأمر، وكتب آخرون أنّ هذه الممارسات المالية الفاحشة، تركت تأثيرها السلبي على طباع اليهود، وعلى حياتهم الفكرية والثقافية، وعلى إحساسهم بكرامتهم الشخصية... وكانت تلك الملامح الأولى لتشويهات عرفت أشكالاً لا حصر لها، وكان أبرزها تلك التي رسمها شكسبير في شخصية "شايلوك"!...

وقد تعود إلى تلك الفترة بالذات، بوادر اللاسامية، التي أخذت تتفشّى في أوساط الشعب، لدى معظم تلك البلدان، والتي حلّت شيئاً فشيئاً محلّ العداء لليهودية، الذي كان منذ القديم، يسود المجتمعات كلّها. ذلك بأن الفقراء من المسيحيين كانوا يجدون أنفسهم أحياناً، مضطرّين للاستدانة من اليهود. وما كان هؤلاء المرابون ليراعوا ظروفهم البائسة، بل كانوا كثيراً ما يتمادون بمطالبتهم بفوائد باهظة يضطرّون للرضوخ لها. والحقيقة أن اليهودي المرابي كان يجد نفسه في وضع لا يُحسد عليه. فقد كان من جهة، يتعامل مع ملوك وأمراء يبتزّونه على نحو دائم وبشع، لا يسعه الإفلات منه، وكان، من جهة أخرى، يتعاطى الربا مع جموع الفقراء المسيحيين الغاضبين. وطالما كان الملك والأمراء بحاجة إلى المرابين اليهود، كانوا يوفّرون لهم الحماية. ولكنهم كانوا أحياناً، يحرّضون الشعب عليهم، عندما كانت الديون تبدو حتى

للملوك والأمراء، مرهقة جداً، بل كانوا عندها يتخلّون عنهم، وينضمّون إلى جموع الناقمين عليهم، كما كانوا، في الحالات القصوى، يتخذون بحقّهم قراراً ملكياً بطردهم من أصقاع المملكة كلّها. وهذا هو بالذات ما حصل لجميع اليهود في أواخر القرن الثالث عشر، حيث طُردوا جميعاً من فرنسا وانجلترا، ومن معظم المناطق في ألمانيا. وقد ثبت أنّ أسباب طرد اليهود، الحقيقية، في جميع هذه الحالات تقريباً، كانت تعاطيهم الربا بفوائد فاحشة.

3) **اتهام اليهود بقتلهم مسيحيّين في أسبوع الآلام**

راجت طوال القرن الثاني عشر، تهمة مفادها أنّ اليهود يهوون قتل أحد المسيحيين خلال أسبوع الآلام، ليحيوا ذكرى صلبهم للسيد المسيح. مثل هذه التهمة لم تكن جديدة، والمعروف أنها ألصقت بهم قديماً من قبل الرومان، كما ألصقها الرومان بالمسيحيّين الأولين، يوم أخذوا يضطهودنهم. وأما إلصاقها باليهود، فقد اتخذ أدواراً وأحجاماً مختلفة، إذ انتشرت هنا وهنا، بسرعة مدهشة، أولاً عام 1141، في مدينة "نورفيش" (Norwich) في انجلترا، ثم في كل من مدينة "غلوسستر" (Gloucester)، و"بريستول" (Bristol)، و"وينشستر" (Winchester). وكان أن راجت التهمة ذاتها، خلال الحملة الصليبية الثانية، في مدينة "فورسبورغ" (Wurzburg) الألمانية، ثم راجت في الوقت نفسه، تهمة تدنيسهم القربان المقدس في مدينة "بيليتس" الألمانية، فثارت ثائرة "المؤمنين" في هذه المدينة، وأحرقوا كل من فيها من اليهود! ثم أخذت مثل هذه الاتهامات تتكاثر بسرعة طوال هذه الفترة، في انجلترا وفرنسا وألمانيا، حتى بلغ عددها في نهاية القرن الثالث عشر، مائة وخمسين تهمة! وكانت هذه الشائعات كثيراً ما تمهّد الطريق أمام مجازر جماعيّة، وحرائق بشعة. وقد بلغت

المضايقات الحالّة باليهود حدّاً، دفع كلاً من البابا "اينوشنتوس الرابع" (1243–1254) والإمبراطور الجرماني "فريديريش الثاني" (1220–1250) إلى إصدار بيانين رسميين، يبرّئان فيهما اليهود من هذه التهمة، جملةً وتفصيلاً... إلا أن التهمة كانت قد ضربت جذوراً عميقة في نفوس الناس، وظلّ الكثيرون، هنا وهناك يتداولونها. فاضطرّ البابا نفسه لإصدار ثلاثة بيانات أخرى، يبرّئ فيها اليهود، ولكن دون جدوى. وظل البابوات من بعده، من "غريغوريوس العاشر، عام 1272، إلى "مارتان الخامس" عام 1422، إلى "نقولاوس الخامس" عام 1447، فالبابا "بولس الثالث" عام 1540، يصدرون البيانات بقصد تبرئة اليهود من هذه التهمة، ولكن دون جدوى.

نَعِم اليهود بشيء من الراحة والاطمئنان، بعد الحملتين الصليبيتين، الأولى والثانية. إلا أن ملك فرنسا "فيليب- أوغست" (1180–1223)، عاد إلى مضايقتهم لأسباب كثيرة، منها أنه كان مقتنعاً بالتهمة السابقة، ومنها أنه كان يضجّ من ثراء اليهود الفاحش، ومنها خصوصاً أنه كان بحاجة ماسة إلى الأموال. فأصدر، في يوم واحد، عام 1182، أمراً باعتقال جميع يهود فرنسا، وأمراً آخر بإطلاق سراحهم لقاء فدية خيالية، وأمراً ثالثاً بطردهم جميعاً من فرنسا... ولكنه لما احتاج إلى الأموال، بعد ستة عشر عاماً، عاد فاستدعى "يهوديّيه"، ومنحهم رسمياً الحقّ في ممارسة أعمالهم كمرابين في مملكته، ولكن بعد أن فرض عليهم ضرائب باهظة، وضيّق الرقابة على معاملاتهم. ولكنه، ما إن شنقت جماهير اليهود أحد رجاله لقتله يهودياً، حتى أمر بإحراق مائة يهودي في مدينة "بريه" (Bray) الفرنسية! وقد عادت عليه مشاركته في الحملة الصليبية الثالثة 1189، بإعفائه من جميع الديون المترتبة

عليه تجاه اليهود. والجدير بالذكر أن هذه الحملة الثالثة لم تسبب لليهود شيئاً من المضايقات السابقة، لسبب هام جداً، وهو أنّ الإمبراطور وجميع الأساقفة وقفوا صفّاً واحداً دفاعاً عن اليهود، ودعوا في إلحاح إلى احترامهم، وعدم المسّ بممتلكاتهم.

4) البابوية واليهود

قيل إنّ البابوات كانوا، طوال القرون الوسطى، أوفى الأصدقاء لليهود. إلاّ أنّ ذلك لا يتطابق كلياً مع البابا "اينوشنتوس الثالث"، الذي كان أحد أهم بناة الوحدة الدينية والسياسية في أوروبا آنذاك. وصحيح أنه كان حيال اليهود يتبع السياسة التقليدية، التي كان البابا "غريغوريوس الكبير" قد رسم خطوطها الكبرى، والتي حاول البابوات من بعده الالتزام بها. إلا أنه، بسبب خشيته من تسرب روح الهرطقات المتفشية آنذاك، ولا سيما هرطقة "الالبيجوا"، التي اتهم اليهود بالتعاطف معها، فقد أصرّ على تذكير الجميع بأنهم قتلة المسيح، وأنّ ما يعانون وسيعانون طوال حياتهم، إنما هو ناجم عن تلك الجريمة. ولقد كتب إلى أحد الأمراء الفرنسيين، يقول له بهذا الشأن:

« إنّ الله جعل "قايين" هارباً تائهاً على وجه الأرض، ولكنّه وَسَمَه بوسم أتاح للناس أن يعرفوه بسهولة، وهكذا صار بوسعه أيضاً أن يحمي نفسه ممّن كانوا يريدون قتله. وإنّ الأمر نفسه لينطبق على اليهود الذين يلاحقهم دم المسيح بالثأر، ولكنهم لن يُبادوا يوماً... لأنّ عقوبتهم تقوم على التيه في الأرض كلّها، حتى يتوبوا كلهم، ويبتهلوا إلى اسم يسوع المسيح، سيدنا.»

وفي عام 1215، دعا البابا "اينوشنتوس الثالث" إلى عقد "مجمع اللاتران الرابع"، الذي أقرّ سياسة هذا البابا حيال اليهود. فروقبت أعمالهم المالية، ولا سيما تعاملهم بالربا، وصودرت منهم أموال

طائلة، ومنع اليهود المعمّدون قسراً، من العودة إلى ممارساتهم اليهودية، كما منعوا من الظهور في الأماكن العامة، في أعياد الفصح، وحُظّرت عليهم وظائف الدولة، ومنح جميع المشاركين في الحملات الصليبية، عفواً من ديونهم لدى اليهود. إلاّ أنّ القرار الصعب الذي صدر آنذاك، كان إرغام اليهود على ارتداء لباس خاص، يميّزهم عن سائر الناس. وقد فرض الزي نفسه، في ما بعد، على الهراطقة والعواهر والمصابين بمرض الجذام...

دلّت الأحداث اللاحقة أنّ اليهود حاولوا بكلّ ما أوتوا من قوة ونفوذ، أن يتنصّلوا من "شارة العار" هذه. غير أنهم أرغموا على الخضوع لها. وكانت فرنسا أول دولة تضطرهم لوضع أسطوانة صفراء على ثيابهم. وأما ألمانيا، فقد فرضت عليهم قبعة خاصة، فيما فُرضت عليهم في بولونيا، قبعة من نوع آخر. وقد اضطروا في البلدان الأخرى، لوضع شارات مختلفة الأشكال والألوان على ثيابهم. وأمّا في جزيرة صقلية، فقد ثُبّتت شارات خاصة على محال اليهود. ولقد كان كل ذلك يسبّب لهم قلقاً عميقاً، يُنذر بإلحاق الأذى بهم، إبان أدنى اضطراب. وفي الواقع، كثيراً ما كانت المظاهرات الحاشدة تقوم ضدّهم، هنا وهناك... فبات الكثيرون منهم يفقدون الثقة بأنفسهم، شيئاً فشيئاً، وصاروا يُهملون مظهرهم الخارجي، بل كانوا يتجرّعون الخوف والشك، ليلاً ونهاراً، حتى انغرسا في أعماقهم خجلاً وتزلّفاً، لازماهم طوال قرون حتى الثورة الفرنسية عام 1789، كما انغرسا فيهم غضباً عارماً، ولكن عاجزاً، على جميع جلاّديهم من رجال الكنيسة والدولة.

5) **إحراق التملود**

جاءت المبادرة الأولى، التي انتهت إلى مصادرة نسخ التلمود

وإحراقها، من يهودي تلمودي سابق، يدعى "نقولا دونان" (N. Donin). وكان هذا قد اعتنق المسيحيّة وأصبح راهباً "دومينيكياً"، فأكبّ على دراسة التلمود، واستخرج منه خمساً وعشرين أطروحة، تثبّت في زعمه تطاول اليهود على المسيحيّة، وتشبثّهم بكفرهم. فقدّم كل ذلك للبابا "غريغوريوس التاسع" (1227–1241). فأمر البابا بإجراء تحقيق بهذا الشأن، ولكن لم ينصع له إلا ملك فرنسا، "لويس التاسع" (1246–1270). وجرى سجال عمومي عام 1240 في باريس، شارك فيه "دونان" من جانب الكنيسة، وأربعة حاخامين من الجانب اليهودي. وكان أن أقرّت لجنة التحكيم بتفوّق الحجج المسيحيّة على التلمود. وبعد أخذ وردّ، ومماطلات مضنية، صدر الأمر بإحراق التلمود. فجُمِعت منه نسخ ملأت أربعاً وعشرين عربة، وأُحرقت كلّها في إحدى ساحات باريس. ولكم سعى اليهود، في ما بعد، لدى باباوات وأساقفة كثيرين، لحملهم على العودة عن حكمهم هذا. وبالطبع، ما كانت مثل هذه الأحكام والإجراءات، لتليّن العلاقات بين الكنيسة واليهود، بل كانت تزيدها، بمرور الزمن، حدّة وقسوة من جهة، ونقمة وحقداً من جهة أخرى. وقد رفد كل ذلك توجّه المجتمع الغربي بأسره نحو اللاسامية، بزخم جديد وعنيف. وانقسم الباحثون اليهود في تقييم تأثير التلمود على مصير اليهود في الغرب. فمنهم من يرى، مثل "برنار لازار" الفرنسي أنه كان السبب الرئيسي في نشوء اللاسامية في الغرب، لأنه ساهم في عزل اليهود عن التيارات التاريخية والثقافية الكبرى، وحال دون مشاركتهم الفعالة في الحياة الفكرية العامة، ومنهم من يقولون مثل "بارون" (Baron) وغرائيتس" (Graetz)، إنّ التلمود كان "الأداة التي صانت تماسك العالم اليهودي في الشتات".

6) نحو مزيد من الشقاء

لم يحمل القسم الثاني من القرن الثالث عشر، تحسّناً يذكر للجماعات اليهودية، لا في فرنسا، ولا في ألمانيا. ففي عام 1246، جدّد المجمع الكنسي، المنعقد في "بيزييه" (Béziers) بفرنسا، التهديد بالحرمان لكلّ مَن يستشير طبيباً يهودياً. وقد حدث في الوقت نفسه، أن أخضعت الحملة الصليبية ضدّ "الهراطقة الالبيجوا"، جميع يهود مقاطعة "بروفنسا" الجنوبية، لسلطة الكنيسة، فساء وضعهم العام على نحو سريع، بعد أن كانوا ينعمون حتى ذلك الحين، بسلام تام. فأرغم الملك "فيليب الثالث" (1270–1285)، اليهود على ارتداء "شارة العار"، التي كانت قد ألغيت في السابق. وأما الملك "فيليب الرابع" (1285–1314)، فقد استغلّ اليهود مالياً، إلى أقصى حدود الاستغلال. وفي أواخر القرن الثالث عشر، تسرّبت ضدّهم، تهمة مزدوجة، الأولى في مدينة "تروا" (Troyes)، بقتلهم أحد المسيحيّين في أسبوع الآلام، والثانية بتدنيسهم القربان في باريس، فهبّت الجماهير وقتلت الكثير منهم. وعمد الملك "فيليب الرابع"، بعد ذلك، إلى طرد جميع اليهود من مملكته، بعد أن كانوا دخلوها إثر طردهم من انجلترا...

وفي ألمانيا، كان الوضع يزداد سوءاً، بعد أن بات اليهود فيها عرضة لشتى الاتهامات، بالغاً ما بلغت غرابتها. وتفشّت في عشر من المدن الألمانية، اتهامات في غاية البشاعة، وسبّبت لهم مزيداً من الابتزاز والنهب والقتل، وانتهت بهم إلى طردهم من البلاد. وفي عام 1276، أصدر المجمع الكنسي المنعقد في "فيينا"، قرارات بمنتهى القسوة، كي يلغي كل اتصال بين اليهود والمسيحيين، منها إرغام اليهود على الظهور بقبّعة ذات قرون. وفي عهد الملك "رودولف دو

هابسبورغ" (1273–1291)، اتخذت بحقّهم إجراءات قاسية في المناطق التي يجتازها نهر "الراين"، وفي منطقة "بافاريا". وأخيراً، عِيلَ صبر اليهود، فاستنجدوا بالبابا "غريغوريوس العاشر" (1271–1276)، فأصدر قراراً منع فيه العمادات القسرية، وجميع أشكال العنف. ولكن الكثيرين منهم آثروا أن يغادروا ألمانيا. وقد حدث لمن تبقّى منهم فيها، أن أسف لقراره، ذلك بأن أحد النبلاء الألمان، روّج ذات يوم من عام 1298، تهمة تدنيسهم القربان المقدس في مدينة "روتينجن" (Rottingen). فهاج الناس، وجمعوا اليهود في إحدى ساحات المدينة وأحرقوهم جميعاً. ثم انطلق هذا "النبيل" مع رجاله، عبر ألمانيا والنمسا، يدمّر ويحرق ويقتل كل من كانوا يطالونه من اليهود. وقد قدّر عدد الذين قضوا في هذه الحملات الغوغائية، بمائة ألف إنسان! وعندها فقط تدخلّ الإمبراطور، وفرض عقوبات على المدن التي حدثت فيها هذه الفظائع.

تلك الحقبة عرفت اضطرابات اجتماعية وسياسية ودينية، لا تحصى، فضلاً عن الكوارث الطبيعية. ولقد كان من الصعب على اليهود، إذ كانت جميع التهم الممكنة تلصق بهم، ألاّ يُتّهموا بمسؤوليتهم عن هذه الكوارث، حتى بات طردهم من بلدانهم، أهون حالاً لهم، من البقاء فيها. وهذا بعينه ما حدث لهم في فرنسا عام 1306، إذ أصدر الملك "فيليب الرابع"، في يوم واحد، أمراً باعتقال جميع اليهود دون استثناء، ومن ثم بضرورة مغادرتهم البلاد، خلال ثلاثين يوماً. ولم يغادر فرنسا يومها إلا عدد لا يتجاوز ألفاً وخمسمائة شخص. ولكنهم أقاموا بالقرب من الحدود، ليقينهم بأن الملك نفسه سيستدعيهم من جديد، بعد فترة وجيزة، لحاجته المالية إليهم. ولكن هذه العودة لم تكتب لهم إلا بعد تسع سنوات،

يوم تسلّم مقاليد الحكم ابنه "لويس العاشر" (1314–1316)، ووجد صناديق المملكة فارغة. ويومها اتضح له أن اليهود وأموالهم الطائلة، أصبحوا ضرورة لا يُستغنى عنها بالنسبة إلى الاقتصاد الفرنسي. ولكن سرعان ما اندلعت المجازر بحقهم، عام 1320، وذلك بتحريض من راهب مسيحي خرج على رهبانيته، وألهب الجماهير، وحشد معه أربعين ألف مناصر، وبدأوا ما يشبه حملة صليبية داخلية ضدّ... اليهود. وقد انتهى الباحثون إلى أن مائة وعشرين جماعة يهودية، قد أُبيدت في فرنسا، على نحو كلي، فيما خُيّر عدد كبير منهم بين العماد القسري والموت، فآثروا الانتحار، بعد أن قتلوا أولادهم.

وفي العام التالي، أي عام 1321، راجت تهمة سعي اليهود مع... مسلمي تونس، إلى تسميم المياه في فرنسا، بقصد القضاء على جميع المسيحيين فيها... فاندلعت الاضطرابات من جديد، وترافقت باعتقالات واسعة، ومحاكمات مرتجلة، وإعدامات بالجملة. وقد أعقبت كل ذلك مصادرة ممتلكات وأموال كل من قُتِل! وفي عام 1322، طردهم الملك "شارل الرابع" (1322–1328) من فرنسا. ولكن خلفه عاد فاستدعاهم عام 1359، بعد أن وعدهم بتوفير الحماية لهم. ولكن، في أواخر القرن الرابع عشر، عاد النبلاء والجماهير يتململون من التجاوزات التي باتت جزءاً لا يتجزأ من حياة اليهود، وصدر خلال شهر أيلول من عام 1394، وفي عيد التكفير اليهودي، أمر ملكي بضرورة مغادرتهم المملكة في حد أقصاه الثالث من شهر أيلول. وبذلك أُسدل الستار على ألف عام قضاها اليهود في فرنسا، فلجأوا إلى ألمانيا وإيطاليا.

وفي ألمانيا، حاول الملك "لويس البافاري" (1314–1347) توفير

الحماية لهم، ولكنه انتهز الفرصة ليفرض عليهم ضريبة باهظة، سمّيت "الفلس الذهبي". ومع ذلك، فقد فشل في حمايتهم، عندما قامت حملة دينية هوجاء ضد اليهود، كان يتزعّمها "متنبّئ" ادّعى أنّه مكلّف بالانتقام ممّن صلب السيد المسيح. وقد تبعه خمسة آلاف رجل، اجتاحوا مناطق "الالزاس" ونهر "الراين" حتى جنوب غرب "بافاريا"، وهم يقتلون اليهود دون هوادة. وقد حيكت في الوقت نفسه مؤامرة ترمي إلى التخلص من ديون اليهود المرهقة، فاتهموا مرة أخرى بتدنيس القرابين، فأبيد منهم من أبيد، وتمّ بذلك الاستيلاء على ممتلكاتهم. فاستنجد الإمبراطور "ألبيرت الثاني" (1330–1358) بالبابا "بينيدكتوس الثاني عشر" (1334–1342)، فصدرت عن البابا تعليمات تفيد بأنّ مثل هذه التهم، يجب أن تحقّق فيها محاكم مختصة، وأنّ ملفّقي مثل هذه التهم يجب أن يعاقبوا. إلا أن الحقيقة التاريخية تضطرنا مرة أخرى للاعتراف بأنّ جهود الكنيسة والدولة يومذاك، ما كانت لتستطيع شيئاً إزاء هيجان الجماهير، عندما يتحكّم بها هوس ديني أعمى.

7) **الطاعون**

ضرب الطاعون بلدان الغرب كلّها طوال ثلاث سنوات، أي من عام 1347 إلى عام 1350. وقد جلب لليهود من الأهوال ما لا يمكن مقارنته إلا بما كان حلّ بهم إبان سقوط القدس بأيدي الرومان، عام 70، وبما كان حلّ بهم في العام 1096، إبان الحملة الصليبية الأولى، وبما سيحلّ بهم عام 1939 إبان الحكم النازي. وطوال هذه السنوات الثلاث، تعرّضت جميع الشعوب في الغرب كلّه، لكارثة وبائية، قضت في نتيجة الأمر على ثلث السكان. وما كان للناس أن يكفّوا عن محاولة معرفة الأسباب الكامنة وراء هذه الكارثة

الإنسانية... وكالعادة، وجدوا في اليهود، كبش الفداء الذي كانوا يبحثون عنه. فاتهم يهود إسبانيا أولاً، باختراع سمّ زعاف يهدف إلى إبادة المسيحيين في جميع تلك البلدان. ووُجِد من يصدّق هذه التهمة ويروّج لها في جنوب فرنسا أولاً، حيث أحرق يهود إحدى المدن بأجمعهم، ومن ثم انتشرت التهمة بسرعة البرق في شمال إسبانيا وسويسرا وبافاريا ومناطق نهر "الراين"، وفي غرب ألمانيا وبلجيكا وبولونيا والنمسا.

واستبقت "اللجان المحلية" وصول الوباء إلى بلدانها، فأنشأت محاكمها الخاصة، واقتادت اليهود أمامها، وأخضعتهم لاتهامات أقرّ أصحابها "بصحّتها"، بعد تعرّضهم للتعذيب، ثمّ تمّ حرقهم... وعبثاً كانت السلطات وبعض النخب المحلية، هنا وهناك، في إسبانيا وألمانيا، تحاول أن يوضع حدّ لهذه الإجراءات التعسفية الظالمة. وعبثاً حاول البابا "إكليمنضوس السادس" (1342–1352) من جهته، منع هذه التدابير. وأما الإمبراطور الجرماني "شارل السادس"، فقد حاول، على مضض، حماية "يهوديه"، لأنه، في حقيقة الأمر، كان يحمي المعتدين، ويمنح بعض مقرّبيه، ممتلكات اليهود، حتى قبل محاكمتهم وقتلهم! من ذلك أنّه قدّم لرئيس أساقفة مدينة "تريير" (Trier)، ممتلكات اليهود "الذين سبَق لهم أن أعدموا، أو الذين قد يُعدمون". كما أنه أعطى أحد النبلاء في مدينة "نورمبرغ" حقّ اختيار البيوت اليهودية التي يرغب فيها، "بعد أن يكون أصحابها قد قُتِلوا"...

بالطبع، كانت هناك، دائماً، أسباب اقتصادية وراء مثل هذه الإجراءات والتدابير. وكثيراً ما كانت عمليات إسقاط ديون اليهود، ومصادرة ممتلكاتهم، تستتبع محاكماتهم وقتلهم. وفي ذلك كتب أحد أهم المؤرّخين المعاصرين يقول: "إن السمّ الذي قتل اليهود،

كـان ممتلكـاتهم". ففـي مدينـة "نـورمبرغ"، أحـرق جميـع اليهـود، باستثناء اثني عشر منهم، كي يكشفوا أسماء مدينيهم. وفي مدينة "ستراسبورغ"، دافع المجلس البلدي عن اليهود فيها، فأقيل واستبدل بمجلس آخر، أصدر بحق اليهود فيها حكمه بقتلهم حرقاً، وكانوا ألفين، فأحرقوا جميعاً في مقبرة المدينة، يوم سبت، وأحرقت معهم جميع الوثائق المتعلقة بديونهم.

يستحيل التحقّق من عدد اليهود الذين قضوا قتلاً في هذه السنوات. ويقدّر المؤرّخون أن ما يقارب المائتي جماعة، بعضها كبير وبعضها صغير، قد أزيلت من الوجود. وقد عرفت ألمانيا أوسع هذه المجازر، بينما استطاعت النمسا أن تجنّب جماعاتها اليهودية الكثير منها، وذلك بفضل تدخّل ملكها "ألبرت الثاني". ويقال إن عدد القتلى اليهود في "بولونيا" ارتفع إلى عشرة آلاف.

ولكن سرعان ما شعر الناس في جميع هذه البلدان، بحاجتهم إلى اليهود... لا لشيء إلا لحاجتهم إلى أموالهم! فأصدر الإمبراطور عام 1355 أمراً بالسماح لهم بالعودة. فعادت اللجان الإدارية في المدن الكبرى تطالبهم بالعودة، وتقدّم لهم ضمانات كثيرة لحمايتهم. ولكن حياتهم ظلّت بائسة، إذ كانوا كلّهم يعيشون وفق هوى "حاكمهم"، إمبراطوراً كان أم ملكاً أم أميراً. وهبطت حياتهم الثقافية والفكرية، وتحطمت دوافعهم الروحية. ولما انخفضت مداخيلهم المالية، بسبب انخفاض فوائد الربا على نحو كبير، استعانوا بمهنة أخرى، هي مهنة شراء الألبسة وبيعها.

ولكن، بعد فترات وجيزة من طمأنينة نسبية، قامت الاضطرابات العنيفة مجدّداً، في عهد الإمبراطور "فنسيسلاس" (1387-1400)، فقُتِل العديد من اليهود في كلّ من مدينة "نوردلنجن" و"فيندشايم"

و"فيسينبرغ". وأما سبب مآسيهم تلك، فكان هو هو: المال! وقد تجدّدت إجراءات إلغاء الديون هنا وهناك، وفي أزمنة وأمكنة مختلفة، كما جرى عام 1385، وعام 1386. وقد تواصلت هذه الأوضاع، بين طرد وعودة، وتدهور ونهوض، وقتل وانبعاث، طوال القرن الخامس عشر أيضاً. وكانت الأسباب دائماً هي هي: دينية واقتصادية ومالية. وإنه ليعود إلى تلك الفترة الطويلة والعصيبة، نشوء فكرة "اليهودي التائه"، ودوافعها. فتلك كانت حالة اليهود في تشيكيا والمجر وسلوفاكيا، طوال القرن الرابع عشر.

وخلال القرن الخامس عشر، تجذّرت بقوة وعنف، أصول اللاسامية، في العقول والنفوس والقوانين. وقد تورّطت فيها على نحو صريح ودائم، السلطات الزمنية والبابوية معاً على حد سواء. والحقيقة أنّ جميع السلطات آنذاك كانت تتأرجح في السياسة التي يتوجب عليها اتباعها حيال اليهود. وكان كل ذلك يتضح في مواقفهم المختلفة وقراراتهم المتلاحقة. فهوذا الإمبراطور "سيجيسموند" (1411–1437)، يقدّم لهم الحماية، لقاء مبالغ طائلة من المال. وقد خلفه "ألبرت الثاني"، فضيّق الخناق على اليهود، متهماً إياهم بالتحالف مع أتباع "يان هوس" (1370–1415) "الهرطوقي"، في حين أن هؤلاء كانوا يطاردون اليهود بحجّة تعاملهم المفرط مع الربا! وأما من جهة الكنيسة، فقد حالف الحظ اليهود باعتلاء "مارتان الخامس" (1417–1431) كرسي البابوية. فأعلن منذ عام 1418 عن التزامه بحمايتهم، وأصدر قراراً يضمن لهم فيه حماية حياتهم وطقوسهم، وامتيازاتهم وأعيادهم. ثمّ منع العمادات القسرية. ولكنه بالمقابل، طالبهم باحترام الدين المسيحي، وبعدم التطاول عليه. وقد جاء في إحدى رسائله، قوله:

« لما كان اليهود مخلوقين على صورة الله، ولما كان، بالتالي، عدد منهم سينال الخلاص الأبدي، ولما كانوا، بالإضافة إلى ذلك، يطلبون حمايتنا وتعاطفنا، فإننا، على خطى أسلافنا "كاليستوس"، و"افجانيوس"، و"الاسكندر"، و"سيليستينوس"، و"اينوشنتوس"، و"اكليمنضوس"، والعديد من البابوات السابقين، نأمر بعدم التطاول على كنسهم، وباحترام قوانينهم وحقوقهم وعاداتهم، وبعدم إكراههم على العماد، وبعدم إرغامهم على المشاركة في الأعياد المسيحيّة، وبعدم إجبارهم على ارتداء شارات جديدة، وبعدم عرقلة أي منهم في علاقاتهم التجارية مع المسيحيين". وعاد البابا نفسه في عام 1422، عندما حاول بعض الرهبان "الدومينيكيين" أن يتطاولوا على اليهود، في حملتهم ضدّ أتباع "يان هوس"، فذكر في رسالة جديدة، بضرورة قيام علاقات صداقة بين المسيحيين واليهود، وحذّر الرهبان "الدومينيكيين" من تحريض المسيحيين ضدّ اليهود، وحظّر إرغامهم على الاستماع إلى العظات المسيحيّة، كما ذكّر الجميع بالعلاقات الوثيقة القائمة منذ الأصل، بين المسيحيّة واليهودية.».

وخلفه البابا "أفجانيوس الرابع" (1431-1447)، فجدّد توجيهات سلفه. إلا أنه سرعان ما غيّر مواقفه إثر شكاوى وردته ضدّ اليهود، وبفعل تحريض من صديقه أسقف مدينة "بورغوس" في إسبانيا. فأصدر رسالة جديدة عام 1442، ألغى فيها جميع الامتيازات الممنوحة لليهود، وجدّد العمل بالقوانين الصارمة السابقة. ثم جاء المجمع الكنسي، المنعقد في مدينة "بال" بسويسرا، ليدعم الموقف الجديد للبابا، ففرض على اليهود ضرورة ارتداء ألبسة معينة، وعاد فأقصاهم من الوظائف العامة، وانتزع منهم شهاداتهم

الجامعية، وأجبرهم على الاستماع إلى المواعظ المسيحيّة. وليس من يجهل أن هذا الإجراء الأخير، عرف تعديلات كثيرة، ولكنه تواصل بإصرار عجيب، ظنّاً من مسؤولي الكنيسة أنّ مجرّد سماع هذه العظات، سيحمل المستمعين اليهود، تلقائياً، على الإيمان بالمسيحيّة، فتنتهي بذلك مشكلة الصراع الدائم بين المسيحيّة واليهودية! ولقد ظلّ هذا الوهم مسيطراً، ولم يوضع له حدّ إلا عام 1458، وكان ذلك بأمر من البابا "بيوس الرابع" (1458–1464).

8) وضع اليهود في انجلترا

قدِم معظم اليهود إلى انجلترا، من فرنسا، ضمن الجيوش الزاحفة مع "غليوم الفاتح" (1066–1087)، في نهاية القرن الحادي عشر. وكانت الفترة الأولى من وجودهم في انجلترا، مطمئنة. ولمّا خلفه ابنه "غليوم الأحمر" (1087–1100)، غمرهم برعايته، حتى باتوا يعرفون بـ "رجال الملك". وعندها كانوا المصدر المالي الرئيسي للمملكة. ولما كانوا المرابين الوحيدين فيها، شكلوا طبقة مرموقة، وتمتّعوا بمساواة وحرية، لم تكونا دون ما يتمتّع به الانجليز الأصليون من مساواة وحرية! وقد بلغ بعضهم، في سنوات قليلة، من الثراء، ما أهّلهم لاقتناء قصور كبيرة، سكناً لهم! ويسعنا تقدير مجمل ثرواتهم في انجلترا، من خلال ما فرض عليهم من مساهمة في نفقات الحملة الصليبية الثالثة، إذ بلغت ستّين ألفاً من الليرات الذهبية، في حين أنّ ما فرض على جميع المسيحيين في أوروبا كلّها، لم يتجاوز السبعين ألفاً! والحقّ يقال إنّ ثراءهم هذا كان سبب خرابهم! فقد كان جميع ملوك انجلترا، طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، يستغلّونهم. وكان الأمراء ورجال الكنيسة، بوصفهم مدينين لهم، يتذمّرون جدّاً من فداحة الفوائد التي يطالبونهم بها. وإلى ذلك، فقد كان النبلاء يضمرون

الحقد لليهود، نظراً لما كانوا يتمتّعون به من حظوة لدى الملوك والأسر المالكة. وأما الشعب، فكان ناقماً على ثرائهم هذا. وفي عهد الملك "استفانوس" (1135–1154). أخذت أوضاعهم تتبدّل. ومع أنه وفّر لهم الحماية خلال الحملة الصليبية الثانية، فقد تمادى في انتزاع كلّ ما كان بوسعه أن ينتزعه منهم.

وعندما اعتلى العرش الملك "ريكاردو قلب الأسد" عام 1189، قَدِم كبار الجماعة اليهودية، ومعهم هدايا نفيسة جداً، ولكن الحاشية الملكية حالت دون دخولهم القصر، فيما كانت جماهير الشعب ترجمهم بالحجارة. وراجت شائعة مفادها أنّ الملك يريد القضاء على اليهود. فاندلعت أعمال شغب واسعة، قُتِل خلالها عدد من اليهود، ونهبت قصور البعض منهم، وأحرقت... وعندها فقط، تدخّل الملك وعاقب قادة الشغب، وأمر بتحاشي التعرض لليهود، ذلك بأنه كان يدرك أهميّتهم المالية بالنسبة إلى ظروف المملكة. وإلى ذلك، فما كان ليمتنع عن فرض ضرائب باهظة عليهم، من أجل ملء صناديق المملكة. ولكن، عندما انضم الملك عام 1190 إلى الحملة الصليبية الثالثة، نشبت من جديد اضطرابات واسعة امتدّت إلى المدن الرئيسية، التي كانت تضمّ جماعات يهودية كبيرة. فما كان من المشاركين في هذه الحملة الصليبية، من الانجليز، إلاّ أنّ نهبوا ممتلكات اليهود قبل أن يلتحقوا بجيوش الملك، فاعتصم الكثير من اليهود في القصر الملكي بالذات، فحاصرهم الصليبيون فيه، لأنّ العدد الأكبر منهم، كانت ترهقهم الديون المترتّبة عليهم لليهود. ثم اقتحم الجنود القصر، وقصدوا البرج حيث اعتصم اليهود، فعمد هؤلاء إلى قتل بعضهم البعض، بما كان لديهم من أسلحة. ومن بقي حيّاً منهم، طلب العماد من الجنود الذين اقتحموا البرج، فأجهزوا عليهم دون رحمة...

وأمّا الملك "جون" شقيق وخلف "ريشار قلب الأسد" (1199–1216)، فقد أعاد إليهم حريّاتهم وامتيازاتهم، لا لشيء إلا ليملأ صناديق الدولة. ثمّ عمد إلى اعتقال جميع اليهود في مملكته، وأخضع عدداً منهم للتعذيب، حتى انتزع منهم أموالاً طائلة. وكذلك فعل الملك هنري الثالث (1217–1272)، الذي سعى إلى ابتزازهم إلى حدود باتوا عاجزين عن أدائها. ولّما فكّروا بالرحيل، منعهم الملك من ذلك، لحاجته المالية إليهم. وعندما اعتلى العرش "ادوارد الأول" عام 1272، كان اليهود قد بلغوا من الفقر ما جعل الكل يتمنى التخلص منهم. وفي عام 1279، اتُهِم اليهود باعتماد أموال مزيفة، وقد أُعدِم عدد كبير منهم في أعقاب هذه التهمة. وفي عام 1290، أصدر الملك أمراً بطرد جميع اليهود من مملكته، فحملوا ما وسعهم حمله، وأمّا ممتلكاتهم كلّها، فقد استولى عليها العرش الانجليزي. وغادر الكثيرون منهم إلى بلجيكا وفرنسا. وما كانت كنيسة انجلترا بمنأى عن مسؤولية ما تحمّل اليهود من مضايق ومظالم. فقد أمرهم المجمع الكنسي المنعقد في "اوكسفورد" عام 1222، بارتداء "شارة العار"، وحظّر عليهم كل علاقة لهم بالمسيحيين، بحيث مُنع المسيحيون حتى من بيعهم جميع أنواع الأغذية! وخضع بناء الكنس اليهودية لقواعد جديدة. وكانت كل شتيمة يتلفظ بها أي يهودي ضدّ أي مسيحي، يعاقب صاحبها بالموت! وفي عام 1280، فُرض عليهم سماع العظات المسيحيّة. أخيراً، وقبل طردهم بأربع سنوات، كتب البابا "هونوريوس الرابع" (1285–1287)، رسالة يشكو فيها من إهمال المسؤولين في كنيسة انجلترا لمكافحة الربا لدى اليهود، كما كان يشكو من سعي اليهود الدائم والدؤوب، إلى نشر إيمانهم بين المسيحيين.

الفصل السابع

واحة سلام... قبيل الإعصار!

كانت المفارقة الكبرى في تباين الواقع بين يهود إيطاليا ويهود إسبانيا. كانت جماعتا ذينك البلدين تنعمان بظروف مؤاتية، إلاّ أنّ مصيريهما اتّخذا منحيين متغايرين. ففي روما، قَلبِ العالم الكاثوليكي، لم يتعرّض اليهود قطّ للطرد، وظلّوا ينعمون بالاطمئنان التام حتى بُعيد نهاية القرون الوسطى. وأما في إسبانيا، حيث كانت تقوم المحاولات المتتابعة، من أجل تحقيق وحدة الدولة الكاثوليكية، فقد واجه اليهود زماناً عصيباً، انتهى بهم إلى طردهم خارج البلاد، على نحو في غاية البشاعة. وقد حار المؤرّخون في تفسير هذا التباين... وإنّ ذلك ليقودنا، كما هي الحال دائماً في شؤون التاريخ، إلى ضرورة التريّث في إصدار أي حكم متسرّع، وبالتالي قاصر.

1) **في إيطاليا**

كتب أحد أبرز الخبراء في أمور العلاقات بين البابوية واليهود، وهو المؤرّخ اليهودي "عمانوئيل رودوكاناكي" (Emmanuel Rodocanachi)، يقول:

« في الوقت الذي كان فيه اليهود في كلّ مكان، في إسبانيا، في فرنسا، في ألمانيا، وحتى في العربية، وفي أقصى الأمكنة، يتعرّضون

لاضطهاد ظالم، كانوا في روما، عاصمة العالم المسيحي، محاطين بالتسامح. لقد كانت الطمأنينة والسلامة على صعيد الجسد والروح، اللتان كانوا يفتقدونهما في كل مكان، كانتا متوفّرتين لهم في ظلال القدّيس بطرس. »

ثمّة مؤرخ يهودي آخر، وهو "ليون بولياكوف"، يقول في هذا الشأن:

«كانت روما المدينة الأوروبية الكبرى والوحيدة، التي لم يطرد منها اليهود يوماً، وقد ظلّت دائماً واحة سلام لهم. »

وإنّ هذه الآراء لتتطابق مع الوقائع التاريخية الميدانية. فقد كان اليهود في روما، منذ زمان بعيد، شكّلوا لهم فيها تنظيماً مستقلاً. وكان ممثّلو هذا التنظيم، منذ القرن الثاني عشر، يشاركون في التطواف الذي كان يقام في هذه المدينة، بمناسبة اعتلاء البابا الجديد كرسي القدّيس بطرس، فيرفعون له التهاني، ويبسطون أمامه لفائف الشريعة، ويتقبّلون منه تجديد حقوقهم وامتيازاتهم. والمعروف أنّ هذه العادة مغرقة في القدم. وقد جاء في مذكّرات أحد المؤرّخين القدامى، وهو "بنيامين التوداليّ"، الذي زار روما في القرن الثاني عشر، أنه وجد اليهود هناك "ينعمون بالاحترام، ولا يدفعون الضرائب لأحد". أما "شارة العار"، فلم تُعرف فيها إلاّ في أواخر القرن الثالث عشر، أي بعد انتشارها في سائر بلدان الغرب. وإلى ذلك فما كانت واسعة الانتشار.

ذلك بأنّ العلاقات بين اليهود والمسيحيين كانت ممتازة، إذ كان اليهود يتعاونون تعاوناً كاملاً مع المسيحيين. وكان الزواج بينهم غير مقيّد بأيّ قيد. كما كان اليهود يختارون مهنهم في حرية لا قيود عليها. ولقد كانت هذه الظروف المريحة قائمة

في جميع المناطق الخاضعة لسلطة البابا السياسية، بما فيها مدينة "أفينيون" بفرنسا.

ليس ثمّة أيّ شكّ في أنّ وضع اليهود في إيطاليا كان ممتازاً. وفي ذلك يقول المؤرّخ "ليون بولياكوف" في كتابة الشهير "من محمد إلى الماران":

« كان اليهود بمجملهم في إيطاليا، يشكّلون حالة استثنائية في أوروبا. فتاريخهم في القرون الوسطى، لم يكن "وادي دموع". وفي العصور الحديثة، لم يتحدّث أحد عن "مشكلة يهودية" في إيطاليا، بل عن يهود اندمجوا في انسجامٍ تامّ مع مواطنيهم. »

كان اليهود في إيطاليا منتشرين في كل مكان. ولكن الحضور الكثيف لهم كان في روما، وفي المناطق التابعة للكنيسة، في اللومبارديا، ونابولي، والبندقية، وصقلية. وقد كانوا على العموم ينعمون بأحوال مزدهرة، ويعيشون في ألفة ومودّة مع الجميع. والحقيقة أنّ المؤرّخين لم يشيروا إلاّ مرّتين إلى اضطرابات لاسامية حدثت، الأولى في القرن الحادي عشر، والثانية في القرن الثالث عشر. ويعود السبب في كلتا الحالتين إلى تهم كاذبة راجت ضدّهم، وقد أخمد الحكماء من المسيحيين، الاضطراب الأول. أما الثاني فقد أخمده تدخّل البابا "الكسندر الرابع" (1254–1261) لصالح اليهود. وأما العواصف التي هبّت على الجماعات اليهودية في أوروبا كلّها، إبان الحملات الصليبية وانتشار الطاعون، فلم تصب أحداً من يهود إيطاليا. ولذلك كانت إيطاليا الملجأ الأكبر لجميع اليهود الهاربين من فرنسا وألمانيا وإسبانيا، بحيث باتت في القرن السادس عشر الملاذ الأوحد لهم ولجموع "الماران"، الهاربين من إسبانيا أيضاً.

وقد كان لهم في عصر النهضة الإيطالية، حضورهم الثقافي والأدبي، حتى عُرفت لهم صداقات هامة، مثل صداقة الشاعر "عمانوئيل" (1264–1330) مع دانتي، والكاتب "الياس ديلميديكو" (1460–1497) مع "بيك دولا ميراندول".

مثل هذا الواقع الاستثنائي يحتاج إلى تفسير. وقد رأى بعضهم رجحان كفة الأسباب الاقتصادية على كلّ ما عداها. ذلك بأنّ النظام الإقطاعي الذي عمّ بلدان أوروبا، وكان السبب الرئيسي في تدهور أوضاع اليهود فيها، لم يعمّر طويلاً في إيطاليا، فحلّ محلّه نظام المدن المستقلّة، حيث كان سكان كل مدينة وضواحيها، أياً كان اعتقادهم، يُعتبرون مواطنين، متساوي الحقوق والواجبات. ولما لم يكن اليهود آنذاك يملكون ثروات استثنائية، وكان العديد منهم متوسط الحال، لم يسترعوا انتباه أحد، ولم يستفزّوا أحداً، لا سيما وأنهم كانوا يمتنعون عموماً عن إبداء آرائهم في الشؤون السياسية والعسكرية. كما أنه لم يكن لهم الدور الأكبر في الشؤون المالية، ولا سيما في الربا. والحقّ يقال أنّ المرابين المسيحيين في شمال إيطاليا، ولا سيما في مدينتي ميلانو وفلورنسا، كانوا يبزّون جميع زملائهم، من يهود وسواهم، في هذا الميدان. ومع ذلك، فقد كان لليهود مكانة تُذكر في الوسط المالي، لا سيما بعد أن حصل المرابون اليهود، الذين كانوا قد طردوا من فرنسا وألمانيا، على إذن بممارسة مهنتهم في المدن الإيطالية. وإلى ذلك، فقد كان الناس يؤثرون المرابين اليهود على المرابين المسيحيين، لأنّ هؤلاء كانوا دائماً على خلاف مع توجيهات الكنيسة. وكان البابوات في الحقيقة يوفّرون الحماية للمرابين اليهود، ويسمحون لهم بممارسة مهنهم، بل كانوا يستخدمونهم في الدوائر المالية التابعة للبابا. وكانوا، إلى ذلك، يشدّدون الرقابة على أعمالهم المالية، ويدقّقون في نسب

فوائدهم، وفي أهمية الضمانات التي كانوا يطالبون بها. والمعروف عن يهود إيطاليا أنهم لم ينصرفوا بجدية إلى التعامل مع الربا، إلاّ خلال القرن الرابع عشر. وفي إثر ذلك، سارع الآباء الفرنسيسكانيون، إلى إحداث جمعيات خيرية، سمّوها "تلال التقوى"، ترمي إلى إقراض الأموال، دون فائدة. وبذلك يتّضح أن الأسباب الاقتصادية - من ثراء فاحش وربا - التي كانت وراء اضطهاد اليهود في البلدان الأوروبية، لم تكن قائمة في إيطاليا.

ويميل الباحثون إلى الاعتقاد بأنّ ما بدر من تسامح مع اليهود في إيطاليا، يعود إلى حماية البابا‌وات الخاصة لهم، مع ما قد يتوفّر لدى الشعب الإيطالي من طيبة فطرية، تُفسّر بعض الشيء تعامله السمح معهم. والواقع أنّ الظروف الاجتماعية والسياسية، العامة، في إيطاليا، كانت تختلف جدّاً عمّا كانت عليه في البلدان الأوروبية الأخرى. هذا لا يعني أنّ الشعب في إيطاليا كان بمنأى عن أيّ تحرّك لاسامي، خفي أو معلن، وإنما هو يؤكّد مرة أخرى أن ما كان يلجم أحياناً كثيرة، مثل هذه النزعات الشعبية، كان الرعاية الصريحة التي كان يوفّرها لهم البابوات، بحكم وجودهم في قلب البلد، وبحكم متابعتهم الدؤوبة لما كان يجري فيها من تقلّبات دينية أو سياسية أو اجتماعية. وقد أحسن المؤرّخ المعاصر، "اسحق ابراهامس"، إذ كتب يقول:

« كانت معاداة اليهود تنطلق، دائماً من الطبقات العليا، وتنحدر إلى الطبقات الدنيا. وإنّ الأحكام المسبقة اللاسامية لم تنشأ في هذه الطبقات، بل في تلك. ولكن هذه الملاحظة، الدقيقة بالنسبة إلى سائر البلدان الأوروبية، لا تتطابق مع الواقع في إيطاليا. ذلك بأنّ المشاعر اللاسامية في هذا البلد، كما عُرفت خلال القرن الثاني عشر، كانت من أصل

شعبي. ولكن هذه المشاعر الصادرة عن عامة الناس، كان قادة القـــوم يتحكّمون بها على هواهم. »

ويضيف المؤرّخ اليهودي "بولياكوف" إلى ذلك، ملاحظة غاية في الأهمية، في كتابه الشهير عن اللاسامية، "من محمد إلى الماران"، إذ يقول عن هذا التسامح إنه انتشر في إيطاليا، وفي إيطاليا وحدها، وهو ليس بطارئ، ويعود إلى أسباب لا تمت إلى الاقتصاد بصلة، وإنما هو يمتّ إلى ما يسميه "جوار روما الجغرافي"!

2) أسس التسامح

كانت سياسة الدولة في إيطاليا، على صعيد العلاقات مع اليهود، تتّسم بازدواجية واضحة. فهي، من جهة كانت تعارض هيمنة اليهود على المسيحيين، أو حتى التساوي بينهم. وكانت، من جهة أخرى، توفّر لهم الحماية لحقوقهم الأساسية. وكانت تلك السياسة تنبع، أصلاً، من حرص الكنيسة على رسالتها التبشيرية، وهي في النتيجة، مبرّر وجودها. إلا أنها لم تكن تجهل الظروف الزمنية والاقتصادية الطارئة، فتتّخذ حيالها مواقف تمليها هذه الظروف بالذات، وقد تتّسم تارة بالتضييق، وطوراً بالحماية. ولذا نجدها خلال حقبة القرون الوسطى، تولي جانب الحماية الاهتمام الأول، إزاء تنامي مشاعر اللاسامية في أوساط الشعب. وكان ذلك ينطبق على نحو خاص على المناطق الخاضعة مباشرة للسلطة البابوية، حيث كانت التعليمات الصادرة عنها تحظى بتجاوب واسع، لا يتوفّر مثله في المناطق الأخرى. ويسعنا الملاحظة أنّ سياسة البابوات حيال اليهود، كانت تتّسم دائماً بتسامح ثابت، كان الأساقفة والمجامع الكنسية المحلية، كثيراً ما يفتقرون إليه. وفي ذلك نجد المؤرّخ اليهودي "رودوناكي" يقول أيضاً:

« لكَم من مرة لاحظنا أنّ البابوات كانوا، في نطاق المناطق الخاضعة مباشرة لسلطتهم، يلطّفون ما جاء في رسائلهم من توجيهات لا تخلو من تشنّج مفرط، أو يستحيل تطبيقها. وكانوا يُدخلون عليها تعديلات، أو يلحقون بها تفاسير، في حين أنها كانت، في المناطق الأخرى، تطبّق بحرفيّتها، دون تردّد، بل دون رحمة ».

ثمّة أسباب كثيرة، اجتماعية واقتصادية وسياسية، تفسّر هذا الذي كان ينعم به اليهود العائشون في الأراضي البابوية. وقد أشرنا إليها بعض الشيء. إلا أنّه يتوجّب علينا أن نبحث على نحو أعمق، عما هو السبب الحقيقي الكامن وراء هذا التسامح. وهنا لا مناص للمؤرّخين من الاعتراف بأنّ السياسة التي كان البابا "غريغوريوس الكبير" قد أرسى قواعدها، ورسم خطوطها في القرن السابع، والتي كان البابا "نقولا الثاني" (1058-1061) قد ثبّتها في أول رسالة له بهذا الشأن، كانت قد تأصّلت وتواصلت بنجاح حتى منتصف القرن الخامس عشر.

ومع ذلك، فإن حياة اليهود في الممتلكات البابوية، لم تكن دائماً على خير ما يرام. وقد اضطرّوا أحياناً لمواجهة ظروف صعبة. وكانت كتابات البابوات بهذا الشأن، كثيراً ما تحتوي إشارات أو عبارات، لا تخلو من قسوة، بل من إهانة. من ذلك ما جاء في رسالة للبابا "مارتان الخامس" عام 1429، إذ يقول فيها:

« إنّ اليهود، الذين تتحمّل الكنيسة وجودهم في مناطق كثيرة من العالم، بفضل نعمة السيد المسيح، يصرّون على الاستمرار في عنادهم وتعاميهم، بدل أن يعترفوا بكلام الأنبياء وأسرار الكتب المقدسة، ويبلغوا إلى معرفة الإيمان المسيحي، وينالوا بذلك، الخلاص. ولكن، نظراً

للضرورة التي زجّوا فيها أنفسهم، فإنهم يرجون عوننا ورضانا، ونحن لا ننوي البتّة أن نرفض لهم ما في التقوى المسيحيّة، من سماحة روحية ».

من ناحية أخرى، كان بعض البابوات، مثل "اينوشنتوس الثالث" (1198–1216)، و"غريغوريوس العاشر" (1271–1276) و"افجانيوس الرابع" (1431–1447) يخشون تواجد اليهود في قلب العالم المسيحي، ويُصدرون توجيهات، فيها تضييق وإهانة لهم. ولكن، حتى في مثل هذه الحالات، كانت قراراتهم تلك لاسامية في مظهرها، أكثر منها في جوهرها. وفي ذلك يقول المؤرّخ اليهودي "سيسيل روث":

« في جميع البلدان الأوروبية، لم تُهمَل القوانين اللاسامية المعقّدة جداً، التي رسمتها المجامع الكنسية، وأعلنتها الرسائل البابوية اللاحقة، كما أهملت في إيطاليا، حيث نعمت الجماعة اليهودية بأقصى قدر من الحريات المادية والأخلاقية. وكانت هذه الروح تنطلق من روما، وتنتشر في إيطاليا كلّها، باستثناء الجنوب حيث كانت التأثيرات الأجنبية تبرزها على نحو آخر. وكانت شمس النهضة تبلغ منتهى تألقها، واليهود ينعمون بحرارتها المعطاء، كما لم ينعموا بها من قبل. »

وتواصل هذا التقليد السمح في تصاعد حتى آخر القرن الخامس عشر، ومطلع القرن السادس عشر، حيث أبدى العديد من البابوات تقديراً لليهود غير مسبوق، بحيث كان لهم من الأطباء والمثقّفين من اليهود، من كانوا في حاشيتهم مباشرة. وقد حاول البابا "سيكستوس الرابع" (1474–1484) أن يوفر للقرّاء المسيحيين، ترجمة لاتينية من كتاب "الكابالا". كما أنّ البابا "الكسندروس السادس" (1498–1500) فرض على اليهود في روما، ضرائب باهظة،

لأنهم سألوه لجم تدفّق اللاجئين و"الماران" اليهود، الهاربين من إسبانيا، إلى مدينة روما. وأما البابا "يوليوس الثاني" (1503–1513) و"لاون العاشر" (1513–1521)، فقد أبديا تعاطفاً عظيماً حيال اليهود، إذ كان لهم أطبّاء يهود، فيما كان البابا "بولس الثالث" يغمرهم بالامتيازات. إلا أن البابا "اكليمنضوس السابع" (1523–1534)، وقد بلغ رضاه عليهم الذروة، أوقف عمل "محاكم التفتيش الإسبانية" ضد "الماران"، وأقام علاقات وثيقة مع "رائيين" يهوديين، هما "رويبيني" (Reubeni) و"مُلكو" (Molcho)، وخطّط لترجمة العهد القديم، على يد علماء يهود ومسيحيين معاً.

إلا أن هذه الحقبة السعيدة، انتهت مع البابا "بولس الرابع" (1555–1559) وحركة الإصلاح المضادة...

3) العصر الذهبي في إسبانيا.

كل شيء في إسبانيا كان يشير إلى أن اليهود فيها مدعوّون لحياة تفضل كثيراً حياة إخوتهم في إيطاليا. وقد بلغوا عصرهم الذهبي إبان الحكم الإسلامي فيها، لا سيما خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر. ولما اشتد ضغط "الموحّدين" فيها، هاجر الكثيرون منهم إلى ممالك الشمال المسيحيّة، ولكن معظمهم استقر في طليطلة، عاصمة قاشتالا، أكبر تلك الممالك، حيث تعاقب على حكمها عدد من الملوك المتسامحين حيال اليهود، ولا سيما الملك "فرديناند الأول"، الذي حكمها في النصف الأول من القرن الحادي عشر، والذي كان قد منح اليهود حقوقاً متساوية مع مواطنيهم المسيحيين، والذي كان قد ضم إلى حاشيته الخاصة، عدداً لا بأس به منهم. وفي هذه

الأجـواء المريحـة، تميّـز عـدد مـن اليهـود في الميـادين الفكريـة والثقافيـة والتجاريـة، وانخرطـوا بحريـة في جميـع المهـن الحـرة، بـدءاً مـن الزراعـة وانتـهاءً بالربـا. فكـان لهـم أطبـاء مشـهورون، وتميـزوا بعطـاء روحـيّ راقٍ. ولم ينـزعج أحـد مـن هـذا الحضـور اليهـودي المميـز. ولقـد بلغـوا مـن التطـور في أواخـر القـرن الحـادي عشـر، مـا جعـل البابـا "غريغوريـوس السـابع" (1073–1085) يوصـي الملـك "الفـونس السـادس" (1065–1109) بوضـع حـد لظهـور اليهـود علـى المسـيحيين. وقـد بلـغ انصـهارهم في المجتمـع حـدّاً جعلـهم، في عهـد الملـك "الفونسـو السـابع" (1126–1157)، الـذي لم يـوفر وسـيلة لـدعمهم، يقـاتلون جنبـاً إلى جنـب مـع المسـيحيين في الـدفاع عـن "طليطلـة" ضـد "الموحّـدين". وعلـى الـرغم مـن كـل ذلـك، فـإن بعـض المـؤرّخين المعاصـرين اليهـود، يضـطرون للاعـتراف، كمـا قـال المـؤرّخ "ميلمـان"، بـأن اليهـود ظلـوا: "شـعباً داخل شعب، ودولة داخل دولة".

والحقيقة أنهم كانوا يتمتّعون باستقلالية واسعة. من ذلك أنهم كانوا يستأثرون بحقّ الحكم بالموت على مواطنيهم (اليهود)، حتى أساؤوا استخدامه خلال القرن الرابع عشر. وباختصار، فإنّ اليهود كانوا مندمجين كلياً في مجتمعاتهم الإسبانية، ولكنهم كانوا يدركون بإحسـاس عـالٍ جـذورهم اليهوديـة، ويحـافظون بالتـالي علـى خصوصيّتهم الإثنية. وفي ذلك كتب أحد مؤرّخيهم، وهو "سيمون دوبنـوف"، في كتابـه "التـاريخ العـالمي للشـعب اليهـودي"، الصـادر في برلين عام 1926، يقول:

« كان اليهود إسبانيّين، دون أن يكونوا. ولما غادروا إسبانيا، كانت إسبانيا قد قطعت شوطاً بعيداً في التهويد. »

عرفت تلك الفترة اعتداءات ضدّ اليهود، أقدم عليها صليبيّون إسبان، خلال حملاتهم الكثيرة ضدّ المسلمين في إسبانيا، مع أنّ البابا "الاسكندر الثاني" (1061-1073) ناشد الصليبيين عدم المس باليهود قائلاً لهم:

« إنّ الله يستاء جداً من كل إراقة دم، ولا يرتاح للقتل، حتى لو كان قتلاً للأشرار. »

صحيح أنّ محاولات كثيرة بذلت في إسبانيا لفرض الإجراءات اللاسامية، التي صدرت عن البابا "اينوشنتوس الثالث"، ومجامع "اللاتران" الكنسية، والتي كانت سائدة في انجلترا، وفرنسا وألمانيا، ولكنها لم تجد لها طريقاً إلى الواقع، لا سيما "شارة العار"، التي رفضها يهود قاشتالا بكل جرأة. وحالف الازدهار حياة الجماعات اليهودية في إسبانيا. وعلى الرغم من ثرائهم الصارخ، وما استجرّ عليهم من ضرائب، فهم لم يتعرّضوا لمصادرة ممتلكاتهم، كما حدث لإخوانهم في سائر البلدان الأوروبية، من أجل دعم صناديق الملوك الخاوية. ونظام الربا، الذي كانوا يتعاطونه في إسبانيا، كانت السلطات الكنسية والسياسية تغضّ النظر عنه. وكان الكثيرون منهم يقصدون الحمّامات العامة، أسوةً بسائر الناس، ويشاركون في المآدب، وكثيراً ما كانوا يحضرون الاحتفالات الدينية والمسيحيّة.

وإلى ذلك، فقد بُذلت جهود جبّارة لحملهم وحمل العرب المسلمين على اعتناق المسيحيّة، بالطرق السلمية والحوار، وقد شارك الرهبان "الدومينيكيّون" في هذا المجهود، وأخذوا يعلّمون طلاب اللاهوت، اللغتين العربية والعبرية. وأجريت مساجلات كثيرة بين بعض المهتدين من اليهود والحاخامات، دون نتائج تذكر، ولكن أيضاً بعيداً عن أيّ عنف. ولكن طمأنينة اليهود أخذت تهتزّ في

مقاطعة "النافار"، المتاخمة للحدود الجنوبية مع فرنسا، حيث تعرضوا لمضايقات اقتصادية عام 1284، ولتسرّبات لاساميّة من كلّ من فرنسا وألمانيا. وفي عام 1328، هبّت الجماهير في مدينة "استيلا"، بتحريض من راهب فرنسيسكاني، فحدثت مجازر قضت على ستّة آلاف يهودي. وإلى ذلك، فإنّ البرتغال قد ظلّ بمنأى عن كل ما كان يناوئ اليهود في البلدان الأوروبية وفي إسبانيا.

وكان نموذج التعايش في قلب إسبانيا، في المقاطعة المسمّاة "قشتالا"، وعاصمتها "بورغوس". فقد عرفت من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، تعاقباً متتابعاً من الملوك ذوي النزعة الإنسانية، الذين حرصوا على تشجيع جميع الطاقات المتوفّرة في مملكتهم، بغضّ النظر عن الانتماء الديني، وشجّعوا حتى اليهود، ووفّروا لهم الحماية، في وجه مكائد النبلاء ورجال الكنيسة، بحيث لطّفوا كثيراً مداخلات البابوات عندهم. وجاء يوم بات مألوفاً فيه أن يكون للملك وزير أو مستشار أو طبيب يهودي. وكثرت الزواجات بين النبلاء واليهود. إلاّ أنّ هذا الانسجام بلغ الذروة في عهد الملك "الفونسو العاشر" (1252–1284)، الملقّب بالحكيم، وقد أحاط نفسه بحاشية معظمها من اليهود، ومنحهم مساحات شاسعة من الأراضي، بل وهبهم مساجد حوّلوها إلى كنس. وعندما أراد أن ينظّم لوحاته الفلكية الشهيرة، استعان بعلماء يهود. إلاّ أنّه لم يستطع أن يتفلّت من بعض القيود المفروضة على اليهود، منها على سبيل المثال، حمل "شارة العار"، وعدم استخدام مسيحيّين في بيوتهم وأعمالهم، واستبعادهم من الوظائف العامة. وقد أُتيح، طوال تلك الفترة وبعدها، للفكر اليهودي أن يعرف نشاطاً ملحوظاً، على صعيد الدراسات الفلسفية، والنزعات الصوفية الخاصة "بالكابالا" اليهودية.

وتصاعد النجاح إلى قمة جديدة في عهد الملكين "فرديناند الرابع" (1295–1312)، و"الفونسو الحادي عشر" (1312–1350)، حيث احتلّ اليهود مناصب هامة في البلاط الملكي، وتحملوا مسؤوليات الإدارة المالية. فجلب لهم كلّ ذلك نقمة النبلاء ورجال الكنيسة والشعب. وشيئاً فشيئاً، بدرت من هنا وهناك انتقادات، طال بعضها حتى الملك. وكان من أبرز من تطاول في النقد أسرة "كورتيز" الشهيرة، فاتهموا الملك بممالأة اليهود، واحتجوا على ممارستهم الربا، وطالبوا بفرض ضرائب عالية على اليهود، كما طالبوا بإلغاء ما لهم من ديون على الجميع. فاستجاب الملك "الفونسو الحادي عشر" لبعض هذه المطالب، فألغى ربع الديون، وحظّر على اليهود الاستمرار في ممارسة الربا. وأما المجامع الكنسية، فقد ألغى بعضُها عملَ اليهود يوم الأحد، وأرغمهم على المكوث في البيت طوال أسبوع الآلام، كما أرغمهم على حمل "شارة العار"...

وأما عامة الناس، فقد كان الحسد يتأكّلهم من تأثير اليهود الواسع، وحمّلوا المقرّبين من الملك مسؤولية تفشّي الفقر، وارتفاع الأسعار، ومالوا إلى تحميل اليهود جميعاً، مسؤولية تدهور المعيشة في البلاد. إلا أنّ ما كان يتمتّع به عدد كبير من اليهود، من طمأنينة وغنى ومراكز، زادهم غطرسة بأصولهم اليهودية، ونجاحاتهم الاجتماعية والمادية، فتمادوا في مظاهر بذخهم، وأخذوا يعيّرون الآخرين في أصولهم، واسترسلوا في احتقار حتى أبناء دينهم، وقلّصوا إلى حدود دنيا اهتماماتهم بالدين والحياة الثقافية. وجاء يوم لم يعودوا يرون فيه شيئاً مما كان يعتلج في الأعماق، من أسباب ستقودهم إلى الهاوية.

ولقد برز أحدُها حاسماً وسريعاً. ذلك بأن خلافاً عميقاً نشب

بين ملك إسبانيا "بطرس القاسي" (1350-1369)، الملقّب بـ "الملك المتهوّد"، لعمق ارتباطاته الكثيرة مع اليهود، وأخيه "هنري التراستماري". وعندما قَتَل هنري أخاه، بيده، وحلّ محلّه، تحلّى ببُعد نظر منعه من الانتقام منهم، فلم يُقصِهم عن البلاط الملكي، وسعى جاهداً، لحمايتهم من غضب الجماهير، ولكن كل شيء كان يشير إلى أفول نجمهم. واتخذت أسرة "كورتيز" مبادرات كثيرة، ترجمت هذا الأفول، بتأييد من الملك هنري. ففرض عليهم حمل "شارة العار". واسترسل النبلاء في انتقاد تواجدهم الكثيف في الحاشية الملكية. وهاجم الرهبان الدومينيكيون احتلالهم مراكز هامة في الإدارات الحكومية، واعتبروها إهانة بحقّ المسيحيّة. وأمّا الشعب، فقد كان يرى في وصولية اليهود، مصدر جميع المآسي. ولوحظ انهيار في حياة اليهود الروحية، إذ كان معظمهم سطحي الإيمان، فيما الكثيرون منهم كانوا قد اعتنقوا المسيحيّة. كل هذه الأعراض كانت تهيّئ الأجواء لاضطراب واسع، ستترتّب عليه نتائج قاسية بالنسبة إلى جميع اليهود في إسبانيا. وكان مفجّر هذا الاضطراب راهباً من "إشبيليا" يدعى "فران مارتينيز"، الذي كان، منذ عام 1378، يقوم بحملة استنكار شديدة ضدّ المعتقدات اليهودية، وثراء الكثيرين منهم ونشاطاتهم... فهبّت الجماهير بقوّة، وقد استجابت لنداءاته المتكرّرة. ومع أنّ الملك كان قد أنّب هذا الراهب، وفعل مثله رئيس أساقفة "إشبيليا"، فقد واصل نداءاته وانتقاداته طوال سنوات. وما إن حدث، عام 1391، فراغ عابر في الحكم، على صعيد الدولة والكنيسة، حتى هبّت الجماهير واندفعت إلى الحي اليهودي في "إشبيليا"، ولم تغادره إلاّ أنقاضاً، مخلّفين وراءهم أربعة آلاف جثّة يهودية، لأنّ معظم الآخرين آثروا العماد

على الموت! وامتدّت هذه الحركة المدمّرة، كالوباء، من إشبيليا إلى كافة أرجاء إسبانيا، ولم يفلت منها سوى مقاطعتي غرناطة والبرتغال. فتلاشت في هذه الهجمة سبعون جماعة يهودية. وحوّلت كنس كثيرة إلى كنائس. وأما السلطات، فقد وقفت عاجزة، إزاء هذا السيل الأهوج. وحاول بعض المسيحيين أن يُخفُوا لديهم عدداً من أصدقائهم اليهود وذويهم... كل ذلك تواصل ثلاثة أشهر. إلاّ أنّ ما أعقبه من عقاب، لم يتجاوز إعدام خمسة وعشرين من قادة الجماهير، بأمر من الملك "خوان الأول"، واعتقال الراهب "مارتينيز"، بأمر من الملك "هنري الثالث".

خلّفت هذه الحملة الهوجاء، عدداً لا بأس به من اليهود الذين قبلوا العماد. وبمرور الزمن، برز بعضهم ممّن قيّض لهم أن يتابعوا دراساتهم اللاهوتية، ومن ثم أن يدخلوا في السلك الكنسي، حتى إن أحدهم، واسمه "سلمون ليفي"، أصبح أسقفاً على العاصمة "بورغوص"، ووزيراً للعدل. والمعروف عنه أنه وقف حياته على حمل اليهود على اعتناق المسيحيّة، وطالب بالتضييق عليهم، لحملهم على التخلّي عن يهوديتهم. إلاّ أنّ أهم الشخصيات الكنسية آنذاك، كان الراهب الدومينيكاني "فانسان فيرييه"، الذي وقف كل ما كان يملك من موهبة خطابية وإيمان ناري، وجرأة واندفاع، على هداية اليهود. وكان لا يتورّع عن المضي إليهم في كنسهم، ليبشّرهم فيها، ولا يتردّد عن مطالبة السلطات، بسنّ قوانين من شأنها أن تضيّق عليهم الخناق، كي يجدوا خلاصهم في اعتناق المسيحيّة. وقد يكون، كما رأى بعض الباحثين، السبب الأكبر في هرب الكثيرين من اليهود إلى الجبال مؤقتاً، كلما كان يعلن عن وصوله إلى مكان ما... ويُنسب إليه أيضاً مطالبة السلطات بإرغام اليهود على السكن في أحياء خاصة

بهم، سميت "الغيتو"، حؤولاً دون اختلاطهم الطبيعي بالناس! وكان إلى ذلك، يندّد بالعمادات القسرية، ويشجب ممارسة العنف ضدّهم، ويصرّ على تذكير المسيحيين أنفسهم... بأصولهم اليهودية!

وعرفت تلك الفترة نمطاً جديداً من المساجلات العامة والمديدة، بين اليهود والمسيحيين، كان أبرزها تلك التي جرت في مدينة "طرطوزا" عام 1213، بين اليهودي المهتدي "جيرونيمو دي سانتافيه"، وأربعة عشر حاخاماً يهودياً، أمام جمهور حاشد، كان على رأسه دائماً، عدد من كبار اللاهوتيين المسيحيين والمثقّفين اليهود. ولقد تواصلت تلك المساجلة الشهيرة واحداً وعشرين شهراً. واعتنق على إثرها المسيحيّة، ثلاثة آلاف يهودي، كان على رأسهم معظم الحاخامين الذين شاركوا فيها. ويذكر المؤرّخون أنّ جماعات يهودية برمّتها، طالبت، خلال هذه المساجلة، باعتناق المسيحيّة. ولقد عرفت إسبانيا بعد ذلك، هدوءاً نسبياً، تواصل عشرات السنين، كانت الكنيسة خلالها، تُبدي اهتماماً دؤوباً باليهود، الذين أقبلوا على اعتناق المسيحيّة منذ عام 1391، ولا سيما بين العامين 1411 و1414.

وسرعان ما تبين أنّ عدداً من هؤلاء "المهتدين"، كانوا لا يزالون يحنّون إلى يهوديّتهم، بل أنهم كانوا يمارسون طقوسها في الخفاء، فيما كان بعضهم الآخر يمارسها علناً، نظراً لما كان بينهم وبين السلطات الكنسية والمدنية، من علاقات وصداقات. وتبين أيضاً أن عدداً منهم أخذوا يستغلّون وضعهم الجديد، بذكاء ودأب، فيتوغلون في التعامل الطبيعي مع الناس، ولا يتورّعون عن ولوج جميع الدروب المفتوحة أمامهم، إن في المجتمع أو المهن الحرة، وإن في الجامعات والدولة، بل والكنيسة. وكان منهم من اقترن بابنة أحد

النبلاء، فبات منهم. وما كانت هذه الازدواجية لتزعجهم، على الرغم من جميع النعوت التي كانت تُطلق عليهم، من الجانب المسيحي أو من الجانب اليهودي... وكان أسوأ هذه النعوت هو ما أطلقه عليهم الشعب العادي، إذ وصفهم "بالخنازير"، وبالإسبانية "المارانوس". وكانت اللعنات تنصبّ عليهم من أعلى المنابر في الكنائس. ولكن كل ذلك ما كان ليحول دون انتشارهم، وممارستهم حضورهم ووظائفهم، حتى جاء يوم من عام 1440، هاج فيه جمهور حاشد، وهجم على عدد منهم إذ كانوا يجبون الضرائب، فقتل بعضهم... وكانت هذه الأحداث تتكرّر هنا وهناك، ثم تختفي. وقد تكرّرت على نطاق أوسع عام 1460، ثم في العامين 1473 و1474.

هنا، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الجمعيات الرهبانية في إسبانيا، وكانت كثيرة، أُخذت كلّها بهذا التيار، وقد تحوّل إلى ما يشبه الهوس في مقاومة اليهودية أولاً، ثم في مقاومة الازدواجية الدينية، التي بات الكثيرون من "المهتدين الجدد" يتمسّكون بها. وبانخراط الرهبانيات في هذه "الحرب الدينية"، أتيح "لمحاكم التفتيش" في إسبانيا، أن تكون لها اليد الطولى فيها، لا سيما وأنّ الحملة الصليبية، التي كانت قائمة آنذاك في طول البلاد وعرضها، من أجل طرد المسلمين واليهود منها، كانت ترمي إلى العودة بها إلى الوحدة المسيحيّة الصافية، دينياً وسياسياً. وقد وجدت في بعض الحكام، ولا سيما في الملك "فرديناند"، والملكة "إيزابيل" زوجته، من يساند هذا المشروع. وكان الأب "توركويمادا" الدومينيكي، مُعرِّف الملكة، يتولّى بكل ما أوتي من نفوذ واندفاع، أمر دفع السلطات السياسية والدينية إلى إنشاء "محاكم تفتيش"، تأخذ على ذاتها مهمّة العودة بإسبانيا إلى "نقائها" العرقي والديني... ومنذ عام 1480، أخذت

الأمـــور تتفـــاقم بالنســـبة إلى اليهـــود، ولا ســـيما بالنســـبة إلى "المـارانوس" منـهم. وفي عـام 1483، عُـيّن "توركويمـادا" هـذا "مفتّشـاً عامـاً" لهـذه المحـاكم، فأخـذت الأمـور، بسـرعة مدهشـة، منحـى متوحّشاً، تَفَجّر في عنف قضى على آلاف من اليهود و"المارانوس" حرقـاً... وأعلنـت إجـراءات بحقّهـم، في غايـة التعقيـد، ترمـي إلى الكشـف عـن المتهوّدين مـن المسيحيين! وطولـب الحاخـامون بإلقـاء الحرم على المؤمنين اليهود، الذين كانوا يرفضون الوشاية!

إلاّ أنّ جميع هذه الإجـراءات أتـت بنتـائج عكسية، فمـلأت نفوس الناس بتصلّب جديد، تجلّى في تحدي الموت حتى في أبشع صوره. وعطف اليهود المؤمنون على من كانوا يحقّرونهم بلقب "الخنازير" (المـارانوس)، وشـجّعوهم علـى العـودة إلى إيمـان أجـدادهم، وعلـى الثبات حتى في وجه الموت... ولما تبيّن "لتوركويمادا" أنّ إجراءاته كلّها قد فشلت، طالب بإجراء أخير وحاسم، وهو طرد جميع اليهود من إسبانيا كلّها. وهنـا اصـطدم بمقاومـة البابـا "اينوشـنتوس الثـامن"، ومَلِكَـي إسبانيا، "فرديناند" و"إيزابيل". غير أنّ سقوط آخر معقل للمسـلمين في "غرناطـة"، بيـد الجيـوش الإسـبانية، شـجّع الملـك "فرديناند" في سعيه إلى إعادة الوحدة الدينية، وإذن القومية، إلى إسبانيا كلّها. فأصدر أمره في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني (يناير) عام 1492، بطرد جميع اليهود من إسبانيا، على أن يكتمل رحيلهم أو ترحيلهم كلياً، في الثلاثين من شهر تموز (يوليو) من عام 1492. وقد جاء في القرار الملكي "أنّ اليهود يَحرِفون المسيحيين عن إيمانهم، وأنّ الطرد هو الوسيلة الوحيدة والناجعة، لوضع حدّ لهذه المصائب!" وكان أن اعتنق المسيحيّة عدد كبير من اليهود، إلاّ أنّ الغالبية آثرت الرحيل. وكان هذا الرحيل بداية لمآسٍ جديدة

حلّت بهم، إذ تعرّض الكثيرون لقراصنة البحر، فالأسر، فالعبودية، أو للموت غرقاً. ووصل الكثيرون أيضاً إلى إيطاليا وتركيّا، وبعضهم رحلوا إلى البرتغال، أملاً منهم بالعودة قريباً إلى إسبانيا.

غير أنّ ظروفهم في البرتغال لم تكن مريحة. ذلك بأنّ الملك "خوان الثاني" (1481–1496)، أذن باستقبال اليهود لفترة وجيزة، ولكن لقاء مبلغ كبير من المال. وأمّا الذين لم يستطيعوا المغادرة وفق الفترة المحددة والمال المطلوب، فقد فُرضت عليهم العبودية، وفصلوا عن أبنائهم وبناتهم، الذين أرسلوا إلى إحدى الجزر، ليصار إلى تنشئتهم وتربيتهم مسيحياً، بعيداً عن أهلهم!... ولما تسلّم مقاليد الحكم الملك "عمانوئيل"، أخذ بقرار ملوك إسبانيا، فأمر بطرد اليهود من بلاده. إلا أنّه عاد فقرر الاحتفاظ بهم، حرصاً منه على مقدّراتهم، ولكنه فرض عليهم اعتناق المسيحيّة، وأمر بانتزاع أولادهم منهم، ليصار إلى عمادهم وتربيتهم تربية "مسيحية"... وهكذا نشأت في البرتغال، طبقة جديدة من "المارانوس"، لم تُفلت بدورها من محاكم التفتيش، ولكن بأساليب فاقت بوحشيتها ما كانت عليه في إسبانيا. وقد ظلّت تطاردهم في البرتغال حتى... القرن التاسع عشر!...

4) **كنه لاسامية القرون الوسطى.**

ما بين لاسامية القرون الأولى، ولاسامية القرون الوسطى، علاقة واضحة. فالعداء الأصلي لليهود تواصل دون تبدّل، لأن اليهودي كان يمثّل فئة من "الكفرة" في نظر المسيحيين، تنادي بجرأة بامتلاكها الحقيقة الدينية دون سواها من الناس. وهي، إذ تفعل، تتحدّى الكنيسة والدولة المسيحيّتين، اللتين كانتا، منذ عهد

قسطنطين، تريدان مجتمعاً موحّد الإيمان، وبالتالي موحّد الكيان. ولذلك لم يكن في هذه اللاسامية، ما يمكن أن يكون نزعة إثنية أو عرقية. وكان اليهودي، فور اعتناقه المسيحيّة، يظفر بالحظوة الكاملة، حتى أنّ الملوك وكبار المسؤولين في الكنيسة، كانوا أحياناً يسارعون إلى حضور العماد، وكان بعضهم يرغب في أن يكون عرّاب "المعمّد" الجديد!

إلاّ أنّ مهنة الربا التي كان يمارسها اليهود، كانت تشكّل دائماً العقدة الكبرى في التعامل معهم. وقد كان لها، في أحيان كثيرة، السهم الأكبر في نشأة لاسامية القرون الوسطى. وقد حار المؤرّخون، ولا سيما اليهود منهم، في معرفة الدور الحقيقي الذي كان للربا في نشأة اللاسامية، من حيث تفرد اليهود بها، ومدى اتساعها. وقد ذهب المؤرّخ اليهودي "سونبارت" في الرأي بأن يهود القرون الوسطى هم الذين أرسوا قواعد الرأسمالية الحديثة. ومن الواضح أن سعيهم المفرط لتكديس الأموال، كان في الغالب السبب الرئيسي في مآسيهم. وقد يكون في ما كتبه المؤرّخ اليهودي "بولياكوف"، جوهر الإجابة على هذه المسألة المعقّدة. فقد جاء في كتابه "من المسيح إلى يهود البلاطات"، قوله بالحرف الواحد:

« شيئاً فشيئاً، خلال حياة اليهودي اليومية، كان في كلّ محطة، وفي كل عمل، يضطرّ لدفع ضريبة ما. كان يضطرّ لدفع ضريبة في الذهاب والإياب، وفي الشراء والبيع، وفي ممارسة حقوقه، وفي الصلاة مع جماعته، وفي الزواج، وفي الإنجاب، وحتى في الجثة التي كان يقودها إلى المقبرة. »

والغريب في الأمر، أن مثل هذا القول، بل ما هو أشدّ منه واقعية واستنتاجاً، كتبه في القرن الثاني عشر، أحد كبار المفكرين

المسيحيين. إنه الفيلسوف "ابيلار"، وقد وضعه في كتاب له بعنوان: "حوار بين فيلسوف ويهودي ومسيحي"، وجاء فيه بالحرف الواحد:

« إن الاعتقاد بأنّ رباطة جأش اليهود الغارقين في الألم، قد تبقى دون مكافأة، يعني أنّ الله قاسٍ. فما من أمّة تحمّلت من أجل إلهها، ما تحمّلناه نحن. فلقد شُرّد اليهود بين جميع الأمم، دون ملك أو قائد. وأرهقوا بضرائب، كما لو كان يتوجّب عليهم أن يشتروا حياتهم كل يوم وُجدوا فيه. والإساءة إلى اليهود، يعتبرها المسيحيون دلالة على غضب الله الشديد عليهم. وحياتهم هي بين أيدي ألدّ أعدائهم. حتى نومهم، تكتنفه كوابيس دائمة. ليس لهم من ملجأ سوى السماء. وإن هم رغبوا في السفر إلى أقرب مدينة، فإنه يتوجّب عليهم أن يشتروا حياتهم بمبالغ طائلة، يطالبهم بها الحكام المسيحيون، الذين يريدون، في حقيقة الأمر، الموت لهم، ليستولوا على ممتلكاتهم. ولا يحقّ لهم أن يقتنوا لا أرضاً، ولا كرماً. لأن الجميع يدركون ما يعانون من خلل مطلق في الأمان. ولذلك، فهم مضطرّون، كي ينقذوا حياتهم، أن يتعاطوا الربا. وهذا العمل بدوره، يجلب لهم بغض المسيحيين...! »

وفي الحقيقة، كانت لاسامية القرون الوسطى، بالدرجة الأولى، من منبت شعبي. ولما كانت جماهير الناس ذات عقلية خرافية، وسريعة التأثّر بما يحلّ بها من كوارث اجتماعية أو سياسية، أو طبيعية، وهي لا تدرك لها سبباً، كانت بحاجة إلى كبش فداء، تحمّله بعضَ أو كلّ مآسيها. ثمّ إنه لا بدّ لنا من الاعتراف بأنّ هذه الجماهير لم يكن بوسعها، بأي حال من الأحوال، أن تكون أفضل من المسؤولين في الكنيسة آنذاك، في فهم سموّ المسيحيّة، روحاً

وفكراً وخلقاً، فكيف بها في تطبيقها في الحياة الواقعية، وفي تعاملها مع مَن يخالفها في العقيدة، وبالتحديد مع اليهود؟

هنا، أجل هنا يكمن سرّ اللاسامية التي عصفت بجميع البلدان في القرون الوسطى، والتي أصابت اليهود في صميم حياتهم وتكوينهم، طوال مئات السنوات. وإنها لخبرة صادمة ومفجعة، للمسيحيين الذين ظنّوا يومها، سواء في الكنيسة أو الدولة، أنهم كانوا أبطالها، لأنهم كانوا في الحقيقة أولى ضحاياها! ولقد حفرت هوّة لا قاع لها بين المسيحيين جميعاً، من جهة، واليهود من جهة أخرى، هوّة عمل الجميع، من حيث يدرون أو لا يدرون، على توسيعها وتعميقها.

الفصل الثامن

في زمان المنعزلات السكنية: "الغيتو"

خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، طرأت تبدّلات سياسية واجتماعية، ودينية وثقافية، نقلت المجتمعات كلّها من عالمها القديم إلى العالم الحديث. ولكن هذه التبدّلات كلّها لم تُحدث أي تغيير يُذكر على وضع اليهود فيها. ولقد عرف ذلك الزمان حركتين جبّارتين، هما حركة النهضة، وحركة الإصلاح، اللتين قضتا على نظام الإقطاع، وزلزلتا الكنيسة، وشقّتا دروباً جديدة أمام الفكر والفن والبحث العلمي. إلا أنّ كل ذلك بدا غائباً بالكلية عن المجتمعات اليهودية، إذ كانت منكفئة على ذاتها، داخل مجتمعات كانت تصبّ عدوانيّتها عليها طوال قرون امتدّت حتى مطلع القرن التاسع عشر. ففي حين سجّلت تلك الحقبة انطلاقة المجتمع الغربي نحو تطوّر متسارع وخارق، ظلّت المجتمعات اليهودية قابعة في جمود وعزلة، وتشتّت وتشرّد. وقد أجمع المؤرّخون عموماً، واليهود منهم خصوصاً، على وصف هذه الحقبة، بحقبة المنعزلات، "الغيتو".

1) **أيّ منعزلات؟**

كان منعزلهم الأول... مسكنهم. وقد أطلق على أماكن سكنهم، اسم "الغيتو"، وهو مصطلح يصعب تحديد منشئه، ولكنه يعني في نتيجة المطاف، السكن المنعزل والخاص بفئة محدّدة من الناس، ضمن

تجمّع سكّاني أوسع... ومثل هذا الوضع لم يكن لا جديداً، ولا طارئاً على اليهود، إذ عرف لديهم منذ العصر الروماني، بحكم إصرارهم على تحاشي الاختلاط بالوثنيّين. وقد احتفظوا بهذا النمط من السكن طوال القرون الوسطى، وذلك تارةً بفعل اليهود أنفسهم، وطوراً بفعل المتحكّمين بهم وبمصائرهم، في مختلف البلدان. إلا أنّ هذا النمط من السكن، كان يعتبر، أحياناً كثيرة، امتيازاً لهم، ويتباهون به، بل يحتفلون بذكرى إنشائه. واحتفظوا بهذا التقليد طوال قرون، حتى القرن التاسع عشر، يوم كان الكثيرون من الحاخامين، هنا وهناك، يُعربون عن أسفهم لانعتاق اليهود نهائياً من العيش ضمن "الغيتو"!

في هذا الوقت، كانت الكنيسة من جهتها تحرص على تشجيع الانفصال بين المسيحيين واليهود. بل كانت المجامع الكنسية تلحّ في إصرار، على مطالبة المسيحيين بتحقيق هذا الفرز السكاني، خوفاً من نشوء علاقات بينهم، تعرّض إيمان مؤمنيها للخطر! إلاّ أنّ هذا التوجيه العام، لم يكن ليجد دائماً ترجمة له على أرض الواقع. وكثيراً ما كانت الأحياء اليهودية تجاور الأحياء المسيحيّة، بل تتداخل معها، في حين كانت الحياة العملية تضطرّ الجميع للتعامل الفعلي، على نحو طبيعي، بعيداً عن أيّ تمييز ديني، أو أحكام مسبقة... وكان ذات يوم أن طرأ جديد على الحياة في "الغيتو"، حيث تقرّر أن يوضع بابان ضخمان، أولهما عند مدخل "الغيتو"، والثاني عند مخرجه، وأن يقف حراس مسيحيون عند كل باب، ليلاً، ليمنعوا تسلّل أي غريب إليه. كان ذلك في مدينة "بال" بسويسرا، خلال القرن السادس عشر. وقد اعتُبر ذلك الإجراء، الذي عُمّم في ما بعد على سائر البلدان الأوروبية، بمثابة حلّ وسط يقف بين الطرد النهائي لليهود، وتجميعهم في مساحة محدّدة ومراقبة وسط

المجتمعات الغربية، ويحمل في طيّاته ما يمكنه أن يرضي على السواء، الراغبين في طردهم، والراغبين في الإبقاء عليهم!

كان "الغيتو" يحتلّ دائماً موقعاً من الأحياء الفقيرة في المدن الكبرى الغربية. وقد اشتهر منها خصوصاً ما كان في مدن "براغ" و"البندقية"، و"فرانكفورت" و"روما". وكان معظمها مكتظّاً بأعداد من اليهود، تفوق قدرتها الاستيعابية، حتى الاستثنائية. وما كان ليضمّ سوى شارع واحد، متماد في طوله، تحدّه من جانبيه أبنية عتيقة، بالغة الارتفاع. من ذلك مثلاً، أنّ "غيتو" روما كان يضمّ عشرة آلاف ساكن، في مساحة تقلّ عن كيلومتر مربع واحد، فيما كان "غيتو" "فرانكفورت" يحتوي أربعة آلاف ساكن، يقطنون في مائة وتسعين بيتاً، متراصّين في شارع واحد. وكان "غيتو" روما يقع على ضفاف نهر "التيبر"، فكان عرضة لفيضاناته السنوية. وإلى ذلك، كانت الإقامة فيه رهناً بإذن سنوي!

لم تكن الحياة في "الغيتو" تنطوي كلّها على جوانب سلبية فقط، لا سيما في بدايات نشأته. ولقد اتضح بمرور الزمن، أنه رسّخ روح التضامن في ما بينهم على نحو خارق وثابت، وأسّس تعلّقهم الدائم بكُنُسهم، وكأني بها القلب الذي يضخ دماءه في أجسادهم المتعبة. كما أنه نمّى لديهم روح الدراسة، ولا سيما دراسة الكتب الدينية. ولقد أثبتت الأحداث القاسية، اللاحقة، أنّ هذه العوامل مجتمعة كانت حاسمة في تماسكهم وتعاضدهم، واستمرارهم في الوجود، على الرغم من كلّ ما تعرّضوا له من كوارث، كان يفترض فيها أن تقضي عليهم.

والحقيقة تقتضينا الاعتراف بأنّ هذه الجوانب السلبية في حياة "الغيتو"، لم تكن بقليلة، ولا بخفيفة. فلقد طوتهم على ذواتهم،

خوفاً وحزناً، وباتوا يجترّون ماضيهم، مستنجدين به في مواجهة الحاضر البائس، والغد القاتم. وتشكّلت لديهم عقلية نمطية، منكفئة على الذات اليهودية، فردية كانت أم جماعية، وحاقدة على "الأغيار" جميعهم، الساعين أبداً إلى إذلالهم، وتدميرهم، أو استغلالهم حيناً، وإلغائهم حيناً آخر. بالطبع، لم يقصّر المؤرّخون اليهود، في وصف مثل هذه الأحوال... إلاّ أنّ ما جاء تحت قلم "سيسيل روث" الأميركي، قد يكون أفضل وصف لهم. وقد جاء في كتاب له بعنوان "موجز حياة الشعب اليهودي"، ما يلي:

« كانت النتائج كما يسعنا أن نتصوّرها. فقد كانت دائرة المصالح البشرية بينهم، ضيّقة إلى حدود لا تطاق. ولم يعد للحياة في نظرهم، أي معنى. وكانت القرابة الدموية قد احتلت مساحاتها القصوى، على الصعيد الجسدي والاجتماعي والفكري... وبعد مضي قرنين من العيش في "الغيتو"، بات من الممكن الحكم على نتائج هذه الحياة. لقد كان اليهودي تدهور جسدياً، إذ إنه قد فقد بضعة سنتيمترات من قامته الطبيعية. وكان ظهره قد تقوّص. وبات مجبولاً بالخوف، وفي الغالب، عصابياً. كانت اهتماماته المذلّة، التي فرضت عليه، أصلاً، بفعل القانون، مثل إقراض المال والاتجار بالثياب العتيقة، قد باتت لديه طبيعة ثانية، كان يصعب عليه التخلص منها. وكان حسّ التضامن لديه مع أبناء دينه، قد تضخّم على نحو مفرط، وترافق عموماً بشعور عنيف بالحقد على "الغير"، المسؤول عن مصيره... »

ثمّة جانب سلبي آخر، له أهمية خاصة، طرأ على حياة اليهود في "الغيتو". كان ذلك غيابهم عن الحياة الاقتصادية، التي كان لهم فيها، في ما سبق، شأن يذكر. ذلك بأن الرأسمالية الجديدة كانت تتشكّل، بعيداً عمّا كان لليهود في السابق، من دور واضح في الحركة

التجارية، لا سيما من حيث توفير الأموال الضرورية لها. ولما كانت معظم الأعمال التجارية والمهن الحرّة، محرّمة عليهم، اضطرّوا للبحث عمّا تبقّى أمامهم من أعمال متاحة، مثل الدَّين مقابل رهن، والاتجار بالثياب، بيعاً وشراءً، والتجارة الجوالة. وكان معظم سكان "الغيتو" في حالة من الفقر، لا تسمح لهم حتى بدفع الضرائب الباهظة المفروضة على الجماعات اليهودية، لولا مساعدات كانت تأتيهم، بين حين وآخر، ممّن كانوا أوفر منهم حظّاً وتصميماً، وممّن كانوا أيضاً، لسبب أو لآخر، أفلتوا من قيود حياة "الغيتو"، وشقّوا لهم دروباً أوصلت بعضهم إلى الطب والشهرة، وبعضهم إلى... بلاطات الأمراء والملوك، أو إلى ثراء ضخم، لم يمنعهم من التواصل والتعاطف مع بني دينهم...

ثمّ إنّ هذا الفصل القسري في "الغيتو"، قد تسبّب في إحداث بيئة غير آمنة، أثّرت في عمق حياة اليهود، الفكرية والروحية، بحيث تحوّل كل "غيتو" إلى ما يشبه مركزاً للدراسات التلمودية والمدراشية، التي بدت بدورها وكأنها توفّر لسكانه، ملجأً روحياً، يمدّ المقيمين فيه بما يمكّنهم من تحمل الضغوط الكثيرة، والمثبّطة للعزائم ليل نهار، على مدى الحياة... ولقد وصف المؤرّخ اليهودي الأميركي "سالمون غريزل" (Solomon Grazel)، هذا الجانب الخطير من الحياة في "الغيتو"، في كتابه "تاريخ اليهود". يقول:

« كان هؤلاء الرجال، إذ يدرسون التلمود والمدراش، يغيبون عن الزمان والمكان. صحيح أنهم كانوا يعيشون في "فرانكفورت" و"فيينا"، أو حتى في روما، إلا أنّ عقولهم كانت تحيا في عصر إسرائيل أيام الملوك والأنبياء، أو في المدارس الكبرى، التي كانت قائمة في "سورا" و"بومبيديتا". وما كانت آمالهم لترتكز على القادة الأرضيين، الذين كانوا

يعتبرونهم أناساً مُعادين لهم، ونهمين إلى السلطة والمال، بقدر ما كانت ترتكز على الوعد الذي أعطي لأجدادهم، بمسيحٍ آتٍ يوماً ليحرّرهم. »

كما وصف مؤرّخ يهودي آخر، هو "أبراهام هيشيل"، في كتاب له بعنوان "الأرض للرب"، سنوات "الغيتو" هذه، فقال:

« إنها العصر الذهبي للتاريخ اليهودي على صعيد تاريخ الروح اليهودية. »

ولكنه لم ينسَ أن يشير أيضاً إلى ما حلّ باليهود الشرقيين خصوصاً، "من رتابة في التعليم، وتدهور في العادات الحسنة، وضيق في الأفق".

وهناك من العلماء اليهود، من رأوا، مثل "جاكوب كاتس" في كتاب له بعنوان "عزل وتسامح"، تأثيراً سلبياً جداً "للغيتو" على حياة اليهود الفكرية، فكتب يقول:

« لقد أصبحت اليهودية الآن نظاماً من التفكير، يزداد ضيقاً. ومن المعروف أنّ اليهود "الأشكيناز" لم يكن لديهم طوال هذه الفترة، أي مفكّر جدير بهذا الاسم، باستثناء الحاخام "يودا لوب" (Judah Loeb). بالمقابل فإنّ هذه الفترة عرفت حشداً كبيراً من الوعّاظ، الذين كانوا يتحدّثون عن الأخلاق، ويقرّعون بإفراط. »

وللأسباب ذاتها، اضطرّ اليهود للتخلي عن الدراسات غير الدينية، ففقدت المعرفة اليهودية كل اتصال بالتيارات الفكرية الكبرى، التي كانت تتشكل وتتحرّك بقوة، خارج عالم "الغيتو".

بالطبع، كان هناك بعض الاستثناءات، مثل الفيلسوف "سبينوزا" و"موسى مندلزون". إلاّ أنّ هذين الرجلين ما كان ليربطهما شيء بدنيا "الغيتو". وفي الواقع، فقد ألقى الحاخامون الحرم على الفيلسوف "سبينوزا"، فانقطع عن الجماعات اليهودية. وفي هذا الشأن، يجدر بنا أن نقرأ ما كتبه المؤرّخ "سيسيل روث" في كتابه "موجز التاريخ اليهودي":

« إنّ العقول الباهرة كانت تضيع في أمور تافهة. وما كان قد صُمّم من أجل البشرية جمعاء، حُشِر في شارع عادي ضيّق وأسود. وإن تفتّح العقل، الذي لا يمكنه أن يحدث إلا بالتلاقح الثابت والمتكاثر في العلاقات البشرية، بات مستحيلاً. »

وإلى ذلك، فقد عرفت حياة اليهود، في تلك الأثناء، شيئاً من الارتياح، إذ كانت المجازر قد تباعدت قليلاً، وعمّ بعضُ ما كان يصيب اليهود من نجاح، على طبقات اجتماعية أخرى. كما أنّ النزعة الإنسانية، التي كانت تتسرّب من بعض البلدان، قد حملت معها شيئاً من التسامح، وبعضاً من اللاأدرية، وفي وفاضهما طمأنينة نسبية وغير مألوفة. وكان اليهود يُبدون، بمرور الزمن، مزيداً من الخنوع، الأمر الذي كان يزيد صورتهم تدهوراً وتشوّهاً، حتى بات كل يهودي أشبه بيهوذا، يتلبّسه البخل والغدر، ويستحيل عليه العودة إلى أصالة ما... أجل، لقد تحوّل إلى الصورة النمطية السمجة، التي كان شكسبير وسواه من الكتّاب المعاصرين قد رسموها لليهودي الجشع، علماً بأنهم كلّهم، بما فيهم شكسبير، كانوا قد اقتبسوها من قصة إيطالية قديمة، كان يمثل فيها دور "شايلوك" اليهودي، أحد الأثرياء المسيحيين!

2) عهد التشرذم

أحدثت إجراءات الطرد، التي حلّت باليهود في كل من إسبانيا والبرتغال، حالة من التشرذم، كان لها أسوأ الأثر على تشرّدهم. فقد اتجهوا شيئاً فشيئاً نحو الشرق والبلقان، وبولونيا وتركيا و... فلسطين. إلاّ أنّ النزعة اللاسامية لم تلاحقهم في هذه البلدان. والجدير بالذكر أنهم نعموا في تركيا وفلسطين على نحو خاص، بطمأنينة وحرية، أتاحتا لهم الانصراف التام إلى مهمّاتهم الصوفية والزراعية والمسيحانية. وأما بولونيا، فقد كانت لهم خير مأمن... ولكن إلى حين!

وتشاء المفارقة التاريخية أن تنتعش النزعة اللاسامية، في كل من فرنسا وانجلترا، على خلوّهما آنذاك من الجماعات اليهودية. ولقد حار المؤرّخون في تفسير هذه المسألة. وقد يكون "ليون بولياكوف" خير من حلّل هذه المفارقة العجيبة، في كتاب له بعنوان "من المسيح إلى يهود البلاطات"، يقول فيه:

« في هذين البلدين، الخاليين من اليهود، وُجدت ظاهرة اللاسامية، في أصفى حالاتها: لقد وُجدت، حيث كان لليهود غياب مطلق! »

وأمّا دراسته هذه، فقد أجراها انطلاقاً ممّا نشر، خلال تلك الفترة الطويلة، من كتب تدريس الديانة المسيحيّة، ومن قواميس، ومن عظات لكبار الخطباء والوعاظ، ومن مؤلّفات مختلفة في شؤون الأدب والتاريخ والمجتمع. وقد عَثَر على كمّ هائل من أحداث وروايات واختلاقات وإشارات، وتفاسير، تزخر كلّها بلاسامية دفينة ومتفشّية لا غور لها، تسرّبت إلى شتى ميادين الحياة في فرنسا، من تاريخية وعاطفية ودينية وخيالية. وقد رصد أيضاً ما انبثق هنا وهناك، عن كل هذا الزخم، من تحركات شعبية، ضيقة أو واسعة، عنيفة أو عابرة، حتى ضدّ بعض بائعي الثياب، لمجرّد الظنّ المتسرّب بأنهم تجار يهود! وعثر في مؤلفات أدبية استثنائية، مثل كتاب "الخواطر" للعالم باسكال، على إشارات إلى لاسامية صريحة ومتأصلة، هي في الحدود الدنيا، مقلقة في إنسان بحجم "باسكال". وكان من أبرز من حصد لديهم مواقف لاسامية صارخة، الخطيب الشهير، المطران "بوسويه"، الذي وصف الشعب اليهودي في كتاب له بعنوان "مقالة في التاريخ العام"، بأنه "شعب لعين، ومتقلّب، تلاحقه لعنة الله، وقد حكم عليه بأن تحلّ به إلى الأبد حالة من البؤس والتشرّد، لأنه قتل كلمة الله، السيد المسيح".

وأما في انجلترا، فقد حدث تطوّر مماثل. ففي عام 1655، عندما أراد أحد أبرز وجهاء "المارانوس" في هولندا، وهو "منسّى بن لعازر"، التفاوض مع حاكم انجلترا "كرمويل"، من أجل عودة اليهود إليها، وكانوا قد طُردوا منها عام 1290، اصطدم مشروعه برفض عنيد من قبل معظم أعضاء البرلمان، مع أن "كرمويل" كان قد رحّب بالمشروع، نظراً لما كان يرجوه، على الصعيد الاقتصادي، من عودة اليهود إلى انجلترا. والغريب في الأمر أنّ شائعات مقلقة كانت قد راجت في الوقت نفسه، تتحدّث عن رغبة اليهود في شراء الكاتدرائيات الكبرى فيها، ولا سيما كاتدرائية القديس بولس الملكية! فاضطرّ كرمويل للتخلّي عن مشروعه، إلاّ أنه كان قد سمح لعدد كبير من "المارانوس" الهولنديين بالإقامة في لندن، وكان أن بنوا لهم فيها كنيساً، واصلوا فيه الصلاة في حرية وطمأنينة... وبذلك تحقّقت عودة بعض "اليهود" إلى انجلترا...

3) في خضم الثورات الثقافية والدينية في ألمانيا

يتّصل تاريخ اليهود في ألمانيا، بكبرى الحركات الدينية والثقافية، أكثر من اتصاله بالعلاقات المتوتّرة، وأحياناً الدامية، بين المسيحيين واليهود. ذلك بأن جلّ اهتمام الجميع، مسيحيين ويهوداً، كان الحركات الإنسانوية والإصلاحية.

عرف التوجّه الإنسانوي الجديد، انتعاشه الأول في إيطاليا، حيث أبدى الكثيرون من المثقّفين المسيحيين، اهتماماً واسعاً بدراسة اللغة العبرية والأدب العبري. وقد ساهم اختراع المطبعة في تطوّر هذه النزعة الجديدة. ويومها كان لليهود مطابع تنشر الكتاب المقدّس باللغة العبرية، كما كانت تنشر التلمود ودراسات عبرية

كثيرة. وما كان العلماء من مسيحيين ويهود، ليتورّعوا عن الاجتماع والتعاون في نطاق العمل الجامعي. صحيح أنّ المجتمع الألماني إذ ذاك، لم يكن على العموم، كثير الاهتمام بهذا التوجه، إلا أنه لم يكن أيضاً غريباً عنه. حتى كان يوم من عام 1509، حصل فيه أحد كبار المهتدين اليهود إلى المسيحيّة، وهو المدعو "جوزيف بفيفيركورن" (J. Pfeffercorn)، من الإمبراطور "مكسيمليان الأول"، على السماح له بمصادرة جميع نسخ التلمود، لأنه كان ينسب إليه تصلب اليهود في رفضهم المسيحيّة. فساند الرهبان "الدومنيكانيون"، في مدينة "كولن"، مبادرته. ولكن أسقف مدينة "ماينس" عارضه بشدّة، وطلب من الإمبراطور "مكسيمليان" تأليف لجنة من المختصين، كي يدرسوا، في موضوعية وحياد، مضمون التلمود وتأثيراته، السلبية والإيجابية معاً. وكانت تلك نقطة البداية لصراع ديني وثقافي تواصل سنوات، وشارك فيه العديد من الباحثين والمسؤولين، حتى انقسم الرأي بهذا الشأن، بين متحمّس للدراسات العبرية، ومتحفّظ أو رافض بشدة. وكان أن تدخل البابا "لاون الخامس"، والإمبراطور "مكسيمليان" نفسه، في هذا الصراع الطويل والمعقّد.

إلاّ أنّ صوتاً جديداً أخذ يدوّي في ألمانيا، واستحوذ على التأثير الأكبر في كل ما كان يجري فيها. ذاك كان صوت المصلح "مارتان لوتر" (1483–1546). وهنا، تحاشياً لإطالات غير مجدية، أرى أن أختصر موقفه الأول والأخير، من كلّ ما يتعلّق باليهود، وذلك بالاستناد إلى ما كتبه وعمّمه بهذا الشأن. ففي عام 1523، وضع "لوتر" كرّاساً بعنوان: "ولد المسيح يهودياً"، وقد دافع فيه عن اليهود، في محاولة منه، كما يبدو، لجلبهم إلى صفّه، فقال:

« إنّ أتباع البابا تصرّفوا مع اليهود، كما لو كانوا كلاباً، لا كائنات بشرية. ولو كان تلاميذ المسيح، الذين كانوا يهوداً أيضاً، قد تصرّفوا معنا، نحن "الأمميين"، كما تصرّفنا نحن مع اليهود، لما كان وجد مسيحي واحد... فنحن بدورنا يتوجب علينا أن نتصرف حيال اليهود على أنهم أخوة لنا، كي نتمكن من هداية بعضهم إلى إيماننا... ونحن لسنا سوى "أمميين"، في حين أنّ اليهود هم من نسل المسيح. فنحن غرباء، ولا تجمعنا به روابط مباشرة. وأما هم، فإنهم من أسرته، إنهم أخوة وأنسباء لربّنا... »

ولمّا لم يلقَ أي تجاوب من اليهود، بعد جهاد طويل وسنوات مديدة، عاد "لوتر" فكتب عام 1542 كرّاساً صغيراً بعنوان "عن اليهود وأكاذيبهم"، ثمّ كرّاساً آخر استخدم فيه كل ما كان قد قيل في السابق ضدّهم، وما سيكتب لاحقاً عنهم... والمعروف أن "لوتر"، في نهاية المطاف، طالب السلطات في ألمانيا، بطرد جميع اليهود من أراضيها. ولكن "لوتر" لم يجد تجاوباً يذكر مع مطالباته. صحيح أن السلطات الإصلاحية والجديدة فيها (البروتستانتية) أبقت على الإجراءات السابقة والصارمة بحقّهم، غير أن العنف الدموي كان قد تباعد قليلاً، وإن كان يترافق أحياناً، خلافاً للماضي، بعقوبات صارمة تطال مرتكبي هذا العنف. وعندما كانت أوامر الطرد تصدر بحقّ اليهود، كثيراً ما كان "يهود البلاطات"، هنا وهناك، يتدخّلون ليلغوا قرار الطرد، كما حدث في المجر عام 1747، أيام الملكة "ماري- تيريز" (1740-1780).

كان "يهود البلاطات" قد ظهروا بُعيد "حرب الثلاثين سنة" (1618-1648)، التي قامت في ألمانيا، في أعقاب الحركة الإصلاحية التي فجّرها "لوتر". إنما كانوا رجال أعمال وأموال، قد بلغوا من الثقة لدى المسؤولين الكبار، بحيث كانوا يُسلَّمون الإدارات المالية في هذه البلاطات. ويومذاك، كان الكثير من الأمراء الصغار يحتاجون

إلى الأموال، من أجل مواصلة صراعٍ كان الغرض منه... السلطة والمال! فكان لكلّ أمير، يهوديٌ في بلاطه، كما كان أيضاً للكثيرين من الكرادلة والأساقفة. وقد كان هؤلاء اليهود ينعمون بسلطات واسعة، وثروات طائلة... إلاّ أنهم كانوا، في الحقيقة، استثناءات، مقارنةً بجموع الشعب اليهودي، الذي كان يتسكّع في "الغيتو"، حيث كانت الحياة تخضع لرتابة قاتلة. وقد أُخضعت أحياناً لإجراءات جديدة، زادت حياتهم سخفاً وضيقاً، إذ مُنِعوا أحياناً من السير اثنين اثنين، ومنعوا أحياناً أخرى من مغادرة بيوتهم، إذا كان أحد الأمراء يتجوّل في المدينة. وقد حُظّر عليهم شراء أي شيء، إذا كان هناك مسيحي يريد الشراء أيضاً. وحُظّر عليهم التجوّل في بعض شوارع المدينة. أما السفر، أياً كان، فكان مشروطاً بإذن لا مفرّ منه، وبضريبة شخصية. وكانت حتى ثيابهم تخضع لرقابة مزعجة. وكان عدد المدعوين في زفاف أي يهودي، يخضع لتحديد صارم.

إلاّ أنّ القيود المفروضة على زواجاتهم، كانت أشدّ صرامة، بقصد التخفيف من تكاثرهم المفرط. وكانوا، على الصعيد الاجتماعي، يتعرّضون لقمع فاجر، إذ كان يحقّ لأي مسيحي أن يبادر أياً منهم بكلمات مهينة، وتصرّفات جارحة، كأن يطالبه بخلع القبعة عن رأسه، احتراماً لمحدّثه! وكانت الكتابات اللاسامية منتشرة على نطاق واسع، وهي أبداً تجترّ الاتهامات إياها، من قتل للمسيحيين في أسبوع الآلام، ومن تدنيس للقرابين، ومن ارتكاب جرائم بشعة، أو الإقدام على انحرافات جنسية! ثمة جديد في هذه الاتهامات، وهو أنها لم تعد تستند، كما في السابق، إلى اختلاقات مألوفة، بل إلى ما كان في قناعة الناس، فساداً في الأصل والعرق، يبرّر مهاجمتهم، بوصفهم كائنات شريرة في جوهرها!

4) في روما

كان من المتوقّع أن تأتي الحركة الكاثوليكية، المضادّة للإصلاح، بما يلطّف وضع اليهود العام، في إيطاليا عموماً، وفي روما خصوصاً. غير أنّ البابا "بولس الرابع" (1555-1559)، قد وضع حدّاً مفاجئاً لسياسات البابوات السابقين، المتسامحة إزاء اليهود. فلقد بلغ درجة من التشدّد حيالهم، جعلت المؤرّخين والباحثين يصفونه بأنه كان من أكثر البابوات قسوة عليهم. فعكس تماماً ما كتبه وفعله أسلافه طوال قرون تقريباً، ولا سيما حيال المعمَّدين منهم، إذ قد سمح لمحاكم التفتيش بإحراق ستّين منهم، وكان هو من أمر بإنشاء "غيتو" روما الشهير. كما أمرهم بحمل "شارة العار" الصفراء، وحظّر عليهم شراء الأراضي، وممارسة الربا، والتعاطي بالأعمال التجارية، والمهن الحرة، باستثناء أكثرها حقارةً ومذلّة. ولم يسمح في روما كلّها إلا بوجود كنيس واحد، فدُمّرت جميع الكنس التي كانت قائمة فيها. وحُظّرت جميع العلاقات الاجتماعية بين المسيحيين واليهود، وفُرِض عليهم الاستماع القسري إلى مواعظ في الشأن المسيحي، كانت تُلقى عليهم في أوقات محدّدة. وفي عهده نُظّمت حملات متواصلة ضدّ التلمود. وأخيراً حُظّر على اليهود المعمَّدين أن يلتحقوا، كما في السابق، بالجمعيات الرهبانية أو بالسلك الكنسي. وإنّ الحقيقة التاريخية لتضطرّنا للاعتراف بأنّ ما حدث في عهد هذا البابا وخلفائه، كان رهناً أولاً وأخيراً بمزاج البابوات الشخصي من جهة، وبظروف حياة اليهود ونشاطاتهم من جهة ثانية. ولذا نرى أن البابا "بيوس الرابع" (1559-1565)، قد ألغى معظم إجراءات الحظر التي كان سلفه قد فرضها، وأمر بتوسيع "الغيتو". وأما خلفه البابا "بيوس الخامس" (1565-1572)،

فقد أمر بطرد جميع اليهود من ولايات الكنيسة كلّها، باستثناء روما ومدينة "انكون" (Ancône). وفي عام 1585، اعتلى البابا "سكستس الخامس" الكرسي البابوي حتى عام 1590، فألغى جميع إجراءات البابا "بولس الرابع" القمعية، ومنح اليهود امتيازات كثيرة، حتى أنه ساوى تماماً بين الضرائب المفروضة عليهم بتلك التي كانت تُفرض على المسيحيين. ومنذ ذلك الحين، عرف وضع اليهود تحسناً طفيفاً في إيطاليا كلّها، ولكنه لم يكن ليختلف كثيراً عن أوضاعهم البائسة في سائر البلدان الأوروبية.

5) في بولونيا

عرف الوجود اليهودي في بولونيا ازدهاراً استثنائياً، كان يتعارض بالكلية مع ما كان يكتنف حياتهم في مختلف البلدان الأوروبية، من ضيق وخوف ومذلّة وقتل وتشريد. وقد تبين في الآتي من الأيام، أن هذه الحالة كانت عابرة وأعقبتها أهوال...

منذ مطلع القرون الوسطى، كانت بولونيا وليتوانيا مأمناً سعيداً لموجات اللاجئين من يهود ألمانيا، إثر الحملات الصليبية، وانتشار الطاعون وحدوث المجازر المختلفة هنا وهناك. ولقد وجدوا فيهما مَن أحسن استقبالهم وهيّأ لهم إقامة هادئة، أتاحت لهم الانصراف بسرعة إلى الأعمال التجارية والمالية المألوفة، فظهرت منهم طبقة اجتماعية تتوسّط طبقتي النبلاء والفلاحين. وباتوا يُعتَبرون عامل ازدهار ونموّ في البلد، وسُمح لهم بولوج جميع المهن الحرة، كما سُمح لبعضهم بشغل مراكز في دوائر الدولة، وأصبح آخرون جباة لضرائب الملك. وفي عام 1294، خصّ الملك "بوليسلاف الخامس" اللاجئين بشرعة، تعلن ما منحوا من امتيازات ومراكز. وقد جدّدها لهم، في القرن التالي، الملك "كازيمير الكبير" (1333–1370). والجدير بالذكر

أنّ تلك الشرعة كانت تمنحهم استقلالاً شبه كامل، حتى أن الملوك والنبلاء ما عتّموا أن اعتبروهم جزءاً لا يتجزّأ من المجتمع البولوني.

وسرعان ما اتضح أنّ هذا الإنجاز العظيم، لم يكن سوى قصر بُني فوق أرض رملية. ذلك أنه لم يكن ليريح لا الكنيسة ولا أفراد الشعب. فالكنيسة كانت أبداً تنظر بخوف إلى اتساع نفوذ اليهود، وأما الامتيازات التي كان العرش لا يني يغدقها عليهم، فقد كانت تتحفّز للانقضاض عليها، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. ففي عام 1267، أصدر مجمع كنسي عُقِد في مدينة "بريسلاو" (Breslau)، قانوناً يشي بخشية الكنيسة من تنامي نفوذ اليهود على المسيحيين، الذين كانوا حديثي الاهتداء إلى المسيحيّة. وفي القرن الرابع عشر، بدر من العرش تصلّب غير مألوف حيال اليهود، وراجت شائعات كثيرة حول تدنيس القربان المقدّس، ومقتل مسيحيين في أسبوع الآلام على يد يهود، فحدث هيجان شعبي، لم يهدأ إلاّ بالقضاء على عدد من اليهود. وفي عهد الملك العطوف "كازيمير الرابع" في القرن الخامس عشر، بذل بعض النبلاء المسيحيين جهوداً كبيرة، بالتنسيق مع رئيس أساقفة "كراكوفيا"، العاصمة آنذاك، من أجل تلافي المزيد من التدهور. إلا أنّ الأمور أخذت تزداد سوءاً، حتى أن "الغيتو" في كراكوفيا أُنشئ حينها، في تزامن غريب مع الاضطهادات التي انهالت عليهم في "ليتوانيا" أيضاً.

إلاّ أنّ تاريخ اليهود في بولونيا، لم يسر بعد هذا المنعطف وفق المنحى المألوف، الذي كان يبدأ بالانهيار ثم بالطرد النهائي. فلقد حدث في بولونيا شيء مغاير بالكلية، ذلك بأن اليهود استطاعوا خلال القرن السادس عشر، أن يبلغوا مستوى استثنائياً من الفعالية والنفوذ، ما كان لهم أن يبلغوه لولا أنهم باتوا يشكلون قطاعاً اجتماعياً واقتصادياً، اتضح للجميع أنه لم يكن من الممكن

الاستغناء عنه. وإلى ذلك، كانوا قد نموا من حيث العدد، نمواً مذهلاً، إذ إنهم انتقلوا ما بين عام 1500 وعام 1648، من خمسة عشر ألفاً، إلى خمسين ألفاً! وكان الملك "سيجيسموند الثاني" (1548–1572) وخلفاؤه قد منحوهم استقلالاً يكاد يكون كاملاً. ولقد شكّلوا مجلساً لهم، دُعِي "مجلس البلدان الأربعة"، وكان أشبه ببرلمان يهودي، كُلّف بتمثيل جميع الجماعات اليهودية، كما كلّف بسن قوانين لهم، تتماشى مع الشريعة اليهودية. وكان هذا المجلس، ينعم بشبه حصانة مطلقة، إذ كان لا يعرف مرجعية له سوى مرجعية الملك، وكان بالتالي يوفّر لهم استقلالية قانونية، افتقروا إليها منذ زوال "السنهدريم" القديم، الذي انهار مع انهيار القدس عام 70 بعد المسيح. وفي هذه الأثناء، كان نظام التربية اليهودية ومنهاج الدراسات التلمودية، قد بلغا مستوى قُيّض له أن يؤثر بعمق، طوال سنوات وسنوات، على طبيعة اليهودية كلّها في البلدان الأوروبية.

وإلى ذلك، لم يكن وضع اليهود العام في بولونيا مثالياً، كما كان يُتَوقع. فإنّ اتهامات القتل الطقسي وتدنيس القرابين، القديمة والمعروفة، كانت تتواصل في السر والعلن، إذ كانت تجد لها في الطبقات الشعبية، والأوساط الكنسية، تربة خصبة. وكان أن قامت اضطرابات حاشدة، ولكنها لم تتجاوز الصخب والتهديد العنيفين. وكان أن برزت فجأةً، تهمة جديدة وخطيرة، طالت جميع اليهود في أمانتهم ووفائهم للبلد الذي آواهم على أفضل نحو، وغمرهم بعطايا استثنائية! أجل، لقد وُجِد من يتّهمهم بالتآمر مع العثمانيين من جهة، ومع بعض البدع الإصلاحية من جهة ثانية، ضدّ بولونيا الكاثوليكية. وفضلاً عن ذلك، فقد كانت النزعات التهويدية مستشرية هنا وهناك في بولونيا، فتخلّى بعض المسيحيين عن إيمانهم، واعتنقوا اليهودية، ممّا زاد الأجواء توتّراً، وشحن النفوس نقمة.

وهبّ على يهود بولونيا إعصار دموي جارف، طوال عشر سنوات، كان أسوأ ما حلّ بهم منذ كارثة سقوط القدس في أيدي الجيوش الرومانية. إلاّ أنّه لم يأتِ من بولونيا بالذات، كما كان متوقّعاً. وذلك بأنّ العديد من المصالح المتضاربة تشابكت آنذاك على نحو متسارع. ففي "أوكرانيا"، كان "الكوزاك" الأرثوذكس الشرقيّون لا يكرهون البولونيين الكاثوليكيين الذين كانوا يستبدّون بهم وحسب، بل أيضاً اليهود الذين كانوا بمثابة أدوات طيّعة لهم. فقام تحالف ضمّهم، في شهر نيسان (إبريل) من عام 1648، بقيادة زعيمهم "بوغدان شميلنيكي" (Bogdan Chm ielnicki)، مع التتار وقبائل "الزابوروك"، واجتاحوا بولونيا في وحشية تفوق كل تصوّر، وخصّوا اليهود آنذاك بأسوأ ما ابتكروا من فنون التعذيب. وقد جاء وصف بعض ما جرى في كتاب لباحثَين يهوديّين، هما "مارغوليس وماركس"، على النحو التالي:

« دمّرت الممتلكات، والقصور سوّيت بالأرض. أما البشر فقد تعرّضوا لأبشع أنواع الموت. فسلخ جلد الضحايا وأحرقوا أحياء، بعد أن تعرّضوا للتشويه والبتر. وفُتحت بطون الأطفال، كما يُفتح السمك، وذبحوا على صدور أمّهاتهم، أو أُلقي بهم في الآبار وهم على قيد الحياة. والنساء فُتحت بطونهنّ، ثم خيطت، بعد أن زُجّت فيها قطط حية. وكثيرات غيرهنّ، المتزوّجات كالعازبات، اغتُصبن تحت عيون رجالهنّ، وأجملهن اقتيدت بالقوّة. والآلاف من اليهود قضوا في المدن الواقعة إلى الشرق من نهر الدنيبر. »

تواصلت هذه الفظائع فترة تجاوزت سنة كاملة. وقد خُيّر اليهود أحياناً بين العماد أو الموت... وعندما اعتلى العرش الملك "يان كازيمير" (1648–1669)، سمح للمعمَّدين بالعودة إلى إيمانهم الأصلي. وخلال اجتياح الجيوش السويدية لبولونيا ما بين عام 1655 وعام

1658، جرت مجازر جديدة، وطُرد الكثيرون من بولونيا. وخلال هذا الاجتياح، تعرّض اليهود البولونيون لاعتداءات كلٍّ من الروس والكوزاك والسويديين. وما إن رحل هؤلاء عن بولونيا، حتى نكّل بهم البولونيون، لأنهم اتهموهم بالتواطؤ مع القوات التي اجتاحتهم.

وأما عدد ضحايا هذه المآسي المتعاقبة، فقد بلغ أرقاماً خيالية، وهي تتأرجح بين مائة ألف بالحدود الدنيا، وخمسمائة ألف. والواقع الميداني يضطرنا للاعتراف بأن سبعمائة جماعة يهودية كانت قد تلاشت. وما تبقّى من فقراء وجياع، فقد انتشروا في مختلف الدول الأوروبية، إذ لم يبقَ لهم من ملجأ سوى الغرب. ولقد وجدوا فيه جماعات يهودية احتوتهم على نحو رائع، إذ قد استقبلتهم ونظّمت لهم الإقامة والمأكل والعمل والملبس، مع الصلاة والأمان. ولقد جُمعت لهم التبرّعات السخية، ودفعت الأموال الضرورية من أجل إعتاق مَن بيعوا كعبيد، لا سيما إلى القسطنطينية. وبالمقابل، فقد كان بعض اللاجئين من يهود بولونيا، يتمتّعون بسوية فكرية وروحية، خوّلتهم لأن يقوموا بدور الموجّهين الروحيين، داخل الجماعات التي أحسنت استقبالهم.

هذه الضربة في الحقيقة، قصمت ظهر الجماعة اليهودية في بولونيا، بحيث أنّ مَن تبقّى من يهود فيها، لم يعد بوسعهم أن ينهضوا ممّا حلّ بهم. وإلى ذلك، فقد كان العداء حيالهم منتشراً على نطاق واسع وعميق. فكانت الاتهامات القديمة تذرّ قرنها بين حين وآخر، حتى باتت شبه دورية، تفجّر هنا وهناك شغباً عشوائياً، لا يتوقف إلا محمّلاً بعدد من القتلى. إلا أن عام 1758، بلغ الخطر المحدق باليهود حدّاً، دفعهم لأن يستنجدوا بالبابا "بينيدكتوس الرابع عشر" (1740 – 1758)، فأمر، بعد دراسة الملفّ الخاص بهم، بتوفير الحماية الضرورية لليهود في بولونيا.

الفصل التاسع

النضال من أجل التحرر

في نهاية القرن الثامن عشر، كان اليهود يتمتّعون في معظم البلدان الأوروبية، بظروف اقتصادية واجتماعية، أفضل من تلك التي عرفوها في السابق. يومها، كانت الثورة الرأسمالية في أوج انطلاقتها، وكانت قد قضت على البنى القديمة، التي كان اقتصاد النظام الإقطاعي، قائماً عليها، بكل ما لازم هذا النظام من قيود، ومن إجراءات حظر للرّبا، ومن نظريات رمت إلى تحديد أسعار عادلة وثابتة. وقد جاءت هذه التغييرات لتبرز الدور الذي كان بعض اليهود قد لعبوه في الميدان الاقتصادي. وكانت ممارستهم للرّبا، وعلاقاتهم التجارية الدولية، وما فُطِروا عليه من هَوَس بالتجارة، قد نال لهم تقديراً واسعاً، أقلّه من بعض رجالات الدولة، الذين كانوا راغبين في تحسين اقتصاد بلادهم، ومن الرأسماليين الجدد، الذين كانت تدفعهم تطلّعاتهم النهمة، إلى إلغاء كل قيمة أخلاقية أو إنسانية، إزاء الربح المادي والاقتصادي. وإلى ذلك، فقد كان عدد كبير من اليهود قد تخلّوا عن ممارسة التجارة الجّوالة والربا، وأخذوا يقتنون الحوانيت والمشاغل الثابتة. ولما كانت الظروف الاقتصادية العامة، قد طرأ عليها تحسّن ملحوظ، لم يعد الثراء الخاص باليهود، صارخاً حيثما وُجِد، كما في السابق، إذ كان واقع رخاء عام آخذاً في الانتشار. وقد قاد هذا التطور إلى تلطيف القيود

المفروضة على التجارة، وبالتالي على حقّ اليهود في التجوّل بحريّة. وانسحب كل ذلك تلقائياً على نمط الحياة في "الغيتو"، إذ كان قد صُمِّم بقصد إبعاد اليهود عن التعامل مع المسيحيين، فأخذ يتفكّك من تلقاء ذاته في زمان سبق كثيراً القرارات السياسية التي أرادت إلغاءه، في أواخر القرن الثامن عشر، ومطلع التاسع عشر. ويومها، كان الاتهام القائل بأن اليهود "يشكّلون دولة ضمن دولة، ومجتمعاً ضمن مجتمع"، قد فقد الكثير من حدّته، في زمان كانت فيه "الدولة المسيحيّة الموحّدة"، أي تلك التي يتمتّع فيها المسيحيون وحدَهم بالمواطنة الكاملة، تتعرّض بدورها لانتقادات شديدة، إذ كان مفهوم المواطنة المعمّم على جميع مَن يسكنون منطقة واحدة، بغض النظر عن انتماءاتهم الطبقية أو الدينية، آخذاً بسرعة في الانتشار والتأييد.

بالطبع، جميع هذه التطوّرات والتبدلات، تستدعي سؤالاً كبيراً وخطيراً، يفرض نفسه، ولا بدّ من طرحه: أَوَليست هذه المجتمعات كلّها تسمى مسيحية، فأين روح المسيح فيها؟... في ماضيها؟... في حاضرها؟ وفي ما سيكون مستقبلها؟... وإني لأجد أنّ الحقيقة التاريخية المرّة تقتضيني الاعتراف الصريح بأنّ روح المسيح كانت من نصيب أفراد عمالقة هنا وهناك، أمثال "منصور دي بول" في فرنسا، و"كوتولينغو" في إيطاليا، فيما كانت جميع المؤسّسات بما فيها المؤسّسات الكنسية خاضعة للمنطق الذي سادها منذ أيام الإمبراطور قسطنطين، منطق سيادة السياسة والقوة والإقصاء... فكيف لمثل هذا المنطق أن يُفرز تفاهماً وتجانساً في مجتمعات، كانت تتفاقم فيها تناقضات سياسية ودينية وثقافية وعرقية وقومية، لا تُحصى؟ لا بل، جميع تلك المعطيات، والصراعات المحتومة الناجمة

عنها، ما كانت لتعطي سوى مزيد من التشكيك في صلاحية الأديان وصدقيّتها، بقدر ما كانت تخوّل العقل صلاحية البحث عن حلول ومخارج لتلك المعضلات المأساوية والشاملة. وهذا بعينه ما كان يحرّك الفكر في القرن الثامن عشر الفرنسي، عند فولتير وروسو وديدرو وسواهم من المفكرين، الذين نأوا بأنفسهم عن كل تفكير ديني، وباتوا يبحثون في رحاب العقل عن أجوبة. وإن ذلك ليفسّر إلى حد بعيد ما أصاب الإيمان المسيحي عامة من ضعف وغياب، بل وخجل! وهو هو الذي يفسّر أيضاً النهوض اليهودي آنذاك، في مواجهة مزدوجة مع اليهودية ذاتها، إيماناً ورجاءً متجدّداً، ومع المجتمعات المحيطة بها والمناوئة لها، تحدّياً وتحرّراً.

1) **اليهودية في مواجهةٍ مع ذاتها**

ظنّ الكثيرون من الباحثين والمؤرّخين، أنّ مرحلة تحرّر اليهود، سياسياً واجتماعياً، إنما جاءت نتيجةً حتميّةً للثورات الكبرى التي حدثت في كلّ من فرنسا عام 1789، وقبلها في الولايات المتحدة عام 1776. ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ الكثيرين منهم كان قد فاتهم أنّ هذه المرحلة بالذات، كانت قد عرفت من الجانب اليهودي، مرحلة انصهار واسع في المجتمعات، بفعل الثورة الثقافية والدينية، العميقة، التي كانت قد طالت اليهودية برمّتها، في زمان سبق بكثير، تينك الثورتين المعروفتين. وفي الحقيقة، كانت تصدّعات كثيرة قد أخذت تظهر قبل ذلك بكثير، في جدار العزلة الدائمة التي كانت اليهودية قد فرضتها على ذاتها، طوال مئات السنوات، في المجتمعات الغربية كلّها. إلا أنها لم تبرز للعيان إلا خلال القرن الثامن عشر.

كان روّاد حركة الاندماج يقيمون في برلين، عاصمة بروسيا آنذاك. وكان بعض المثقّفين اليهود يحظون بحماية بعض المسؤولين

السياسيين. وكانوا يَدعون في حماس، للمشاركة الفعلية في ما كان يحيط بهم من حياة عامّة وثقافة، مغرقتين في المسيحيّة والجرمانية في آن واحد، في سعي منهم للانعتاق من بيئة "الغيتو" الخانعة، وللحصول، شيئاً فشيئاً، على المساواة الثقافية والسياسية. ولقد قاوم هؤلاء الثوريّون، القبضة الحديدية التي كان الحاخامون يُحكمونها على الفكر اليهودي، بتركيزه حصراً على الدراسات التلمودية. فواجهوا مقاومةً شرسةً من قبل التقليديين، الذين كانوا يرَون أنّ الاختلاط بالعالم الخارجي، من شأنه أن يجرّ معه خطراً على الإيمان، إذ كانوا يرَون أنّ المشاركة في الحضارة المسيحيّة، إنما هي ضربٌ من الخيانة. والحقيقة أنّ مخاوفهم ما كانت لتخلو من صحّة. والدليل على ذلك أنّ الكثيرين من اليهود كانوا قد انضمّوا خلال "حقبة الرعب"، إبان الثورة الفرنسية، إلى الثوار، وانتهى بهم الأمر إلى التنكّر لكل إيمان، باستثناء إيمانهم... بالعقل! ولقد حدث أيضاً، بعد سنوات قليلة، أن تخلّى الكثيرون من المثقّفين اليهود، في برلين، عن إيمانهم، واعتنقوا المسيحيّة، لأنّ الإيمان بالكنيسة كان قد أصبح، في تلك الفترة، هوَساً يسرق ألباب الكثيرين! وبهذا الصدد، كتب المؤرّخ "هوجو فالنتان"، في كتابه "اللاسامية"، الصادر في لندن عام 1836، يقول:

« خلال الثمانية عشر سنة الأولى من القرن التاسع عشر، مُنح العماد لليهود في ألمانيا، أكثر ممّا مُنحوه طوال ثمانية عشر قرناً ».

في هذا الكلام مبالغةٌ فاضحةٌ دون أدنى شك. ولكن ما حدث للشاعر الألماني "هنري هاين"، ليس ببعيد عن هذا الرأي، إذ قد صرّح هو نفسه عن نفسه، أنه "نال العماد، ولم يهتدِ، لأنّ اليهودية ليست بديانة، بقدر ما هي مأساة".

ومن المثقّفين اليهود آنذاك، من حاولوا التوفيق، في جهدٍ دؤوبٍ وصادق، بين الأمانة للشريعة الموسويّة، والوفاء للثقافة العامة في بلده. وقد يكون أبرز هؤلاء، المفكر اليهودي "موسى مندلزون" (Moses Mandelsohn) (1728-1786)، إذ إنه كان يمثّل خروج إنسان من الفقر المدقع، الذي عاشه في "غيتو" مدينة "ديساو"، بما وُهِب من طاقات شخصيّة، ارتقى بها إلى أعلى القمم في عالم الثقافة الألمانية، حتى أنه بات صديقاً حميماً للفيلسوف الألماني "غوتولد ليسينغ" (1729–1781). وقد اشتهر أيضاً في أنه تغلّب على الفيلسوف الألماني الشهير "عمانوئيل كانت"، في إحدى المسابقات الفلسفية. كما عُرف عنه أنه بلغ من التأثير في الأوساط الثقافية الألمانية، ما جعل المسيحيين واليهود منهم على السواء، يعيدون النظر في العلاقات التي كانت، حتى ذلك الحين، سائدةً في ما بينهم. وقد كانت ترجمته إلى اللغة الألمانية، لكتب التوراة والمزامير، حدثاً ثقافياً بارزاً، يرى بعضهم أنه بنى جسوراً بين الثقافتين العبرية والألمانية.

كلّ ذلك ما كان ليشكّل تحدّياً قويّاً، يطلقه اليهود في وجه الوسط الثقافي الألماني، بقدر ما كان دعوةً صريحةً له، كي يعترف بالتوراة مرجعاً أدبيّاً ومصدراً للإيمان. إلا أن هذه الترجمة أحدثت صدمة وإحباطاً لدى اليهود المتشدّدين، فمُنعت من التداول. ولكنها وجدت أيضاً من يرحّب بها بحرارة، من صغار الشبان المثقّفين اليهود، وأخذوا بما حملت من تجديدات في اللغة والأفكار، فألّفوا جمعية ثقافية، ترمي إلى توثيق العلاقات بين الثقافتين، وذلك بالعمل على تطوير الأدب العبري من جهة، وعلى تطوير المناهج التربوية اليهودية من جهة ثانية. وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن

"منـدلزون" نفسـه كـان مَـن أقنـع مستشـار الدولـة في ألمانيـا آنـذاك، المسيحي "ويلهلم دوهْم" (Wilhelm Dohm)، كي يتبنّى قضية تحريـر اليهـود. فكـان أن نشـر "دوهـم"، وهـو في موقعـه كمستشـار دولـة، عـام 1781، كتيّباً بعنـوان "في الإصلاح المدني لليهـود"، يحمّـل فيـه العـالم المسيحي، مسؤولية تخلّف اليهود، وجمودهم الاجتماعي.

2) **التحرر السياسي، هنا وهناك...**

في العـام التـالي، أصـدر إمبراطـور النمسـا، "جوزيـف الثـاني" (1765–1790) "قـرار التسـامح"، فـألغى فيـه "شـارة العـار"، والضـريبة الشخصـية، والعقوبـات الأخـرى الملحقـة، ومـنح اليهـود حـقّ الـدخول في المـدارس والجامعـات، وأمـر فيـه أيضـاً المـدارس العبريـة بتـدريس اللغـة الألمانيـة، ومـواد أخـرى غـير دينيـة. فقـاوم اليهـود المتشـدّدون بشراسـة هـذه البنـود المتعلّقـة بالتـدريس الجديـد، في حـين أنّ مؤيّـدي "منـدلزون" دعموهـا بإصـرار. وهنـا، لا بـدّ مـن الإشـارة إلى أنّ حركـاتٍ مماثلـةً كانـت قـد قامـت عـام 1734، في كـلّ مـن مقـاطعتي "الإلـزاس" و"توسـكانيا"، وفي انجلـترا بالـذات، مـن أجـل تحريـر اليهـود، إلاّ أنهـا أُخمـدت علـى الفـور، نظراً للمقاومة اليهودية الشديدة التي واجهتها.

أما في الولايات المتحدة، فلا بدّ من الاعتراف بأنّ الحرية الدينية كانـت قـد أُعلنـت، إبـان صـدور بيـان التأسـيس، في "رود آيلانـد" عـام 1688. إلا أن بيـان التحـرّر القـانوني، الأول والكامـل، لم يُعلـن في الولايـات المتحـدة الأميركيـة، إلا عـام 1776، بعـد التوقيـع علـى إعـلان الاستقلال. ولقد جاء فيه أن البشر كلّهم متساوون، وأنهم يتمتّعون بحقـوق لا يجـوز لأحـد المسـاس بهـا. إلا أنـه لم يكتمـل إلاّ عـام 1789، إبان إقرار الدستور وتعديلاته، التي ألغت ضرورة إجـراء فحـص ديني،

لكل مواطن يريد الحصول على حقّ المواطنة، أو حقّ المطالبة بعمل.

إلاّ أن المشروع الذي اتّسم بأعظم قدر من الجرأة والوعي، وكان الأوّل من نوعه في أوروبا، كان ذاك الذي أعلنه قادة الثورة الفرنسية عام 1789. وإنّ التصريح الصارخ، الذي ورد في إعلان حقوق عام 1789، والذي كان يعني بالدرجة الأولى، الحرية الدينية، كان لا يستبعد اليهود، إلا أنه لم يكن ليذكُرهم بالاسم. وكان اليهود، في واقع الحال، غير مرتاحين إليه، بفعل حذرهم الشديد من كلّ تصريحاتٍ عامّة حول الحريات. وكانوا قد بذلوا جهوداً مضنيةً، طوال سنتين كاملتين، من أجل الإلغاء القانوني للقيود التي كانت قد فُرضت عليهم في السابق، ومن أجل المطالبة بالمساواة الكاملة في الحقوق المدنية. ولقد واصلوا جهودهم، حتى أنهم رفعوا قضيّتهم إلى الملك "لويس السادس عشر"، وإلى العديد من لجان الثورة الفرنسية. وكان لهم فيها مؤيّدون بارزون، أمثال "ميرابو" و"الأب غريغوار" و"روبسبيير"! ولكنهم كانوا أيضاً قد واجهوا معارضات كثيرة، اشترك فيها يهود من مقاطعة "الإلزاس" الشرقية، ومن مدينة "بوردو"، ومن باريس، كما اشترك فيها أيضاً أساقفة ومسؤولون كنسيّون. وأخيراً كان لهم ما أرادوا في شهر أيلول من عام 1791. وعندما ظهرت بوادر انجرار الثورة الفرنسية في ركاب النزعات التسلّطية، ثمّ الإمبراطورية، التي تجلّت في شخص "بونابرت"، سُرّ الكثيرون من اليهود من هذا النهج الجديد، وانخرطوا مع الجيوش الفرنسية في اجتياح هولندا وبلجيكا وإيطاليا، حيث دمّروا وأحرقوا أبواب كلّ من "غيتو" مدينة البندقية، ثمّ مدينة روما، حيث اعتُقل البابا "بيوس السادس" كأسير حرب.

يومها، كان "نابليون بونابرت" في ذروة المجد، فأراد أن يضع حدّاً

نهائيّاً "لمسألة اليهود"، العالقة منذ مئات السنوات. وكان على دراية بتاريخهم الماضي، وبتعقيداته الواسعة، سواء داخل المجتمعات اليهودية أو خارجها، على نطاق البلدان الأوروبية كلّها. ولم يكن أحد يجهل أنّ لنابليون عدداً من المستشارين والمقرّبين من اليهود الفرنسيين، بينهم السياسي ورجل الأعمال، والباحث والحقوقي والصحفي. وقد قرّر، على طريقته الخاصة، أن يحسم "المسألة اليهودية" على نحو نهائي، بحزم مَن يملك القدرة الوحيدة كلّها. فأصدر سلسلةً من القرارات، بدت للكثيرين، غريبةً، إن لم تكن مستحيلة. وكان أولها ضرورة عقد مؤتمر عام يضمّ مندوبين من جميع اليهود المقيمين في فرنسا، وفي البلدان الأوروبية الخاضعة لها، من أجل التداول في جميع الشؤون المتعلّقة باندماجهم الكامل في المجتمعات الأوروبية، بدءاً من فرنسا. وقد عُقد المؤتمر المذكور في باريس، عام 1806، وطلع بالقرارات المتوقعة، وفقاً لرغبة وإرادة الإمبراطور نابليون.

ثمّ تقرّر عقد قمّة يهودية من نوع جديد واستثنائي، يعيد إلى الوجود "الهيئة اليهودية العليا"، المسمّاة "سنهدريم"، التي كانت قد تلاشت مع سقوط القدس عام 70، بيد الجيوش الرومانية. وقد بدا هذا الأمر مستحيلاً للكثيرين، لأنه يحتاج إلى سلطة دينية عليا، تدعو إليه، وهي غير موجودة!... إلا أنّ "السنهدريم" عُقد عام 1807، وضمّ عدداً كبيراً من الحاخامات والشخصيات اليهودية. وأقرّ، كما لو كان يملك السلطة الدينية العليا في اليهودية، جميع المبادئ التي كان مؤتمر عام 1806 قد اعتمدها، والتي كانت ترمي إلى منح اليهود الحقوق العائدة إليهم، والواجبات المترتّبة عليهم، بوصفهم مواطنين فرنسيين، أسوةً بسائر المواطنين. وكان "السنهدريم" يضفي

بذلك على القرارات كلّها، ضمانة دينية أساسية، ولا رجعة عنها. وبالطبع، لم تكن مثل هذه المبادرات، التي كان يظلّلها نابليون بكامل سلطته، لتدخل حيّز التنفيذ دون مواجهات كلاميّة، هنا وهناك. إلا أنها في نهاية المطاف، جاءت استجابة لحاجة وجودية وإنسانية، عمرها قرون طويلة من القهر والقتل، والتشرّد والتيه!...

ولقد اتضح بمرور الزمن، أنّ إجراءات نابليون هذه، كانت هي في الحقيقة، على ما تخلّلها من إملاءات وارتجالات وتمنّعات، الحاسمة في وضع الحدّ النهائي لهذه المسألة التاريخية، المسمّاة "المسألة اليهودية"، في فرنسا أولاً، ثمّ في البلدان الخاضعة لها في عهد نابليون، ومن ثمّ في سائر البلدان الأوروبية، بل حتى في روسيا القيصرية. والدليل على ذلك أنها لم تسقط بسقوط نابليون عام 1815، حتى أنّ النظام الملكي الجديد في فرنسا عام 1815، احتفظ بها وثبّتها. إلا أنّ استمرارها في سائر البلدان الأخرى، واجه ظروفاً وتقلّبات، كانت أشبه بما تواجه سفينة في قلب العاصفة، وهي تمخر البحر الصاخب في اتجاه منارة المرفأ. وعلى الرغم من كل ما كان قد تراكم عبر التاريخ من أحقاد متبادلة بين اليهود والمجتمعات التي عاشوا فيها، وعلى الرغم ممّا كان يسود هذه المجتمعات أيضاً من أحكام مسبقة، محقّة أو ظالمة، اتسمت بها نزعة اللاسامية المتأصّلة فيها، وعلى الرغم أيضاً من كل ما كان يُكتب هنا وهناك، إن في فرنسا، أو في بروسيا، أو في النمسا، أو في سويسرا، أو في إيطاليا، أو في المقاطعات الخاضعة لسلطة البابا، فقد كانت الحركة التي كان نابليون بونابرت قد أطلقها، تواصل انتزاع الولاءات لها، فترةً تلو أخرى. فكانت هولندا أولاها عام 1830، وتبعتها النمسا عام 1833، ثم البلدان الاسكندنافية عام 1834، فسويسرا عام 1838، فبروسيا عام

1853، على الرغم من تنامي اللاسامية فيها من خلال فلاسفتها "يوهان فيخته" (1762–1814) و"فريدريش شيلينغ" (1775–1854)، و"فريدريش هيجل" (1770–1831)، ومن ثم انجلترا عام 1858، وحتى روسيا القيصرية عام 1878.

وهنا تستوقفنا واقعتان، تنطويان على دلالات تاريخية هامة، بعضها مفرح ومريح، يخصّ بلداً أوروبياً صغيراً، يُدعى البرتغال، وبعضها محزن ومقلق، يخصّ إيطاليا وعاصمتها روما. ففي البرتغال، حيث كان تأثير الكنيسة ضعيفاً، استطاعت القوى السياسية المؤثّرة فيها، أن تجعل هذا البلد الصغير ينحو من تلقاء ذاته، المنحى الذي قام في فرنسا، بحيث سبق جميع البلدان الأوروبية في تبنّي الإجراءات الفرنسية، فمنح اليهود الذين فيه، منذ العام 1811 جميع الحقوق المدنية، وسلّمهم في مبادرة عظيمة الرمزية، مفتاح الكنيس الكبير الذي كان لهم في العاصمة ليشبونة، والذي كان قد مضى على إغلاقه، مائتا عام!

وأما في إيطاليا، فقد مُنح اليهود فيها حقوقهم المدنية، في ما يشبه التنازلات القسرية. فكانت جزيرة "سردينيا" السبّاقة في هذا الميدان عام 1848، ثم تبعتها مناطق الشمال الإيطالي، ثم جزيرة صقلية، فمدينتا "نابولي" و"البندقية". وجاءت في الطور الأخير مدينة روما، حيث كان البابا "بيوس التاسع" (1846–1878)، الذي بدأ عهده ليبرالياً حيال اليهود، ثم عاد في تشنّج إلى نظام العقوبات القديم، وأبقى على "الغيتو"، لا بل أقدم على إرغام اليهود مجدّداً، على حضور العظات المسيحيّة، أملاً منه في هدايتهم إلى المسيحيّة. وقد ظلّ يعمل بهذا النظام القاسي، حتى استيلاء الثوار الإيطاليين على مقاطعات الكنيسة كلّها، واحتلالهم روما عام 1870.

3) **ثورة اقتصادية**

لم يكن للأحداث السياسية، على أهميتها، الدور الوحيد في تحرير اليهود، ذلك بأنّ الثورة الاقتصادية التي كانت قائمة آنذاك، كان لها، في واقع الحال، دور حاسم في كل ما حدث. وما كان هذا التطور ليغيب عن معظم الباحثين والمؤرّخين. ولقد كتب أحدهم، وهو "ابراهام ساخار" يقول:

« إنّ المساواة السياسية التي نالها اليهود، وجدت ما يدعمها في التطورات الاقتصادية، على نحو يفوق بما لا يُقاس، ما تحقّق لها من جراء النظريات البرّاقة، المتعلّقة بحقوق الإنسان، وبقدسية الشخصية الإنسانية. »

كان الفضل للثورة الاقتصادية في خروج اليهود شيئاً فشيئاً، من عالم "الغيتو"، ليدخلوا من ثم في عالم تعتمل فيه الثورة الصناعية، التي فتحت معها آفاقاً غير متوقّعة من التطور المادي والاجتماعي. ولكم تميّزت تلك الفترة بالقسوة، من جرّاء التنافس الشرس الذي اتّسم به الوضع الاقتصادي الجديد. ولقد تمكّن اليهود من خوضها بثقة وصلابة، كانوا قد اكتسبوها طوال صراعاتهم، الماضية، المتكرّرة والمريرة. فتميّز عدد منهم، حتى جاء يوم أصبحوا فيه أعضاء مرموقين في مختلف الشركات التجارية والمالية. بل قُيّض لبعضهم أن يحقّقوا تفوّقاً سريعاً في هذين الميدانين المترابطين. فكان أن برزت في معظم البلدان الأوروبية، أسماء يهودية احتلّت في بعضها مراكز مرموقة، بفضل الدعم القوي الذي وفّرته لهم أسرة "روتشيلد" الشهيرة. إلاّ أنّ هذا النجاح ظلّ في معظم الأحيان، وقفاً على أفراد، فما كان له أن يسهم في تحقيق حلم التحرّر الاقتصادي والسياسي العام، الذي كانوا يسعون إليه. ومع ذلك، فإنّ مثل هذا

التطور السريع لم يعتّم أن أفرز تهمةً جديدة ضدّ اليهود، تفوق بحجمها وأبعادها، جميع التهم التي أُلصِقت بهم في الماضي، وهي تقول بوجود مؤامرة يهودية كونية على العالم بأسره.

ما من شك أنّ انتشار اليهود الواسع في معظم البلدان من جهة، وتضامنهم الاستثنائي من جهة ثانية، قد سهّلا كثيراً هذا الحضور اليهودي القوي في الميدانين المالي والتجاري. ولقد عرفوا، على عادتهم، أن يستثمروا هذين العاملين الهامّين، بمنتهى الدراية والحنكة، فوجدوا في أعداء الأمس، من رأسماليين مسيحيين، مَن يتقبّلونهم ويتعاونون معهم، بل ويقدّرون نشاطهم وفعاليّتهم. إلاّ أنّ أثقال الماضي عادت، حتى من خلال هذه النجاحات، فأحدثت توتّرات بينهم من نوع جديد، إذ أخذ المسيحيّون يستشعرون في اليهود المتعاملين معهم "فاتحين متغطرسين، يقتحمون عليهم مجتمعاتهم"، حسب تعبير أحد الباحثين... ولقد غذّى هذا الشعور الجديد، تربة اللاسامية الخصبة، المتأصلة في العديد من دعاة الاشتراكية في ألمانيا آنذاك، أمثال "كارل ماركس" (1818–1883)، و"فرديناند لاسال" (1825–1864)، و"برونو باور" (1809–1882).

ومن الباحثين مَن يرى أنّ معظم اليهود الذين أتيح لهم أن يدخلوا في تيّار التحرّر الاقتصادي، أو في صفوف الرأسماليين، كانوا أصلاً ينتمون إلى الطبقة الكادحة، وإلى بيئات "الغيتو" البائسة، فسعوا إلى إنشاء تجمّعات عماليّة أو نقابية، أو هم انضمّوا إلى التجمعات القائمة والناشطة تحت لواء الاشتراكية الجديدة، حتى لو تمّ ذلك على حساب تخلّيهم عن يهوديّتهم. وكان لمشاركتهم الفعلية في الحركتين، تأثير لا يُستهان به، إلاّ أنه لا يجيز لأحد أن ينسب إليهم الفضل في إنشاء هاتين الحركتين. ومع ذلك، فقد وفّر

حُججاً جديدة، ذات طابع اقتصادي ووطني، استخدمها دعاة اللاسامية في حربهم ضدّ اليهود، تلك الحرب التي ما عتّمت أن تأجّجت في القرن التاسع عشر. وبالطبع لم يكن هؤلاء يفتقرون إلى حجج من هذا النوع. ولكن ثمّة حدثان متباعدان جداً في المكان والزمان، قد عادا فألهبا المشاعر المتأجّجة ضدّ اليهود في العالم كلّه. إلاّ أنهما أحدثا في الوقت نفسه، هبّة من التعاطف مع اليهود، والرعاية لهم، شارك فيها على نحو قوي وفعّال، عدد كبير من الشخصيات والمنظمات اليهودية.

أوّل هذين الحدثين جرى في دمشق، عام 1840. ذلك بأنّ كاهناً فرنسيسكانياً، يُدعى توما، كان قد اختفى بالقرب من الحي اليهودي، أو فيه، حسب الروايات، فسَرت التهمة بسرعة البرق، بأنّ اليهود قد اختطفوه وقتلوه. بالطبع، اتّخذت مختلف الإجراءات بهذا الشأن، ومنها اعتقال عدد من اليهود الدمشقيين. وأُجريت التحقيقات معهم. وكان أن تحوّلت قضية المعتقلين اليهود إلى ما يمكن وصفه بفضيحة دولية، تدخّل فيها... ملك فرنسا آنذاك "لوي فيليب" (1830–1848)، والبرلمان البريطاني... ومستشار النمسا "ميترنيك" (1773–1859)... وحتى باشا مصر!... واهتاج الرأي العام العالمي، وعُقدت تجمّعات احتجاج واسعة في... نيويورك وفيلادلفيا، في الولايات المتحدة، وفي... لندن! وكان أن قدم إلى دمشق، وفد يهودي، يرأسه "اللورد البريطاني، اليهودي "موسيس مونتيفيوري"، ويضمّ محامياً مشهوراً يدعى "ادولف كريميو"، ومستشرقاً معروفاً يدعى "سالمون مونك". وطالبوا بإعادة النظر في الدعوى، فجوبهوا برفض حاسم من قبل قنصل فرنسا المقيم في دمشق. فتوجّه الوفد إلى القاهرة، حيث طلبوا من الباشا، حاكم مصر، التدخّل من أجل إطلاق سراح التسعة

الموقوفين، المتبقّين في سجن دمشق! واستُجيب لهم بعد فترة وجيزة، إذ صدر من الباب العالي في استنبول، فرمان يبرّئ يهود دمشق من تهمة قتلهم الأب "توما"، ويعتبرها مجرّد فرية. وقد جاء في هذا الفرمان أنّ الباب العالي يضمن حقوق اليهود المدنية في الإمبراطورية العثمانية كلّها. وبذلك حقّق هذا الوفد نجاحاً باهراً، وشحن اليهود في أصقاع الأرض كلّها، بمزيد من الثقة في قدرتهم على التأثير لاحقاً على كل ما يتعلّق بشؤونهم!

وأما الحادث الثاني، فقد عُرف بما سمي "مسألة مورتارا".

بدأت هذه المسألة عام 1858، بإقدام بعض رجال شرطة البابا في روما، على خطف طفل يهودي في السابعة من عمره، يُدعى "ادغار مورتارا"، لأنّ مربّيته المسيحيّة كانت، في غفلة من أهله، قد عمّدته! وباءت جميع جهود الأهل باستعادة ابنهم بالفشل. وسنة إثر سنة، انتهى الأمر بادغار هذا إلى أن أصبح واحداً من حرّاس البابا "بيوس التاسع"، الذي كان يوليه عناية خاصة. وأخيراً عِيل صبر الأهل، فاستنجدوا بملك إيطاليا "فيكتور عمانوئيل الثاني"... وكان "ادغار" في هذه الأثناء قد التحق بإحدى الرهبانيّات، ثم أصبح كاهناً، وأراد أن يكون كاهناً كلّ همّه أن يقود اليهود إلى المسيحيّة. وقد أثار نشاطه جدالاً واسعاً وصاخباً في الأوساط المسيحيّة كلّها، امتدّ من روما إلى... روسيا... فالولايات المتحدة! وانقسم الرأي العام، بين مؤيِّد في الأوساط الكاثوليكية في جميع هذه البلدان، ومعارِض في الأوساط اليهودية والبروتستانتية! وكان أن تدخّل كبار المسؤولين السياسيين في هذه البلدان، في هذه المسألة. فأرسل كلّ من "كافور" في سردينيا، ونابليون الثالث في فرنسا، والإمبراطور "فرنسوا جوزيف" في النمسا، احتجاجاتهم إلى البابا في روما. وقام اللورد

"مونتيفيوري" إيّاه بزيارة إلى البابا "بيوس التاسع". فكان رفض البابا قوياً وعنيداً: "لا نستطيع"... وقد رأى بعض المؤرّخين والباحثين، أنّ هذه القضية كانت السبب المباشر في إنشاء تجمّع يهودي عالمي جديد، عام 1860، تحت اسم "الاتحاد الإسرائيلي العالمي" (l'Alliance Israélite Universelle). ويرى بعض المؤرّخين أن هذا التنظيم هو الذي كان وراء خروج المقاطعات الإيطالية، التي كانت تابعة لسلطة البابا في روما، عن سلطة البابا على نحو نهائي.

4) **اللاسامية في روسيا**

هذه الحركة التحرّرية التي طالت اليهود في البلدان الأوروبية، ظلّت بعيدة عن روسيا القيصرية، علماً بأنها كانت تحتوي ضمن حدودها الشاسعة، نصف اليهود المتواجدين آنذاك في العالم. والحقيقة أنّ روسيا عرفت منذ مطلع دخولها التاريخ، نظاماً استبدادياً، يتوكّأ على ركنين أساسيين، أولهما هو النزعة السلافية الشاملة، وثانيها هو الرضوخ التام للكنيسة الأرثوذكسية. وقد كانا كلاهما في أصل سياسة الحذر الشديد، أولاً إزاء التأثير الأوروبي والحضارة الأوروبية، ثانياً إزاء اليهودية ونزعتها التهويدية. ولذا كان يُحظّر منذ مئات السنوات، على أيّ يهودي الدخول إلى روسيا الوسطى، أي إلى ولاية موسكو، تحت طائلة عقوبة صارمة. وكانت فرص منحهم حقّ الدخول إليها، قد تلاشت منذ أن استطاع بعضهم، في القرن الخامس عشر، في عهد "ايفون الثالث" (1440–1505) أن يصلوا إلى مدينتي "نوفغورود" و"موسكو"، وقد حاولوا آنئذٍ أن يَهدوا السكان إلى اليهودية. ثم كان أن تشكّلت منهم بدعة متهوّدة، تسلّل منها بعضهم إلى صفوف رجال الكنيسة، وإلى صفوف النبلاء، حتى عُرف منهم رئيس أساقفة موسكو، المدعو

"سوسيما". فما أن كُشف أمرهم، حتى عُقد مؤتمر كنسي، أنزل بهم عقوبات، قضت على بعضهم بالحرق أحياء، وعلى آخرين بالسجن. وقد نجم عن هذا الانزلاق الخطير، مضاعفة مخاوف الروس من تأثير اليهود على الإيمان والمجتمع. وقد رُسمت منذ ذلك الحين معالم سياسة متشدّدة، بقصد السهر على استبعادهم. وقد التزم جميع حكّام روسيا بهذه السياسة الإقصائية، باستثناء "بطرس الأكبر"، الذي وافق على تواجدهم في جميع المقاطعات، وقد عُرف عن الإمبراطورات اللواتي خلفْنَه على كرسي روسيا، أنهنّ كنّ متشدّدات جداً في نزعتهنّ اللاسامية. وقد عبّرت عن شعورهنّ جميعاً، الإمبراطورة "اليزابث" (1741–1762)، يوم سُئلت السماح لليهود بدخول هذه المناطق لأغراض تجارية، فجاء جوابها قاطعاً كالسيف: "لا أرضى بالحصول على أيّ مكسب من أعداء المسيح!".

وفي عام 1772، قُسِّمت بولونيا ما بين روسيا وبروسيا والنمسا. وشاءت سخريات القدر لروسيا أن تحكم، بموجب هذا التقسيم، أكبر تجمّع لليهود في العالم آنذاك. وبدل أن يضع هذا التطوّر السياسي الطارئ، حداً لسياسة استبعاد اليهود السابقة، فقد نجمت عنه سياسة جديدة، أرغمت اليهود على العيش في ما سمّي "مقاطعات السكن"، وهي المناطق المكتسبة حديثاً. وقد تكرّرت سياسة الاستبعاد هذه في عهد الإمبراطورة "كاترينا الثانية" (1762–1796)، التي كانت في الوقت نفسه تدعو جميع الغرباء، "باستثناء اليهود"، للسكن في روسيا الوسطى. وقد ظهرت هاتان الكلمتان مراراً في التشريعات اللاحقة، إذ كان اليهود يخضعون حتى في مناطق السكن الجديدة، لإجراءات قمعية ولضرائب إضافية باهظة. فعمد الكثيرون منهم إلى أعمال جديدة، كان في طليعتها فتح

فنـادق صـغيرة للمسـافرين، وحوانيـت للمشـروبات الكحوليـة، في المناطق الريفية. ولكنّهم سرعان ما أُرغِموا على العيش مجدّداً في المدن التي كان البولونيون قد طردوهم منها، في الفترات السابقة.

وفي القـرن التاسـع عشـر، واجهـت روسـيا القيصـرية "المسـألة اليهودية" مرة أخرى، ولكنّها، آنذاك، كانت قد اتّخذت بُعداً خطيراً. فقد اتّضح يومها أنّ النزعة السلافية الشاملة لدى الروس، كانت تواجه، لدى اليهود، نزعة متشدّدة، لا تقلّ عنها تحدّياً ورفضاً. وكان يُنظَر إلى اليهود الشرقيين، المقيمين في روسيا، مقارنة باليهود في البلدان الأوروبية، على أنهم جَهَلة وعُصاة على أي تبدّل، سواء ما كان منه يخصّ البيئة المحيطة بهم، أو حتى اليهودية بالذات. وقد انتهى الأمر بالمسؤولين الروس إلى أنّ الحلّ الوحيد المتبقّي لهذه "المسألة اليهودية" المستعصية، هو إكراه اليهود على أن يصبحوا "روساً"، بما كانت تعنيه هذه الكلمة ضمناً، من اعتناقهم المسيحيّة! وقد اتُّخذت في هذا السبيل، سلسلةٌ من الإجراءات، ولكنها كثيراً ما كانت تأتي بنتائج عكسية.

وقد أُجريت في روسيا أبحاث ميدانية، عام 1800، بيّنت أنّ ما كان يسمّى "طفيلية اليهود الاقتصادية" - الناجمة عن كون العديد منهم يقومون بدور الوسطاء التجاريين - والنزعة التلمودية المتأصّلة فيهم، كانتا في أساس نشوء هذه المسألة، واستعصائها على الحلّ. وانتهت هذه الأبحاث إلى اقتراح "علاج" بشقّين، أوّلهما يعتمد إصلاحات اقتصادية قد تسرّع في تطورهم الاجتماعي، وثانيهما يدعو إلى إعادة النظر في مناهج تعاليمهم الدينية... وبالفعل، بُذِلت جهودٌ طفيفة، خلال حكم القيصر الليبرالي "اسكندر الأول" (1801-1825)، كانت ترمي إلى حمل اليهود على التخلّي عن

أدوارهم كوسطاء تجاريين، وإلى توجيههم نحو الزراعة والصناعات اليدوية، كما كانت ترمي إلى قطع الطريق أمام هيمنة الحاخامين، باعتماد مناهج جديدة في التعليم، وبفرض رقابة حكومية على المدارس الدينية. وكان القيصر الروسي يريد حقّاً تحريرهم التام، وتسهيل اندماجهم التام في المجتمعات الروسية، حيثما وجدوا. وكان يرتاح إلى وزير لديه يدعى "سبيرانسكي"، كان من الروس القلائل الذين يحبّون اليهود، وكان يؤكّد للقيصر على ضرورة تحريرهم الاجتماعي. ولكن هذا القيصر غيّر موقفه إزاء اليهود، بعد هزيمة نابليون عام 1815، فعاد إلى السياسة المألوفة في الإبقاء على القيود المفروضة على اليهود، وعلى ضرورة إبقائهم في مناطق السكن المخصّصة لهم.

وفي عهد خلفه، القيصر "نيقولاوس الأول" (1825–1855)، بلغ اليهود أسفل القاع من أوضاعهم الاجتماعية والإنسانية. فقد كان القيصر الجديد شديد الكراهية لكلّ ما ليس بروسي، فأصدر المئات من القوانين التي كانت ترمي إلى التضييق على اليهود. ولقد تجاوز في نهجه هذا، حدّ المعقول، فأصدر عام 1827 أمراً فرض بموجبه الخدمة العسكرية على كل طفل يهودي من سن الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة! وقد قضى هذا الأمر بنقل جميع هؤلاء الأطفال إلى أقاصي الأراضي الروسية، حيث كانوا يخضعون لشتّى أنواع التعذيب والقهر، بقصد حملهم على التنكّر لإيمانهم. والمعروف أنّ عدداً لا بأس به، لم يُطقْ كل هذا التعذيب فأنكر الإيمان، إلاّ أنّ الغالبية عرفوا أن يصمدوا، فعادوا أكثر تصلّباً ممّا كان عليه أهلهم من قبلهم.

وإزاء فشل هذه الإجراءات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، في وضع حدّ للانعزالية اليهودية، قرّر القيصر "نيقولاوس" أن يولي

موضوع التعليم الديني لليهود، أهمية قصوى. وكان بعض وزرائه يعتقدون أنّ "المسألة اليهودية" كلّها تقوم على ما كانوا يتلقّونه من تعليم، وأنه يتوجب بالتالي إعادة النظر كلّياً في هذا التعليم، كي يوضع حدّ نهائي لهذه المسألة. فأُحدِثت مدارس يتلقّى فيها التعليم، طلاب غير يهود، ممّن يحبّون روسيا حبّاً عظيماً، كي يكونوا نماذج يتعلّم منها الطلاب اليهود أن يتخلّوا عن مفاهيمهم وتقاليدهم المتحجّرة. فأغرت هذه الأساليب الثقافية والتعليمية الجديدة، العديد من اليهود الليبراليين، داخل روسيا وخارجها، إذ كانوا يأسَون لحالة اليهود الشرقيين البائسة. وتطوّع بعضهم في دوائر الحكومة من أجل تحقيق هذا النهج وتعميمه. إلاّ أنهم سرعان ما تراجعوا، يوم اكتشفوا أنّ الهدف الأبعد من كل هذا "الإصلاح"، إنما كان هداية اليهود إلى المسيحيّة. ومُنِي مشروع التعليم هذا، بدوره، بالفشل، لأنّ معظم اليهود في روسيا، إذ كانوا غارقين في تقاليدهم القديمة، لم يتفاعلوا مع النهج الجديد. فاتُّخذت بحقّهم إجراءات قمعيّة جديدة، زادت أوضاعهم سوءاً، ولكنها جلبت لهم تعاطفاً واسعاً خارج روسيا، تجلّى أوّل ما تجلّى، في مبادرة اللورد "مونتيفيوري"، إذ غادر لندن وسافر إلى روسيا، حيث قابل القيصر وزار بعض المدارس اليهودية، ولكن دون نتيجة تذكر.

وفي عام 1855، تسلّم مقاليد الحكم في روسيا القيصر "اسكندر الثاني" (1855–1881)، فكان عهده فاتحةً لأكثر العهود في روسيا، بعثاً للآمال والوعود، بالنسبة إلى اليهود. ونهج القيصر الجديد نهجاً ليبراليّاً، فحرّر ملايين الأقنان، وألغى الإجراءات القاسية التي كان سلفه قرّرها، وألغى تجنيد الفتيان اليهود، وشرّع أبواب المدارس الروسية، أمام بعض الفئات من اليهود. وكان بذلك يرجو وضع حدّ

نهائي للتقاليد القديمة، وإدخال روسيا كلّها، بما فيها اليهود جميعاً، في نهج الحياة الغربية. وقد تبيّن أنه لم يكن ينوي هدايتهم إلى المسيحيّة، بقدر ما كان يريد حملهم على الاندماج في المجتمع الروسي، ثقافياً وسياسياً وإنسانياً. وقد لوحظ أنّ قسماً من اليهود تقبّل هذا النهج الجديد بصورة تلقائية. وتجلّى ذلك في تطوّر فكري وثقافي، كان شبيهاً بما حصل في ألمانيا تحت تأثير النهج الذي ابتدعه المفكّر اليهودي "مندلزون". إلاّ أنّ هذا التطور الطارئ على اليهود الروس، قد أحدث، ردّ فعل صريحاً وواضحاً بين التقليديين من جهة، والتقدّميّين من جهة ثانية. وقد تبيّن في نهاية المطاف، أن المكاسب الناجمة عن إصلاحات القيصر، كانت هزيلة جداً، لا سيما وأن اليهود العائشين في "مناطق السكن"، لم يطرأ عليهم أي تطوّر. فأصيب القيصر بخيبة أمل، إزاء هزال النتائج التي انتهت إليها سياساته الليبرالية حيال اليهود. وكان، إلى ذلك، يُقلقه كثيراً اندفاع اليهود في الحركات التحرّرية والثورية، التي كان يخشاها. فكان أن أمر بالعودة إلى نظام سلفه القاسي بحقّ اليهود، فأُغلقت بعض المدارس اليهودية، وأُعيد العمل ببعض الإجراءات الصارمة السابقة، ومنها حظر ترفيع اليهود في رتبهم العسكرية، وفي الإدارات الحكومية.

وفي عام 1867، نشر يهودي روسي اعتنق المسيحيّة، ويدعى "جاكوب برافمان"، سلسلة من المقالات، اتهم فيها اليهود بتدبير مؤامرة عالمية ترمي إلى سيطرتهم على العالم المسيحي. فدفعت هذه التهمة الحكومة الروسية إلى اتخاذ المزيد من الإجراءات الرامية إلى تفكيك التضامن بين الجماعات اليهودية. ولكنها سرعان ما تحوّلت إلى حجّة كبرى باتت تغذّي اللاسامية المستشرية آنذاك،

إلى أن وجدت لها مرتعاً خصباً في ما بات يُعرف منذ عام 1919 بـ "بروتوكولات حكماء صهيون".

في هذه الأثناء، كان البلد الأوروبي الوحيد، الذي كان ينافس روسيا في الضغط على اليهود، هو "رومانيا"، إذ كان فيه قرابة مئتي ألف يهودي، يعيشون في ظروف تقارب بقسوتها أسوأ أيام القرون الوسطى. وما إن تحرّر من النير العثماني في مطلع القرن التاسع عشر، حتى انتشرت فيه إجراءات القمع اللاسامية على نطاق واسع. وقد طالت بادئ ذي بدء، الأعمال الحرّة والأحياء السكنية. ويومها، كان اليهود يشكّلون قسماً بالغ الأهمية من طبقة وسطى، في مجتمع كان تسعون بالمائة منه من الفلاحين. فكان يُنظر إليهم على أنهم منافسون خطرون للطبقة البورجوازية. وكان يُغذّي هذه الدوافع الاقتصادية، زخم عنيف من الروح القومية على الطريقة الروسية. وكان أن بلغت ضغوط اللاسامية ذروتها إبان عمليات الطرد التي مورست بحقّ اليهود، وأثارت من التهم ما تسبّب في مجازر جماعية مروّعة، طوال عام 1867، وخلال الأعوام اللاحقة. وقد أثارت هذه المجازر الجماعية، موجات من الاحتجاجات في الأوساط المسؤولة، في كل من فرنسا وانجلترا. كما أنها حملت رئيس الولايات المتحدة "يوليس غرانت"، على إرسال مندوب عنه إلى رومانيا، ليدافع عن اليهود. وقد باءت جميع هذه الجهود بالفشل. وفي أعقاب الحرب التي نشبت بين روسيا وتركيا عام 1877–1878، عُقد مؤتمر في برلين، تقرّر فيه، في ما تقرّر، أن تُمنح الحرية الدينية لجميع الأقلّيّات، في البلدان الموقّعة على مقرّرات هذا المؤتمر، وكانت رومانيا أحدها. إلاّ أنّ رومانيا تنصّلت من هذا الالتزام، وأبقت على اليهود لديها، خارج الحقوق المدنية، وظلّت ترهقهم بشتى القيود، خلال عقود كثيرة من القرن العشرين.

5) ما هو رصيد هذا التحرّر السياسي؟

إنّ مكسب التحرّر السياسي بالنسبة إلى اليهود في البلدان الأوروبية، لم يخلُ من وجوه سلبية. صحيح أنه كان دون أدنى شك، أحد أعظم الإنجازات والمكتسبات في تاريخ اليهود، إلاّ أنّه حمل لهم أيضاً خيبة كبيرة. ذلك بأنّ اليهود التقليديين، الذين بدأوا يخرجون في شيء من التخوّف والتردّد، من عالم "الغيتو"، كي ينالوا كامل حقوقهم المدنيّة في بلدانهم المختلفة، كانوا أكثر فطنة من أولئك الذين ظنّوا، فور حصولهم على هذه الحقوق، أنه من حقّهم أن يندفعوا دون رويّة، بل في طموح أعمى، مع تيارات الحياة السياسية والثقافية في أوروبا، ظنّاً منهم بأن مثالية محرّريهم السياسيين، كانت لا تختلف عن واقعهم التاريخي. ولكن سرعان ما تبيّن لهم أن أسس اللاسامية التقليدية، لم تتلاشَ كما بضربة سحرية بفعل القوانين المعلنة. فلقد كانت لاسامية جديدة تتقمّص أسسَ وأشكالَ اللاسامية السابقة. ففي حين كانت الأحكام اللاهوتية المسبقة تفقد من ثقلها، شيئاً فشيئاً، كانت الأحقاد القومية والاقتصادية والعرقية، تتنامى وتتعمّق وتنتشر. صحيح أن تهمة "قتل المسيح"، التي لاحقت اليهود طوال مئات السنوات، كانت تفقد من وقعها، ولكن ما حلّ محلّها من تهم، تطالهم في نشاطهم الاقتصادي، وتصفهم بالطفيليين العصاة على كل اندماج اجتماعي وإنساني، كان أكثر انتشاراً وتأثيراً، لأنه كان يمسّ لدى الناس عامة، المحرّك الأكبر في حياتهم، وهو الميدان الاقتصادي، ولدى اليهود خصوصاً، انتماءهم الأعمق من أي انتماء، وهو انتماؤهم الديني. وإزاء تصاعد موجات الحركات الوطنية في مختلف البلدان الأوروبية، ظلّت هوية اليهود، الدينية والثقافية، هي مرجعيّتهم الأساسية

والثابتة، وذلك في الوقت الذي كانوا ينافسون فيه، بتفوّق يكاد يكون عامّاً، سواهم من غير اليهود في هذه البلدان، على صعيد التطورات الصناعية والمالية. وكان ذلك بعينه يثير ضدّهم مزيداً من أحقاد جديدة وقديمة على حدّ سواء.

وكان لا بدّ لهم من العثور على إطار جديد، يجسّد تحرّكهم هذا، في الغياب المتفاقم للإيمان الديني في المجتمع الغربي. وكانت العقلانية والتشكيكية هما البديلان الطبيعيان لهذا الغياب الديني، فحلّتا تلقائياً في أسس اللاسامية العلمانية، التي تمادت في اتهام اليهود بتأصّل الشرّ فيهم، لمجرّد كونهم يهوداً، لا بسبب "قتلهم المسيح". ومن هنا كانت اللاسامية الجديدة، القائمة على أسس عقلانية وعرقية.

والحقيقة التاريخية تؤكّد لنا أنّ هذه اللاسامية العقلانية لم تكن بجديدة، إذ نرى جذوراً لها حتى في العهود الرومانية الأولى، يوم كانت الانعزالية اليهودية تنبع من يقينهم المطلق، وسط المجتمعات الوثنية المختلفة، بامتلاكهم المعرفة الإلهية وحدهم، دون سائر الشعوب جميعاً. وقد أتيت على ذكر بعضٍ من هذه الجوانب من المشكلة، في الفصول الأولى من هذا البحث. إلا أني أودّ هنا أن أذكّر بأحد أبرز مَن تصدّى لليهود يومذاك، وهو الفيلسوف الروماني "سلسيوس"، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، والذي هادنهم بادئ الأمر، ثم هاجمهم بالعنف نفسه الذي هاجم به المسيحيّة. وكان بذلك النموذجَ الأول لكل من يعادي اليهود على أسس عقلانية. إلاّ أنّ هذا النموذج العقلاني غاب شيئاً فشيئاً حتى تلاشى كلّياً، أمام تصاعد الهجمات اللاهوتية المسيحيّة ضدّ اليهودية، والتي غذّت على نحو متواصل، لاسامية هذه القرون كلّها،

حتى منتصف القرن السابع عشر. وعندها حدثت المفارقة الكبرى، إذ بدت العقلانية الفلسفية، على الرغم من نبذها كل وحي في الدين، سواء كان يهودياً أم مسيحياً، حليفة لليهود، الذين كانوا يتعرّضون لقمع لا ينتهي، بسبب من إيمانهم بالذات، أو بفعل وجودهم في دولة مسيحية تسعى إلى توحيد صفوفها. إلاّ أنّ مثل هذا التحالف، إن جاز التعبير، كان محكوماً بالزوال عاجلاً أو آجلاً، إذ كان على المنطق العقلاني أن يواصل العمل بمعطياته الأصلية، حتى نهايتها المحتومة، أي حتى تخلّيه عن اليهودية والمسيحيّة معاً. فكلتاهما مرفوضتان في الفلسفة العقلانية. وكل ما يمثّلهما من كتب "مُنزلة"، وعقائد ومؤسّسات ومسؤولين، مرفوض جملة وتفصيلاً. فتلك كانت حتمية المنطق العقلاني، في التعامل مع كل دين، بما فيه الدين اليهودي والدين المسيحي.

وقد برزت في نطاق هذه العقلانية، أسماء كثيرة هنا وهناك، كان في طليعتها فيلسوف يهودي هولندي، ليس سوى "باروخ سبينوزا" (1632–1677)، الذي اعتمد، على كونه يهودياً، مبادئ عقلانية صرفة، قادته إلى رفض اليهودية، فاعتبرها مجرّد خرافات جُمعت، فأتت بإله حقود، وتاريخ مختلق، وشعب شرير. وقد جاء له قول في كتاب له شهير بعنوان "بحث في اللاهوت والسياسة"، رأيت أن أورده هنا. يقول:

« لم يكن حبّ اليهود لوطنهم قائماً على الوطنية وحسب، ولكن أيضاً على تقوى تغذّيها طقوس يومية، بحيث يصبح كلّ شيء لديهم، بما فيه كراهية سائر الأمم، وحبّ الوطن، جزءاً لا يتجزّأ من طبيعتهم بالذات. فإنّ التزاماتهم اليومية لم تكن مختلفة وحسب عن التزامات سائر الأمم (كما يجب أن يكون، من حيث أنهم يؤلّفون شعباً خاصاً، يختلف

كلّياً عن غيره من الشعوب)، بل مناقضة لها بالكلية. وإنّ مثل هذه الإدانة اليومية قد ولّدت بالطبع بغضاً عنيداً، انغرس عميقاً في القلب. وفي الواقع، فإنّ البغض الأعمق والأشدّ، من جميع أشكال البغض، هو ذلك الذي ينبع من تقوى متطرّفة أو من صلاة متطرّفة، وهو بغض تكتسب تغذيته سهولة أكبر، كلّما ظنّها الإنسان نابعة من التقوى. ».

وقد وجدت أيضاً هذه اللاسامية العقلانية، مؤيّداً كبيراً لها في شخص الفيلسوف الفرنسي الشهير "فولتير" (1694–1778)، فليس من يجهل ما كان يُضمر من حقد للمسيحية. إلا أنه كان يخصّ اليهود واليهودية باحتقار لا يُضاهى. ويرى بعض الباحثين أنّ هذا الكمّ من الاحتقار، قد لا يكون بعيداً عن بعض صفقات تجارية بائسة، كانت له مع يهود. غير أن ما خصّ به العهد القديم، وما ينطوي عليه من تعاليم وتاريخ، من حقد واحتقار، كان يتجاوز كل تصوّر، ويشكّل الأسس العقلانية لهما. وقد بلغ من تحامله على اليهود واليهودية، من الغلواء، ما جعله يؤيّد الاضطهادات والمجازر وإجراءات القمع والتشريد، التي حلّت بهم. وما كان ليتورّع عن استخدام أقذع الشتائم بحقّهم. وإني لأورد نموذجاً واحداً من هذه الأقوال. يقول فيه:

« باختصار، لا يسعنا أن نرى في اليهود سوى شعب جاهل، وبربري، وقد جمع فترة طويلة أبشع أنواع البخل، مع أكثر الخرافات فظاعة، إلى جانب أعند أنواع البغض، حيال كل شعب تحمّل وجودهم، واغتنوا في وسطه! »

وكان صديق "فولتير"، إمبراطور النمسا الملحد، "فريدريش الثاني" (1712–1786)، يناصب اليهود عداءً شرساً، وكراهية لا حدود

لها. وقد ألحق بهم أذى كبيراً، طوال فترة حكمه التي امتدّت من عام 1740 إلى عام 1786. والجدير بالذكر أنّ هتلر، خلال كتابته نظرياته العنصرية، كان كثير التعاطي مع مؤلفات "فردريش الثاني" و"فولتير".

ولم يكن هذا النمط من اللاسامية، الذي تميّز به "فولتير"، نادراً في "عصر الأنوار" المعروف أيضاً "بعصر الفلاسفة". وقُيّض له أن يعمّر طويلاً بعد هذا العصر بالذات. ولقد كان من روّاده المشهورين، في فرنسا، الفيلسوف "ديدورو" (Diderot) (1713–1784)، الذي كان يهوى اتهام اليهود بشتى أنواع الموبقات، والفيلسوف "دولباخ" (1723–1789)، الذي كان ينظر إليهم على أنهم أذلّ من عليها، والفيلسوف "روسو" (1712–1778) الذي كان يصفهم بأنهم أكثر المتطرّفين... تطرّفاً... وإلى ذلك، فلم يكن هذا النمط من اللاسامية يستند في الغالب، إلاّ إلى أحكام مسبقة كانت في جوهرها أقرب إلى الأحكام الأخلاقية، منها إلى الفلسفة. وأما اللاسامية الألمانية، فإذ قد استندت إلى مفاهيم فلسفية وأبحاث كتابية، فقد قدّر لها أن تعرف تأثيراً عميقاً وحاسماً. وكان من أهمّ وأخطر ثمارها، فلسفة هتلر العنصرية.

أخيراً تجب الإشارة إلى أنّه، عند انعقاد مؤتمر الاشتراكية الدولية، الأوّل، عام 1891، سارع جميع المشاركين فيه إلى إدانة التحالف الذي كان قائماً بين الاشتراكية واللاسامية.

الفصل العاشر

أسطورة الأعراق ونتائجها

خلال السبعينيات من القرن التاسع عشر، انتشرت اللاسامية العرقية في ألمانيا، ومنها امتدّت إلى النمسا، فالمجر، وفرنسا، فروسيا. وعرفت في تلك الفترة هيجانات دامية وعامة، ثم همدت قليلاً، لتنطلق فتبلغ ذروتها إبان الحكم النازي. أمّا مصطلح "اللاسامية" الشهير، فقد جاء للمرة الأولى عام 1879، في كتاب وضعه مؤلّف ألماني، يدعى "ولهلم مار" (Wilhelm Marr)، ويحمل عنواناً هو "انتصار اليهودية على الجرمانية". وقد جاء هذا الكتاب بمثابة إنذار قاتم طلع به عنصري ألماني على العالم، ليعلن فيه ما كان يعتبره هيمنة اليهود على بلاده. وقد تكون نظرية الدونية العرقية استمدّت أصولها من أمجاد الدولة الألمانية ومن روحها، كما وصفهما الفيلسوف "هيجل"، وكذلك أيضاً من استنتاجات الفوارق الألسنية، القائمة بين "الآريّين"، و"الساميّين"، التي انتهى إليها العالم الألماني "كريستيان لاسّن" (Christian Lassen)، (1800–1876)، ليبني عليها نظريته في التمييز العرقي. وفي فرنسا، أيّد العالِم العقلاني الشهير، "ارنست رينان" (Ernest Renan) (1823–1892)، العالم الألماني "لاشن"، فأقرّ معه بأنّ اليهود ينتمون إلى عرق متدنٍّ. وحذّر العالِم الفرنسي "ارتور دوغوبينو" (Arthur De Gobineau) (1816–1882)، في كتابه "بحث في التفاوت بين الأعراق البشرية"،

حـذّر العـالَم مـن تـزاوج الأعـراق. وقـد كـان يـدّعي في مؤلفاتـه العنصرية، أنّ العرق السامي هو، من حيث التكوين الجسدي، ومن حيث الأخلاق والثقافة، دون العرق الآري. وكان يرى أنّ اليهود هم، على نحوٍ خاص، دون الآريّين الجرمانيّين بما لا يقاس. وكان يمضي إلى ما هو أبعد من كلّ ذلك، فيعلن أنّ اليهود عصيّون على أي اندماج إنساني واجتماعي، وأنّ قابليّتهم للفساد لا حدود لها. وقد أكّدت الأحداث اللاحقة في جميع البلدان الأوروبية، حتى روسيا، أنّ هذه النظريات العنصرية، قد استقطبت كوكبة من الفلاسفة والعلماء والسياسيين والنقّاد، الذين طاب لهم أن يُغنوها بنظرياتهم واستنتاجاتهم.

وليس بخافٍ على أحد أنّ لهذه النظريات العنصرية جميعها، أسباباً اجتماعيةً واقتصادية، هامّة لا يجوز إغفالها. فالصحيح أن مدرسة "هيجل" الفلسفية، قد أفضت إلى قومية ألمانية جموح، قاومت الانصهار اليهودي المتسارع في المجتمعات الألمانية، في حين كانت لا تُخفي أيضاً استياءها الصريح من الانعزالية اليهودية المعروفة. إلاّ أنّ تخصّص اليهود في الشأن المالي، بتشجيع صريح من الحكومة الألمانية، قد قاد العديد منهم إلى تشكيل كتلة قوية من الرأسماليين، شبيهة بتلك التي كانت قد تشكّلت في بلاطات العهود السابقة. ولكن هذه الكتلة المتخصّصة هي التي كانت قد أثارت عليها غضب كلّ من الشعب والطبقة البورجوازية، والمنظّرين الاشتراكيين. وفضلاً عن ذلك، فقد كان وهج أسماء بعض اليهود من الأوساط الليبرالية، بل والثورية، يصمهم جميعاً دونما تمييز، بِصمة المتشدّدين والثوريين. وإلى ذلك، فقد كان المسؤولون في الكنائس، من كاثوليكيين وبروتستانتيين على السواء، يُصرّون دائماً

على النظر إلى اليهود على أنهم غرباء، ويتّهمونهم بالاصطفاف مع دعاة العلمانية وأعداء النظام المسيحي. وإنّ جميع هذه الأسباب، ما كان منها علمياً أو مزعوماً، وما كان منها اجتماعياً واقتصادياً ودينياً، قد وضعت اليهود في حالة لا يُحسدون عليها، وحوّلتهم على نحو شبه طبيعي، إلى أكباش فداء، إبان الاضطرابات المختلفة، التي قُيّض لها أن تجتاح ألمانيا، ومن ثم النمسا، والمجر وأخيراً فرنسا. ذلك بأنّ نزعة عنصرية شاملة كانت قد هبّت على المنطقة برمّتها، ولغمت العقول والمؤسّسات على حدٍّ سواء.

لم يكن من قبيل الصدفة أن يلقى البحث الذي كان "وِلْهِلم مار" قد كتبه، نجاحاً باهراً عام 1879، ما كان قد توفّر له جزء يسير منه قبل سنوات قليلة. إلاّ أنّ انتصار ألمانيا الساحق على فرنسا عام 1870، والأحداث التي أعقبت هذا الانتصار، كل ذلك كان قد مهّد الأجواء، على نحو مدهش، لمثل هذا النجاح. وتلك كانت بداية ما سُمّي آنذاك "المعركة من أجل الحضارة" (Kulturkampf). والجدير بالذكر أنّ الكاتب الألماني اللاسامي، "أوغست روهلينغ" (August Rohling)، كان قد شنّ عام 1871، هجوماً شرساً ضدّ اليهودية التلمودية، كما صوّرها في كتاب له بعنوان "يهودي التلمود". وأما هذا الكتاب، فمع أنه كان اجتراراً صرفاً لنظريات الكاتب الألماني اللاسامي "أيزينمنجر"، فقد أعيد طبعه مراراً كثيرة، مع أنه كان قد تعرّض لانتقادات لا يُستهان بها. وعندما حدث، عام 1873، الانهيار المالي والاقتصادي في ألمانيا، وتبيّن أنّ لبعض اليهود مسؤولية في ما حدث، دبّت الحياة من جديد في نظريات "ولهلم مار" اللاسامية، وعرفت انتشاراً واسعاً من جديد.

ولقد أشعل هذا الانهيار المالي والاقتصادي، حرباً أدبية وفكرية،

بين المناهضين للسامية والمؤيّدين لها، توالت مقالاتها المتضاربة في سرعة جنونية. وما من شك أنّ هذا الغليان كان مقرّراً له أن يهدأ، بعد أن تصالح حاكم ألمانيا الفعلي، المستشار "بسمارك"، مع الكنيسة عام 1879، وناصب العداء الحزب الليبرالي الوطني، لولا أنه كان، في السرّ، قد أيّد الحركات اللاسامية في حربها ضدّ اليهود، إذ كان يرجو بذلك، أن يكسب تأييد مختلف الحركات السياسية، في حربه ضدّ الليبرالية والديمقراطية. وبذلك كانت الحركة اللاسامية قد ثبّتت قواعدها ورسمت بإتقان لعبتها.

وكان أن اجتاحت البلد موجة عنف شاملة ضدّ اليهود، تُرجِمت قولاً وفعلاً. وعلت في مجلس النواب، اتهامات صاخبة ضدّهم. وكان زعيم هذه الحركة قد عيّن من قبل الحكومة، وهو القسيس البروتستانتي "شتيكر"، الذي كان المسؤول الروحي في وزارة العدل، والذي أسّس اتحاد العمال الاجتماعيين المسيحيين، وهو اتحاد لاسامي، يهدف إلى مقاومة "الاشتراكية اليهودية" و"هيمنة اليهود على الحياة في ألمانيا". وفي عام 1881، انتشر بيان، يحمل تواقيع ثلاثمائة ألف شخص، ويطالب بفرض قيود جديدة على اليهود. إلاّ أنه جوبه ببيان مضادّ، يحمل تواقيع ستّ وثلاثين شخصية مشهورة في ألمانيا. ويومها سرت في جميع الأوساط كلمة تحمل ما تحمل في كلماتها القليلة، إذ كانت تقول: "إنّ اليهود مصيبتنا"، وكانت للمؤرخ الألماني الشهير "ترايتشكه". فشاعت في الطرقات عادة توجيه الكلمات الجارحة لليهود، وأخذت مظاهر الفوضى والعنف تتكاثر، ونُظّمت حركات المقاطعة لليهود، وعُقِدت مؤتمرات لاسامية هنا وهناك، وفُرِضت القيود عليهم حتى داخل الجامعات، وأُحرِق أحد الكنس، وأقيمت دعويان ضدّ يهود، بتهمة "القتل الطقسي"...

وكان ذلك الغليان لا يقلّ شراسة لدى المثقّفين الذين كانت الأيديولوجيات اللاسامية، قد استهوتهم واستنهضت حميّتهم. ولقد أبرز الباحثون خمساً من هذه الأيديولوجيات الصاخبة: الاجتماعية المسيحيّة، والاقتصادية، والعرقية، والقومية، والفلسفية المناهضة للمسيحية. فكان النمط الاجتماعي المسيحي قد انتعش في فرنسا على نحو خاصّ، إلاّ أنّ نتائجه الرئيسية كانت قد تجلّت في ألمانيا، عبر معاداة التلمود، التي كان "روهلينغ" يدعو إليها، وعبر "الاشتراكية المسيحيّة" التي كان يتبنّاها "شتوكر". وقد خضعت اللاسامية الاقتصادية القديمة، للتحليل من جديد، فتلقّت دفعاً قوياً، بفضل الهجمات العنيفة التي كان "أوتو غلاغاو" (Otto Glagau) يشنّها ضدّ المصرفيين والوسطاء اليهود. وأما اللاسامية العرقية والقومية، فهي لم تكن يوماً غائبة عن الكتابات اللاسامية المعاصرة، كما أنها كانت في أساس مؤلفات "ولهلم مار" و"تريتشكه". وهنا لا يفتنا أن نذكر ضمن هذه الفئة، الكتاب المسمّى "تعليم اللاسامية الأساسي"، لمؤلّفه "فريتش"، الذي عرف إصدارات كثيرة. إلاّ أنّ الجهد الأبرز في هذا الميدان، كان دون شك، كتاب "هيوستن ستيوارت تشامبرلين" (Houston Stewart Chamberlain)، الذي يحمل عنوان "نشوء القرن التاسع عشر". فقد كان هذا الرجل انجليزياً، إلاّ أنّه حصل على الجنسية الألمانية، ومضى في بحثه المستفيض إلى أقصى مداه، فأعلن تفوّق العرق الألماني المطلق من جهة، وسفالة العرق اليهودي القاطعة من جهة ثانية. وجاء يوم بات فيه كتابه الضخم، المرجعَ الكلاسيكي، المعتمدَ لدى جميع دعاة اللاسامية. وكانت اللاسامية الفلسفية، ذات المنشأ الهيغلي، التي يتزعّمها الفيلسوف "ماكس شتيرنير" (Max Stirner)، تدّعي أن

اليهود لم يتجاوزوا يوماً، في تطوّرهم الإنساني، "مرحلة الزنوج"، أي أكثر المراحل بدائية!...

وأمّا اللاسامية المعادية للمسيحية، فقد كانت وليدة العقلانية اللاسامية، وفي الوقت نفسه رائدة اللاسامية النازية، من وجوه عدّة، وهي، لهذه الأسباب عينها، أكثر الحركات اللاسامية إثارة للاهتمام، وأعظمها دلالة. وقد اتضح أنّ أتباعها كانوا يفوقون سواهم من اللاساميين، قدرة على مواجهة الواقعة التاريخية المحرجة، والقائلة بأنّ المسيحيّة تعود في نشأتها إلى إنسان يهودي، هو يسوع، وأن يسوع وتلاميذه كانوا يهوداً، وأنّ العهد القديم هو كتاب يهودي ومسيحي في آن واحد. ولقد مضى أتباع هذه اللاسامية بنظرياتهم إلى أقصاها، فانتهى بهم الأمر إلى رفض المسيحيّة واليهودية معاً، دفعة واحدة.

إلاّ أنّ هناك من المسيحيين اللاساميين من اضطرّوا لأن يتّخذوا مواقف محرجة جداً. وذلك بقصد تجنّب المسألة كلّها. فمضوا في تفكيرهم إلى أن اليهود لا ينتمون بأي حال إلى الجنس البشري، وأنّ يسوع المسيح وتلاميذه كانوا من أصول تعود إلى الشمال الأوروبي. وثمّة مفكّر لاسامي وملحد، يدعى "يوجين دورينغ" (Eugene Duwhring)، إذ كان أقرب منهم إلى المنطق، هاجم المسيحيّة بوصفها زبدة التعبير عن الروح السامية، المعادية للروح الشمالية. وأما "نيتشه" من جهته، فقد قاوم اليهودية والمسيحيّة في آن واحد، واتهمهما بأنهما "في أصل حالة روح العبودية، وغريبتان عن روح السيّد"، روح الرومان والجرمان. وفي فرنسا، طرح كلّ من الفيلسوف "تريدون" (Tridon)، و"رونيار" (Regnard)، لاسامية ملحدة ومعادية للمسيحية، انتهت، مثلها مثل جميع الأيديولوجيات المماثلة، بالاصطفاف مع الأيديولوجيات العنصرية.

إنّ هذه الانقسامات التي حدثت في صميم اللاسامية الجديدة، التي جمعت بين المسيحيين ومعادي المسيحيّة، كانت أحد الأسباب الرئيسية في انهيارها، بعد أن عرفت توهّجاً طارئاً بُعيد عام 1890. فقد لعبت أحداث أخرى دوراً فاعلاً في هذا السقوط، منها أنّ عدداً من اللاساميين كانوا قد تورّطوا في الفضائح والسرقات التي كانت قد ألصقت في صخب باليهود. في هذا العام نفسه، عام 1890، كانت قد أنشئت جمعية مناوئة للاسامية. وفي عام 1893، نظّم اليهود صفوفهم للدفاع عن أنفسهم، ضدّ الأكاذيب والتهم التي كانت الحركات اللاسامية تروّجها. ثم جاء يوم من عام 1894، صدر فيه عدد من مجلة كاثوليكية تصدر في ألمانيا، وتحمل اسم "جرمانيا"، يحتوي استنكاراً صريحاً وقوياً للحركة اللاسامية.

انتشرت اللاسامية ذات النزعة الجرمانية، في نهاية السبعينيات من القرن التاسع عشر، في الاتحاد الذي كان قائماً بين النمسا والمجر. وقد عرفت مساراً شبيهاً بمسارها في ألمانيا. ففي المجر، واجه اليهود أزمة قوية، عصفت بالبلد بين الليبراليين والمحافظين، وإذ بهم يصبحون كبش فداء إبان الهجوم الذي تعرّض له الحزبان الليبرالي والتقدّمي. وإلى ذلك، فقد كانت تتنازعهم الخلافات القومية الكثيرة، التي كانت قائمة داخل اتحادهم الهشّ، بين التشيكيين والسلوفاكيين والبولونيين والمجر والألمان. ولما كانوا يُعتبرون ألعوبة بيد أسرة "هابسبورغ" الحاكمة، تحوّلوا إلى هدف رخيص للحركات القومية المناهضة للنظام الملكي. وعندما حدث، عام 1882، انهيار "الاتحاد العام"، الذي كان تنظيماً مصرفياً دولياً "مسيحياً"، انصبّت الإدانة على اليهود، وتقرّر الانتقام منهم. وكان أحد عوامل هذا الانتقام، التعاليم اللاسامية التي كان الأب الشهير

"روهلينغ" (Rohling) ينشرها، وهو الذي كان قد مُنِح كرسياً في جامعة "براغ" ليدرّس فيها. والحقيقة أنّ هذا الكاهن الكاثوليكي قاد حملة شعواء ضدّ ما سمّاه "يهودي التلمود"، وفعل كل ما كان بوسعه فعله، من أجل نشر تهمة "القتل الطقسي"، ونجح إلى حدّ بعيد... وفي عام 1882، أجريت محاكمة مشهورة في مدينة "تيسّا ازلار" (Tisza Ezlar)، حول "القتل الطقسي". وبعد مضي أقلّ من سنة، اتضح أنّ هذه التهمة كانت حلقة في سلسلة متصلة من الحلقات، التي كانت ترمي، على نحو منتظم، إلى تشويه العالَم اليهودي برمّته. وبسقوط هذه الدعوى، سقطت قضية اللاسامية على نحو نهائي، في المجر.

أمّا في النمسا، فقد كانت هذه الحركة أصلب عوداً، حيث قامت عام 1880، أحزاب لاسامية، تحت غطاء الاشتراكية، وبقيادة رائد من روّادها، يدعى "جورج شونيرر" (George Schoenerer)، الذي قُيّض له أن يستهوي هتلر في ما بعد. وقد طالبت هذه الأحزاب بفرض قيود على اليهود، في نطاق التجارة والجامعات، ممّا أثار صدامات بين الطلاب داخل الجامعات. وهنا أيضاً كان للأب "روهلينغ" تأثير واسع، حيث أطلقت، عام 1889، تهم كثيرة ضدّ اليهود، بشأن "القتل الطقسي". وخلال التسعينيات، انضمّت إلى اللاساميين، الأحزاب المسيحيّة، تحت قيادة "كارل لويغر" (Karl Lueger)، رئيس الحزب الاجتماعي المسيحي، الذي انتُخب محافظاً لمدينة "فيينا"، على الرغم من معارضة رئيس الأساقفة والإمبراطور نفسه! ولقد ظلّ "لويغر" محتفظاً بمركزه هذا حتى وفاته عام 1910. وكان في هذه الأثناء قد استقبل أحد المعجبين به، الذي لم يكن سوى "أدولف هتلر"، والذي التقاه ليدرس على يده "المسألة اليهودية". وبالمقابل، فقد قامت تنظيمات مسيحية في النمسا،

تهدف إلى الدفاع عن اليهود، تماماً كما كان قد حدث في ألمانيا، ولكن دون نتيجة تذكر. وكثيراً ما كانت تحدث أعمال شغب، كان أشهرها تلك التي حدثت في "براغ" عام 1897. ولكن الحركة كلّها انطفأت بُعيد وفاة "لويغر" عام 1910.

1) **التطور في فرنسا**

كانت فرنسا موطن تحرّر اليهود في أوروبا. والصحيح أنها أصيبت بداء اللاسامية بدورها، إلاّ أنّ إصابتها به كانت أبطأ بكثير من إصابة ألمانيا والنمسا والمجر به. وفي تلك الفترة، كانت فرنسا تضمّ عدداً قليلاً من اليهود المخلصين للوطن الذي حرّرهم، لا سيما وأن معظمهم كانوا من صغار القوم. وقد خُيّل للكثيرين أنّ العاصفة اللاسامية التي اجتاحت بلدان أوروبا الشرقية، لن تطالهم. يومها، لم يكن المفكّرون الاشتراكيون، المناوئون لليهود، والذين كان بعضهم من الأسماء المعروفة في فرنسا، مثل "برودون" (Proudhon)، و"توسونيل" (Tousseniel)، و"فورييه" (Fourier)، قد حقّقوا تأثيراً يذكر. وتلك كانت أيضاً حال المفكّرين اللاساميين المحافظين، أمثال "غوبينو" (Gobineau) و"غوجينو دو موسّو" (Gougenot de Mousseaux). وقد قامت بعض الثرثرات المعادية عام 1870، عندما أسّس "بوتو" (Boutoux) تجمّعاً سمّاه "الاتحاد العام"، الذي كان يرمي من ورائه إلى معارضة المصالح المالية اليهودية. كما أنه حدث اضطراب أعظم شأناً عام 1882، عندما انهار "الاتحاد العام"، وقد نُسِب انهياره إلى اليهود والحكم القائم آنذاك في فرنسا، مع أن بعض الباحثين يعيدون جزءاً من هذا الانهيار، إلى مضاربات مفرطة وخاطئة أقدم عليها بعض المسؤولين فيه.

قبل عام 1885، لم يُسجَّل إلاّ القليل من اللاسامية الصريحة. إلاّ

أنه ثمة أعراض كانت ترتسم لما سوف ينتهي باليهود إلى سقوطهم في الفخ. فلقد كانت من جهة، الجمهورية الثالثة، وهي تضمّ الجيل الثالث للثورة الفرنسية الكبرى في عام 1789، مكشوفة العداء للكنيسة، راسخة في تشدّدها وتجذّرها، في نظر التقليديين. وكانت قد كسبت حظوة معظم اليهود، إذ كانوا مُمتنّين لها لعطية التحرّر التي كانت قد منحتهم إيّاها.

وكان هناك، من الجهة الأخرى، جميع المناهضين للجمهورية. وكان منهم المنادون بالملكية، الحالمون بالماضي، والمترقّبون عودة النظام السابق. وكان منهم أيضاً معظم الكاثوليك، الغاضبين من عداء الجمهورية الثالثة للكنيسة، من "قوانينها السفيهة"، التي أفقدت الكنيسة جميع امتيازاتها. وكان منهم أخيراً، الجيش بما فيه من فئات رجعية، متمسّكة إلى الحدود القصوى بامتيازاتها. وكانت هذه القوى الثلاثة قد تشابكت في نزعتها المحافظة، وفي رفضها للنظام الجمهوري، وفي لاساميتها. وكانت أكثر من حذرة من الوجود اليهودي، إذ كانت ترى فيه قوة مصمّمة على السيطرة على الحياة الفرنسية، وعلى تغيير تقاليد البلد. بل كانت هذه القوى الثلاث ترى في الجمهورية الثالثة، "جمهورية يهود". تلك كانت الخطوط العريضة للصراع عام 1885، التي بدت وكأنها تترقّب النفير القوي والحاد، الذي أطلقه شيطان اللاسامية الفرنسية، "ادوار "درومونت" (Edouard Drumont).

صدر كتابه "فرنسا اليهودية" عام 1886، وكان بمثابة مفجّر أشعل طاقات لُجِمت طويلاً. وكان يقع في جزأين، وقد صيغ في لغة موفّقة، وكان يحتوي جميع التهم التي كانت قد ألصقت باليهود، وهو ينتهي بالقارئ إلى أنّ اليهود هم المسؤولون وحدهم عن المآسي

التي حلّت بفرنسا منذ القرون الوسطى! وعلى ما كان "دروموننت" يدّعيه من مسيحية، فقد كان توجّهه عنصرياً صرفاً، وكان يسدّد ضرباته إلى مُناوئي الكنيسة. فلاقى كتابه نجاحاً مدهشاً، لا يخلو من دلالة عميقة بشأن توجّه قطاع واسع من المجتمع الفرنسي في عدائه لليهود. ولقد كان من الجلي أنّ "دروموننت" هذا قد أصاب نقطة حسّاسة، فأبرز بكل وضوح الانقسام الثنائي القائم داخل المجتمع الفرنسي كلّه. فعاد ووضع كتيّبات كثيرة، مشحونة باللاسامية، وسارع إلى تأسيس "اتحاد لاسامي" عام 1889. ثم أطلق عام 1892 صحيفة يومية أسماها "الكلمة الحرّة". وكان هدفه الأوحد من كل ذلك هو إثارة الأحقاد على اليهود، وعلى حليفتهم المفترضة، الجمهورية الفرنسية، قبل أن يُطبقا على فرنسا كلّها! ولقد وجد دعماً عظيماً، وغير متوقّع، في فضيحة قناة بناما، الشهيرة، التي تسبّبت في إفلاس مئات الألوف من الفرنسيين، والتي اتّضح أنّ عدداً كبيراً من اليهود، الذين كانوا اتّهموا بالفساد، كانوا أيضاً قد تورّطوا فيها. ولكم دعم هذا الحدث موقف "دروموننت" وادّعاءاته، إذ كان يبحث حثيثاً عن برهان يدعم به "أسطورة السلطة اليهودية"، التي كان يهاجمها ويحذّر منها. وظلّت كلمة "دروموننت" هي المسموعة في فرنسا، حتى عام 1893، حيث قام عالم كاثوليكي معروف، يدعى "أناتول لوروا بوليو" (Anatole Leroy - Beaulieu)، بحملة قويّة ومدروسة ضد "دروموننت"، في كتاب له بعنوان: "اليهود واللاسامية"، ثبّت فيه بالوقائع التاريخية، والتحليل المنطقي، أنّ استحواذ النزعة العلمانية على اليهود، لم يكن السبب في تخلّي المجتمع الفرنسي عن مسيحيّته، بل كانت نتيجة له.

إلاّ أنّ كل ذلك، على أهميته وأبعاده، لم يكن، كما اتضح فيما بعد،

سوى تمهيد لحدث محلي وفرنسي صرف، اتخذ كل تفصيل فيه بُعداً قيض له أن يُعرّي فرنسا أمام ذاتها وجميع مؤسّساتها، وأن يحدث خارج فرنسا تداعيات، كشفت بدورها عمّا كان يتجاذب مجتمعات الغرب كلّه، من قوى علنية وخفية، يصعب على المرء رصدها أو توقّعها... ذلك الحدث كان ما سمّي منذ ذلك الحين "قضية دريفوس". وقد جهد الكثيرون من العلماء والباحثين في سبر معطيات هذه القضية، وأبطالها ونتائجها، إذ جاء وقت بات فيه العالم الغربي بأسره، يتابع فصولها. وقد بدت للكثيرين أشبه بتدريب عام، ولكن تافه، على الكارثة المأساوية الكبرى، التي أطبقت على الغرب، وكادت أن تطبق على العالم، في ما بات يعرف بالخطر النازي. وباستثناء ألمانيا، فإن "قضية دريفوس" كانت أكثر تظاهرات اللاسامية إثارة في العصور الحديثة. ولسوف أختزلها في خطوطها الكبرى.

في أواخر عام 1894، حدث أن كان الكابتن (النقيب) "الفريد دريفوس"، العنصر اليهودي الوحيد في قيادة أركان الجيش الفرنسي. وكان أن اتّهم بالتجسّس لصالح ألمانيا. وحوكم في سرية تامة، وأدين بإجماع هيئة المحكمة، وحُكم عليه بالسجن المؤبد، ونقل إلى "جزيرة الشيطان" في مقاطعة "الغويانا" الفرنسية، في القسم الجنوبي من القارة الأميركية. وكان "الفريد دريفوس" يعارض هذا الحكم، متمسّكاً بكل قوة ببراءته. ولم يكن ثمّة من وثيقة إدانة له، إلاّ نصّ واحد، نُسب إليه، وهو أبداً يصرّ على كونه نصّاً مزوّراً. ثم طرأت تطوّرات كثيرة، سرّيّة ومعلنة، انطوت على احتمال تورّط آخرين في ما اتّهم به "الكابتن دريفوس". وما بين العام 1894 وعام 1899، تدخّلت مراجع سياسية وعسكرية، وقضائية وأدبية، في هذه القضية، وفي ما نجم عنها من تساؤلات وتورّطات وأحكام قضائية جديدة.

وكان من أبرزها الكاتب الفرنسي الشهير، "اميل زولا"، الذي دافع عن "دريفوس"، ومن أهم السياسيين، "جورج كليمنصو" الذي كان يطالب بإعادة محاكمته. وإذ برئيس الجمهورية الفرنسية يصدر عفواً رئاسياً مفاجئاً، يبرّئ فيه "دريفوس" تبرئة كاملة. ومع ذلك، فقد حدث أنّ مجلس النواب الفرنسي صوّت بغالبية ساحقة، ضدّ إعادة النظر في محاكمة "دريفوس"، التي كان بعض السياسيين والمفكّرين يطالبون بها. كان ذلك عام 1900. إلاّ أنّ "ألفريد دريفوس" نفسه عاد عام 1903 ليطالب بإعادة النظر في محاكمته كلّها، وذلك إنقاذاً لاسم أسرته أولاً، واستبعاداً لأي تهمة يُرشق بها الشعب اليهودي، ثانياً. وكان له ما طالب به عام 1906، حيث ألغت محكمة الاستئناف الأحكام السابقة، وأُعلنت تبرئته على نحو كامل ونهائي.

صحيح أنّ "قضية دريفوس" باتت معلماً في تاريخ فرنسا الحديث، ينسج حوله الكثيرون شتى النظريات المتضاربة، وقد تكون ضربت في الصميم أحلام اللاساميين الفرنسيين. إلاّ أنّ اللاسامية اكتسبت بسببها، امتداداً شعبياً كانت تفتقر إليه في السابق، إذ كانت في الحقيقة مقتصرة على الفئات السياسية والأكاديمية، وبعض الصحفيين والكتّاب. فما إن بدأت مراحل المحاكمة تتكشّف، حتى اتّسع جمهورها، لا سيما بعد أن استرسلت صحيفة "الكلمة الحرة" في الكشف عن مجرياتها المثيرة. ففي بدء القضية، كان ثمّة إجماع شبه فطري على إدانة "دريفوس"، لمجرد كونه يهودياً... ولكن ما إن كانت تظهر بين حين وآخر، تباشير ما كان يبدو تبرئة له، حتى كان عدد من الرجال في الأوساط السياسية والثقافية، يهبّون للمطالبة بإعادة النظر في المحاكمة. إلاّ أنّ جهودهم هذه، كانت في الحقيقة، تحرّض المعارضة اللاسامية، حتى جاء يوم اتّسعت فيه

هـذه المعارضـة بحيـث بـات المؤيّـدون لـ "دريفـوس"، يخشـون علـى حيـاتهم. ولـذا فقـد تركـت هـذه القضـية جروحـاً عميقـة، ومـثيرة لتسـاؤلات لا تنتـهي، في مختلـف المسـتويات الاجتماعيـة في فرنسـا. وقد رأى بعـض البـاحثين أنّ الأحقـاد المتضـاربة التـي تولّـدت آنـذاك في صـفوف المؤيّـدين والمعارضـين لـ "دريفـوس" علـى السـواء، طفـت علـى السـطح بأبشـع أشـكالها مـا بـين الأعـوام 1940 و1945، إبـان الاحتلال النازي لفرنسا، وفي أعقابه!

وعلى الـرغم مـن كل ذلـك، فقـد كانـت لاسـامية المعـادين لـدريفوس، عكـرة ومشوّشـة، إذ كـان خلـيط عجيـب مـن دوافـع قوميـة وكنسـية وعسكرية، قد امتزج بها. ولقـد تبيّن بمـرور الـزمن أنّ وجههـا اللاسـامي لم يكـن يرتكـز علـى أنّ خصـوم "دريفـوس" كـانوا متـواطئين مـع خطـأ قضائي فاضح، كي يخفوا ولاءهم للجيش والكنيسة والأمّة وحسـب، بـل أيضاً على حقيقـة قاسـية ومـرّة، وهـي أنّ دفـاعهم المسـتميت عـن جميـع هذه المكوّنات، كان يرتكز علـى الواقـع القائـل بـأنّ الضـحية ليسـت سـوى يهـودي! وقـد بـدا "دريفـوس" في نظـر مؤيـدي هـذا الموقـف، وكأنـه يمثّـل جميع الحركات الداعية إلى التحرّر ونبـذ المسـيحيّة، وبالتـالي إلى وضـع حـدّ نهـائي للنظـام التقليـدي المسـيحي في فرنسـا. وبـذلك شـكّلت هـذه القضية نموذجاً بارزاً لنظرية "كبش الفداء"، على اختلاف أشكالها عبر التـاريخ والمجتمعـات. غـير أنهـا، نظـراً لأبعادهـا النفسـية والتاريخيـة، والاجتماعية والدينية، تحوّلت إلى نموذج أعلى، يختـزل في ذاتـه أحـداثاً وتيارات بلغ حجمها وتأثيرها مـن الضـخامة، مـا تجـاوز الفـرد البشـري المسـمّى "ألفريـد دريفـوس"، وهيّـأ، كمـا يـرى بعـض البـاحثين، الأجـواء والتربة لظهور اللاسامية النازية في فرنسا، إبان الاحتلال.

غـني عـن القـول أنّ "قضـية دريفـوس" أحـدثت أصـداء قويـة

وعميقة، لا في فرنسا وحسب، بل أيضاً على نطاق العالم بأسره. ولم يتورّع بعضهم عن التأكيد بأنها كانت إحدى المحطّات الهامة، بل الحاسمة، على طريق إنشاء "الوطن القومي" اليهودي في فلسطين، كما خطّطت له الحركة الصهيونية، وكما طُوِّعت الدول الكبرى الفاعلة آنذاك، لتنفيذه، بدءاً من "معاهدة سايكس - بيكو"، إلى "وعد بلفور"، مروراً "بمؤتمر سان ريمو"، ومن ثم فرض نظام الانتداب الأممي على سورية والعراق!...

ثمّة جانب آخر في "قضية دريفوس"، تجب الإشارة إليه. وهو أنّ الكنيسة في فرنسا، كانت قد تورّطت على نحو خطير، في هذه القضية. وقد اتّضح أنّ مسؤوليها من مؤيّدي إدانة "دريفوس"، كانوا قد خُدعوا على نحو بشع، بحيث أن تداعيات هذه القضية قادت، في نتيجة المطاف، إلى فصل الدين عن الدولة في فرنسا، عام 1905، في ظروف لم تخلُ من عنف وضغائن! والمعروف أنّ الكنيسة أخذت منذ ذلك الحين تفقد بسرعة متفاقمة، تأثيرها على الناس عامة، في حين كانت الأحقاد على المؤسسات الكنسية وعلى رجالاتها، تتنامى، بسبب ما اتّسم به موقفهم من "قضية دريفوس"، من تميّز وانفعال وقسوة، سواء في المناسبات الدينية الرسمية، أو في الصحافة الكاثوليكية. وشيئاً فشيئاً تشكّل رأي عام مناهض للكنيسة، ومنحاز للجمهورية. وقد لا يتّسم بأيّ مبالغة القول بأنّ هذه النتيجة الاجتماعية والتاريخية، تنسحب حتى اليوم على الكنيسة والمجتمع في فرنسا.

2) ماذا عن بلدان غربية أخرى؟

حوالي عام 1881، تسرّبت عدوى اللاسامية إلى روسيا، حيث كان اليهود، على الرغم من بعض الإصلاحات التي طرأت على حياتهم، ما زالوا يعيشون في ظروف، أقل ما يقال فيها إنها بائسة، وحيث

كانت أتفه الاتهامات الموجّهة إليهم، تلهب المشاعر والجماهير ضدّهم، على نطاق واسع، وأحياناً عنيف. ويومها، كان في الأجواء ما يهيّئ لما سيُسمّى عهد المجازر الجماعية، المعروفة هناك بكلمة "بوغْروم" (Pogrom)، ففي أعقاب اغتيال القيصر "الاسكندر الثاني" (1855–1881)، تولّى ابنه "الاسكندر الثالث" (1881–1894) الحكم، فكان عهده هذا دخولاً في نفق من الظلمات والاستبداد. وكان ثمّة عدد لا يستهان به من اليهود، منخرطين في حركات تحرّرية وثورية، فتحوّلوا بذلك، كما في بلدان أخرى، إلى "كبش فداء"، استهدفه الحكم القيصري في مناهضته الشرسة لتلك الحركات. وكان الحكم القيصري من القوة بحيث أعلن عن مخطّط خاص باليهود، يتوجّب بموجبه، على الثلث منهم الهجرة خارج روسيا، وعلى الثلث الثاني... الموت... وعلى الثلث المتبقي... التلاشي في اعتناق المسيحيّة. وفي أيام فصح عام 1881، قامت المجزرة الكبرى، وامتدّت بسرعة رهيبة إلى جميع المناطق الجنوبية في روسيا كلّها. فضربت قرابة مائة جماعة يهودية، بحيث تعرّض عشرات الألوف للتعذيب والنهب والقتل، فيما كانت الشرطة لا تحرّك ساكناً! وقد حدث كل ذلك في توقيت واحد، وبالطريقة ذاتها، عملاً بالمخطّط المطروح!

قد لا يسع أحداً أن يتّهم الحكومة القيصرية بتدبير مثل هذه المجازر الجماعية. ولكنه لا يسع أحداً أيضاً أن يدّعي أنّ مثل هذه المجازر حدثت في غفلة منها. والصحيح أنّ الحكومة حاولت في ما بعد أن تعود بأسباب هذه المجازر إلى ما سمّته "استغلال" اليهود البشع للفلاحين الروس. إلا أن هذه التهمة كانت من المبالغة بمكان، وهي لا تنسجم، كما أبرز بعض الباحثين، مع ما تميّزت به هذه المجازر، من تزامن وبربرية وشمول. والمعروف أنّ الدولة ادّعت إجراء

تحقيقات ميدانية بهذا الشأن، ولكن الثابت أنّ شيئاً من ذلك لم يحدث... غير أنّ الرأي العام العالمي كان قد تحرّك بقوّة. فحدثت تجمّعات ضخمة في لندن. كما أنّ الولايات المتحدة رفعت إلى القيصر احتجاجاً قوي اللهجة. ومع ذلك، فقد تكرّرت مجازر جماعية جديدة خلال العام نفسه، عام 1881. وكان أشدّها وحشية ذاك الذي جرى في "فرصوفيا"، إذ كانت بولونيا لا تزال تحت الحكم الروسي. وقد استنكرتها شخصيات بولونية كثيرة، من دينية ومدنية.

واستولى الرعب على اليهود الروس. فأخذوا يهاجرون بكثرة، حتى كانت تلك أعظم هجراتهم كثافة عبر تاريخهم الحديث كلّه. وطوال عهد "الاسكندر الثالث"، الذي امتدّ ثلاثة عشر عاماً، كان يغادر روسيا، كل عام، قرابة مائة ألف يهودي... وكان معظمهم يهاجرون إلى الولايات المتحدة الأميركية، حتى بلغ عدد المهاجرين من روسيا ورومانيا، عام 1900، قرابة مليون إنسان. وكان هذا الرقم يتضاعف بمرور الزمن. والجدير بالذكر أنّ إسبانيا وحدها، دعت اللاجئين اليهود إلى الاستقرار في أراضيها. وقد بدرت من الحكم في روسيا، محاولات للتخفيف من هذه الهجرة. إلاّ أنه سرعان ما خضع لأحداث، عام 1882، كانت تجديداً لمجازر عام 1881، فسرّعت في مضاعفة الهجرة، وأظهرت الحكم القيصري وكأنه يسعى إلى حلّ "المسألة اليهودية" بطريقة واحدة، هي الإبادة! وصدرت "قوانين مؤقتة" خاصة باليهود، فحدّدت لهم مكان إقامتهم، في "أراضي السكن" الخاصة بهم، وحرّمت عليهم استئجار أي شيء، أو رهن أي شيء، كما حرّمت عليهم السكن في القرى، وقلّصت عدد المهن التي يجوز لهم ممارستها. وقد ظلّت هذه "القوانين المؤقّتة" نافذة حتى عام 1914! إلاّ أنّ القوانين التي صدرت منذ ذلك الحين، والمتعلّقة

بالشأن اليهودي، فقد بلغت 650 قانوناً استثنائياً، فضلاً عن القرارات الطارئة التي كانت تُلحق بها. بالطبع، كل ذلك، جوبه بتظاهرات احتجاج، ولكن... في انجلترا والولايات المتحدة!

وفي عهد القيصر "نيقولاوس الثاني" (1894-1917)، ازداد وضع اليهود سوءاً، إذ كان يُعرف عن هذا القيصر أنه لاسامي بالفطرة، لأنه كان ينظر إلى اليهود على أنهم دائماً قتلة المسيح! وكان أن تواصلت المجازر الجماعية، وبالتالي الهجرات القسرية. ولم يكن بخافٍ أنّ حركات التحرّر آنذاك، كانت ناشطة جداً، على الرغم من القمعٍ العنيف الذي كانت تتعرّض له.

وفي عام 1903، حدثت مجزرة كبيرة في مدينة "كيشينيف" (Kichinev)، وكانت مدبّرة تدبيراً مدروساً، فتواصلت ثلاثة أيام، فأثارت من الاحتجاجات القوية، داخل روسيا وخارجها، ما قد يكون لجمها قليلاً. وكان من أبرز المحتجّين، الكاتب الروسي "تولستوي"... وفي أواخر عام 1904، نشأ تجمّع باسم "تحالف الشعب الروسي"، كان الهدف منه مقاومة النزعة التحرّرية... واليهود... وسرعان ما أخذ ينظّم اغتيالات هنا وهناك، ومجازر جديدة في أماكن كثيرة. وقد اتّضح أنّ كلّ ذلك جاء بتأييد من السلطة العليا. إلاّ أنّ سرعة تحرّك هذا "التحالف"، فاقت كلّ توقّع، إذ حدث ما يقارب ستمائة وعشر مجازر، في مناطق مختلفة من روسيا، خلال شهر واحد فقط، هو تشرين الأول (اكتوبر) من عام 1904. أما الضحايا بين قتلى وجرحى ومشرّدين ومهجّرين، فقد فاقت عشرات الألوف! وعندها فقط أدانت "هيئة الدوما" الروسية، تلك المجازر، ولكن عبثاً، إذ أنّ موقفها هذا دفع القيصر إلى إصدار قرار بحلّها! ورداً على ذلك، ألغت الولايات المتحدة، اتّفاقاً تجارياً هاماً، كان سارياً بين البلدين منذ سبعين عاماً!

وفي عام 1905، حدث في روسيا القيصرية أمر، لا يجوز إغفاله أو تجاهله، أياً كان موقف الباحث منه، لأنه اتخذ منذ ذلك الحين، أحجاماً من التفكير والسجال، والبحث والانفعال، بل والانحياز، لا يخطئ مَن يقول عنها حتى اليوم، إنها أحجام أسطورية! ذلك هو ما سمّي "بروتوكولات حكماء صهيون"! فما هي حقيقة هذا الكتاب، إن كانت ثمة حقيقة يسعنا أن ندلي بها بشأنه؟

من الباحثين مَن يجزمون بعد دراسات طويلة ومتأنية، أنه كتاب منحول، نُسب إلى يهودي روسي، وأنه يرسم خطة لليهود في السيطرة على العالم، انتقاماً لهم ممّا فرض عليهم "الأغيار" طوال قرون وقرون...

ومن الباحثين أيضاً مَن يجزم بصحة هذه النسبة، ولكن دون التمكّن من تحديد اسم لواضع هذا الكتاب، أو لواضعيه!...

والثابت أنّ هذا الكتاب طُبع عام 1905 في مطابع حكومية في موسكو. وقد ادّعى "مؤلّفه"، المدعو "سيرغي نيلوس"، أنه تلقّاه من صديق، قدّمه له على أنه مقتطفات من مقرّرات مؤتمر بال الصهيوني، الذي عقد في سويسرا، عام 1897.

يضمّ هذا الكتاب أربعاً وعشرين محاضرة، ألقيت، كما يدّعي المؤلف، من قبل "حكماء" هذا المؤتمر. وكلّها ترسم، خطوة إثر خطوة، مخطّطاً يهودياً يهدف إلى الهيمنة على العالم كلّه، ولا سيما على الإعلام والأموال، والثقافات والحكومات والديانات...

وسواء كان منحولاً أو موضوعاً، فإنّ هذا الكتاب عرف ويعرف انتشاراً واسعاً، وتأثيراً عميقاً، بحيث يصعب حتى على من يقرّون بأنه عمل مزوّر، أن ينكروا ما يبدو على الأرض وعلى نطاق العالم، تحقيقاً ميدانياً وفعلياً، في العديد من الوجوه التي يصفها ويرسمها!...

وقد عرف قمّة انتشاره بعد عام 1919، حيث تلقّفته السلطات في ألمانيا، لا سيما بعد أن تُرجم إلى لغات كثيرة، منها الفرنسية والانكليزية والبولونية والإيطالية واليابانية والعربية والسويدية والنروجية والدانمركية.

أمّا في الولايات المتحدة، فقد تولّى "هنري فورد" الشهير، مهمة التعريف به والتحذير ممّا جاء فيه، على الرغم مما كُتِب عنه في ما بعد، من أمر الاعتذار العلني إلى اليهود، عمّا كتَب هو عنه وعنهم!

والمعروف أنّ تأثير هذا الكتاب بلغ الذروة في ألمانيا النازية!...

بالطبع، وجد هذا الكتاب مؤيدين ورافضين، وداحضين. وهو لا يزال حتى اليوم موضع أخذ وردّ كثير وعنيف... ولسوف يبقى لفترة طويلة... والجدير بالذكر أنّ معظم الرافضين من الغربيين، وقد لا يكون هذا الرفض بعيداً عن... عقدة الذنب الرهيبة، التي تأصلت في الغربيين جميعاً، بسبب اللاسامية، غير الإنسانية وغير المسيحيّة، نظرياً وعملياً، التي مارسوها في الغرب كلّه، حيال اليهود، منذ عهد الإمبراطور قسطنطين!...

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ معظم الآخذين بصحّته، هم من المفكرين والباحثين العرب، والمعروف أنّ العرب جميعاً، طوال تاريخهم منذ عهد الفتوحات، لم يكونوا يوماً لاساميين!

إلاّ أنّ ما يتضح اليوم أنه تطابق صارخ بين ما دعا إليه الكتاب من رفض جذري لجميع القيم والشرائع والمؤسسات والديانات والتقاليد من جهة أولى، وما يُمارَس من فوضى لاأخلاقية متغطرسة على أرض الواقع في جميع أنحاء العالم، وعلى نطاق جميع الدول والديانات والمؤسسات والمجتمعات، من جهة ثانية. كل

ذلك يثير في الحدود الدنيا سؤالاً حول منشأ هذا التطابق، وحول مسؤولية كاتبيه ومخطّطيه ومنفّذيه... والمستفيدين منه!

ثمّ أنّ ما كُتب ويُكتب من قبل مراجع علمية وأكاديمية وبحثية، معروفة ومشهورة، حول تسلّط الصهيونية على الدول النافذة، بدءاً من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، وحول استهتار جميع هذه الدول بجميع القيم الأخلاقية والقوانين الدولية والمعاهدات والشرائع، يفرض في الحدود الدنيا، سؤالاً ملحّاً حول واضع هذا الكتاب، أو واضعيه!

ولسوف لن يكون بعيداً عن الحقيقة، مَن يقول إنّ "واضع" هذا الكتاب، يهودي، وأنه قد وضعه لأغراض يريد لها أن تخدم اليهودية والصهيونية...

وإني لأجزم بأنّ الآخذ بهذا الرأي، ليس بالضرورة لاسامياً...

وذلك هو شأني!

3) **وماذا عن اليهود في رومانيا وبولونيا؟**

في رومانيا، كان الشعور الوطني، في أواخر القرن التاسع عشر، متأجّجاً وخاضعاً لتوجيه حكومي صريح. يومها كانت أوضاع اليهود فيها، شبيهة بأوضاعهم في روسيا. وفي عام 1895، نشأت عصبة لاسامية، دعت إلى مقاطعة اليهود في شتى مجالات التعامل والعمل... فهاجر الكثيرون. إلاّ أنّ الغالبية العظمى ظلّت في البلد على الرغم من أوضاعهم الزريّة. وكان أنّ عدداً منهم استطاع أن ينضمّ إلى هذا أو ذاك من الأحزاب الداعية إلى التحرّر، أملاً منهم في تحسين أوضاعهم هذه.

وإزاء هذه الموجات المختلفة من اللاسامية، التي اجتاحت البلدان الأوروبية، أُخِذ الكثيرون من اليهود برغبة جامحة في الاندماج

بالمجتمعات التي كانوا يعيشون فيها... إلاّ أنّ قسماً منهم أُخذ أيضاً بمشروع الصهيونية، وما كانت ترمي إليه من حلّ حاسم ونهائي في نظرها "للمسألة اليهودية"، يقوم، أوّلاً وأخيراً، على إنشاء "وطن قومي لهم" في مكان ما... في العالم!

وإلى ذلك، فقد كانت اليهودية في هذه الأثناء، قد انقسمت إلى ثلاثة أقسام رئيسة، في مختلف هذه البلدان، وفي ما هي أبعد منها... وهي القسم الأرثوذكسي المتشدّد، والقسم المحافظ المعتدل، والقسم الإصلاحي... وبدأ كل من هذه الأقسام الثلاثة، يخطّط طريقه، في استقلال تامّ عن القسمين الآخرين. إلاّ أنّ التضامن القوي، الخفي والمعلن، كان أبداً قائماً، وسرعان ما كان يتجلّى بقوّة في ما بينهم، كلّما قامت اضطرابات لاسامية، أو كلّما حدثت مجزرة صغيرة أو كبيرة. ونشأت أيضاً، بدافع التضامن إيّاه، جمعيات طليعية، اقتفت خطى جمعية "الاتحاد اليهودي العالمي". وكان بعض هذه الجمعيات يسعى إلى توفير حماية اجتماعية ما، أو جمع مساعدات مادية، طارئة أو ثابتة، أو حتى إنشاء كيان استعماري ما... في مكان ما...

من أهمّ هذه الجمعيات، أذكر، على سبيل التعريف، لا الحصر:
"التجمع اليهودي الانجليزي" في انجلترا...
"التجمع الإسرائيلي" في النمسا...
"تجمع الاستعمار اليهودي" في لندن...
"اللجنة اليهودية الأميركية" في الولايات المتحدة الأميركية...

الفصل الحادي عشر

النازية وحلّ المسألة اليهودية

قلّما وُجد باحث غير يهودي، سواء في الشرق العربي، أم في الغرب كلّه، تناول تاريخ اللاسامية. ألأنّ الموضوع يثير عند الغربيين، أثقالاً بحجم الجبال من عقدة الذنب حيال اليهود، كما هو يثير عند العرب والمسلمين، أثقالاً بحجم الجبال أيضاً، ولكن من الألم والحيرة؟

تلك هي حالي، وأنا أتصدّى لهذا الموضوع. وسوف أحاول أن أكون، جهد المستطاع، في منتهى الموضوعية والحياد، فأترك للأحداث، قدر الإمكان، أن تتحدّث عن نفسها بنفسها. وإني لأعتمد، كما في سائر فصول هذا الكتاب، عدداً لا يُحصى من المراجع العلمية، بعضها وضع باللغة الفرنسية، وبعضها بلغات أخرى، تُرجم معظمها إلى الفرنسية.

ثمّة ملاحظة أولية، حاسمة: كل ما سبق هتلر بشأن اللاسامية، الدينية منها والسياسية، والاقتصادية والاجتماعية، على اختلاف تجلّياتها البشعة، يتشابه من حيث الاتهامات المختلفة، وأساليب التضييق والاضطهاد، ومن حيث سبل التحكّم باليهود، عملاً وحضوراً، ونشاطاً، ووجوداً... إلاّ أنّ هذه الأمور كلّها، اتّخذت مع هتلر منحى جديداً، جذرياً ونهائياً.

فجأة، لم تعد أحداث الماضي، تتشابه مع ما بات اليوم يسمّى

"المحرقة". وإنه ليخطئ الظنّ مَن يرى أنّ هذه "المحرقة"، تعني إبادة اليهود وحدَهم، على يد النازيين. فإنّ من الباحثين الغربيين، من يهود وسواهم، من يقرّ بأنّ عدد من أبادتهم الآلة النازية، من غير اليهود، كان يفوق ثلاثة أضعاف ما أبادته من اليهود! إلاّ أنّ استغلال الإعلام الغربي المتصهين، على نحو دائم ومتجدّد ومبتكر، لواقعة "المحرقة اليهودية"، انتهى إلى تغييب غيرها من "المحرقات"، التي طالت الروس والبولونيين، والفرنسيين والبريطانيين والغجر وسواهم. وإلى ذلك، فإنّ مراكز البحث في طول الغرب وعرضه، لم تعد تتناول سوى المحرقة اليهودية لأسباب لا تخفى على أحد، حتى إنّ أحد أبرز الباحثين، وهو اليهودي الأميركي "فيلكنشتاين"، لم يتورّع عن استعراض الاستغلالات الكثيرة، من إعلامية وسياسية ونفسية واجتماعية ومالية وسواها، التي نجمت عن هذه "المحرقة"، في كتاب مشهور له، يحمل عنواناً يختزل الكثير الكثير، وهو "صناعة المحرقة"!

آن لي الآن أن أسرد الأحداث وفق تسلسلها التاريخي، بدءاً من جذور اللاسامية النازية.

كانت ألمانيا، خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، تعاني من عدم استقرار فادح، فضلاً عما خلّفت الحرب من شعور بالإذلال لدى الألمان، ومن أعباء الديون الهائلة التي ترتّبت عليها، بسبب التعويضات الضخمة التي وافقت على تقديمها بموجب معاهدة فرساي... وفي عام 1923، كانت الأزمة الاقتصادية قد بلغت أقصى مدى لها على كل صعيد، بسبب انهيار الطبقة الوسطى فيها، وبسبب استفحال البطالة على نحو مأساوي. فأُنشئ نظام سياسي جديد، يعتمد كومفيديرالية تضمّ سبعة عشر مقاطعة ألمانية،

وأطلق عليه تسمية "جمهورية فايمر" (Weimar)، وقد طال أمدها من عام 1919 إلى عام 1933، وتعاقب على حكمها رئيسان فقط، هما "فريدرش إبرت" (Friedrich Ebert) (1919–1925)، والمارشال "هندنبورغ" (Hindenbourg) (1925–1933). وعبثاً بُذلت محاولات كثيرة للعثور على حلول للمشاكل المستعصية، على ما كان يبدو عليه الحكم من قوّة. ولكنّه كان في واقع الحال، عاجزاً عن لمّ الصفوف، ويفتقر إلى القوة الكفيلة بمواجهة المشاكل الداخلية المتفاقمة. وطوال هذه السنوات، كان العسكريون والصناعيون والعمال، يبحثون عمّا كانوا يعتبرونه مصالحهم الخاصة، فكانوا بالتالي يميلون إلى اتهام "حكومة فايمر" بالتقصير في خدمة المصلحة الوطنية، وبمحاولة كسب ودّ القوى الخارجية المتحالفة، عدوّة الأمس. وإزاء الشعور باليأس الذي كان يستبدّ بمعظم الألمان، أخذ الكثيرون يبحثون أوّلاً عمّا يمكنه أن يكون السبب الكامن وراء مثل هذا الوضع المتمادي في التردّي، وثانياً عن رجاء جديد في خلاص ألمانيا كلّها، ممّا هي فيه، وممّا يُخشى أن تصل إليه... وقد أجمع الكثيرون من الباحثين على أنّ هذين الهدفين وجدا سريعاً جواباً لهما، الأوّل في توجيه التهمة القديمة إلى اليهود، بوصفهم السبب الرئيسي في ما آلت إليه ألمانيا، والثاني في اعتماد حركة وطنية متشدّدة، كان "أدولف هتلر" يجسّدها آنذاك، في قوّة وتحدٍّ!

وكان أن اتُّهم اليهود بمسؤولية جميع ما حلّ بألمانيا من مآسٍ: بدءاً بالخسارة في الحرب، مروراً بإملاءات معاهدة فرساي، وانتهاء بالانهيار الاقتصادي الذي ألمّ بالبلاد... وكان ثمّة ما يؤجّج الأحقاد على اليهود، في تدفّق اليهود القادمين من بولونيا وروسيا. ومن الباحثين من يدّعون أنّ أرقام هذه الهجرات، قد تعرّضت لمبالغات

مقصودة، من أجل إثارة المزيد من الحقد على اليهود... وفضلاً عن ذلك، فقد كان كتاب "بروتوكلات حكماء صهيون" في أوج انتشاره وتأثيره، ممّا جعل الألمان يتّهمون اليهود تلقائياً بالتحالف مع الشيوعيين، أو كما كان يحلو لهم أن يقولوا، مع "البولشفيين اليهود"! وهنا، يجدر بنا أن نذكّر أن "جمهورية فايمر" كان يطلق عليها الكثيرون اسم "الجمهورية اليهودية"، لأنّ مؤسّسها كان يهودياً يدعى "هوغو برويس" (Hugo Preuss)، وهو الذي سارع إلى إلغاء الحظر على اليهود، في تسلّم أي منصب حكومي. وهو لم يتورّع عن تعيين وزير خارجية لها، يهودي، يُدعى "والتر راتيناو" (Walter Rathenau). وكان في كل ذلك ما يغذّي التصوّر لدى الألمان، بأنّ هذه الجمهورية إنما هي أداة في مؤامرة يهودية تستهدف السيطرة على ألمانيا. وإلى ذلك، فقد كان لوجود عدد كبير من اليهود في مختلف قطاعات الحياة في ألمانيا، بما فيها التجارة والطبّ، والقضاء والصحافة والفن، ما يدعم ما كانت تدّعيه المراجع اللاسامية، لا سيما في صفوف الحركة النازية الصاعدة، من مخاطر يهودية جسيمة، تهدّد ألمانيا برمّتها.

ونجم عن هذا الغليان الفكري والاجتماعي والسياسي، عدد من التنظيمات المتطرفة، شبه العسكرية، التي كانت تنادي بالانتماء إلى الوطن، ومعاداة النظام الجمهوري، والتي كانت تنتقي أعضاءها من الشبّان والعاطلين عن العمل بصورة خاصة. وكان أحدها يُدعى "الحزب الوطني الاشتراكي للعمال الألمان"، المعروف بالحزب النازي، والذي كان يدّعي تغيير وجه الأرض، في ما لا يتجاوز العقدين من الزمن! وكان قد نشأ حزباً ضئيلاً عام 1919، وكان المدعو "أدولف هتلر" سابع المنتسبين إليه!

كان "الحزب النازي"، منذ انطلاقته، يلتزم سياسة لاسامية صارمة. وأضاف إلى برنامجه، في عام 1920، سبعة بنود، يحظّر فيها على اليهود منحهم المواطنة، وتسلّم مناصب مسؤولة، ويستبعدهم من العمل في الصحافة، ويعتبر جميع اليهود بمثابة "غرباء" أو "ضيوف" في ألمانيا. واختير له شعار الصليب المعكوف، ظنّاً من مسؤوليه أنه شعار "آري"...

خارقاً كان نموّ هذا الحزب. ففي عام 1923، بلغ عدد أعضائه عشرين ألفاً. وفي عام 1930، دخل مجلس النواب بمائة وسبعة نواب! وكان مجموع ناخبيهم قد بلغوا قرابة المليونين، ممّن وُصفوا بالشبّان والعاطلين عن العمل والمستائين! وطوال العشرينيات من القرن الماضي، لوحظ تواز في نموّ الحزب من جهة، وفي تدهور وضع اليهود من جهة ثانية. من ذلك، أنّ بعض النازيين كانوا يجوبون الشوارع ليحرّضوا الناس ضدّ اليهود، ويُنشدون أغاني معادية لهم، ويرسمون إشارات مشينة على جدران بيوتهم وممتلكاتهم. وانتشرت على نطاق واسع، كتيّبات لاسامية. وفي عام 1923، اغتيل وزير خارجية "جمهورية فايمر"، المدعوّ "والتر راتيناو". وما بين عام 1923 وعام 1932، تعرّضت 128 مقبرة يهودية، وخمسون كنيساً، لاعتداءات سافلة. وكان اليهود يُستبعدون شيئاً فشيئاً من مرافق الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فيما كانت العودة إلى الحياة في "الغيتو" تفرض نفسها يوماً بعد يوم. وفضلاً عن كل ذلك، كان الفنانون والكتاب اليهود، عرضة لسخرية دائمة...

يُجمع الباحثون في الشأن النازي، على أن هذا النمو الصاعق للحزب، كان يدين، أولاً وأخيراً، لوجود هتلر، ولقدرته الشخصية الخارقة على التحرّك والتنظيم، إذ كان عملياً هو، على كونه

نمساوياً، من تسلّم مقاليد الأمور كلّها فيه، منذ البداية. وكان إلى ذلك، يمتلك جرأة في أقواله وأعماله، تجاوزت جميع الحقوق والتوقعات. والصحيح أنه لم يضف جديداً إلى أيديولوجيا الحزب، إلاّ أنّه عمل على تطوير ما اكتنز فيه من لاسامية، بحميّة وتصميم تفاقما إثر انقلابه الفاشل ضدّ الحكومة في "ميونيخ"، واعتقاله سبع سنوات، أتاحت له كتابة مرجعيّته الفكرية الكبرى، المسمّاة "كفاحي"، التي ضمّنها سيرته الذاتية وفكره وبرنامجه، والتي كان يرمي من خلالها إلى شحن الجماهير الألمانية أوّلاً، ومن ثم جماهير العالم ثانياً، وتحذيرها، بل وإنقاذها من الأخطار التي كان يراها ماثلة في الماركسية، والاشتراكية، والديمقراطية، ولا سيما في اليهودية العالمية. وما إن خرج من السجن، حتى بدا لأعضاء الحزب النازي وكأنّ هالة غريبة تكتنفه وتحوّله في نظرهم إلى البطل المنتظر! وأخذ، منذ ذلك الحين، يخاطب جماهير الحزب النازي، الحاشدة والمتعاظمة، ومن ثمّ الجماهير الألمانية، التي كانت تُسحَر بشخصيته الخطابية. وما إن حلّت الأزمة الاقتصادية عام 1928، حتى كان حزبه يضمّ مئات الألوف من الأعضاء المستعدّين لمجرّد إيعاز يأتيهم منه. وفي عام 1933 اضطرّ رئيس الجمهورية "فون هيندنبورغ" لتكليفه بإدارة البلاد بصفة "مستشار". فوافق على أن تجري انتخابات نظامية. وهكذا كان. فحصل على نسبة اثنين وخمسين بالمائة من الأصوات. فمُنح سلطات مطلقة، وسُمّي "قائد" (Füehrer) الأمة الألمانية!

هذا الصعود الصاعق والتاريخي، كان دائماً مثاراً لتساؤلات كثيرة، حيّرت الكثيرين. فكيف لإنسان عادي من وجوه عدّة، كما اتّضح لباحثين كثيرين، أن يحظى بإجماع ضمّ تحت جناحيه، أمّة

بحجم الأمّة الألمانية، وفئات منها، بينها من الفوارق والتفاوتات والتناقضات، ما بين العمال وكبار الصناعيين، والمثقّفين، والاشتراكيين، والرأسماليين، والمتطرّفين والمحافظين، والشبّان والمسنّين، وحتى القادة الدينيين من كاثوليكيين وبروتستانتيين؟ ولم تكن الساحة السياسية آنذاك، تخلو من تنظيمات منافسة، تدعو هي أيضاً إلى الحكم المطلق، وإلى الأحلام الوطنية المغرية. فالحقّ يُقال، إنّ في نجاح هتلر هذا، لغزاً لا يزال يحيّر العقول والباحثين... وقد يكون لنجاحه المنقطع النظير، أنه كان يتقن التحدّث إلى الناس عما يريدون سماعه في أعمق أعماقهم. ويرى آخرون أن سرّ نجاحه أيضاً، في تغييرِ وجهِ وقلبِ ألمانيا كلّيّةً، خلال عشر سنوات مَن عهده فقط، يكمن في ما كان يتملّكه من هوى لاسامي، وفي ما كان يتملّك الألمان أيضاً من لاسامية مزمنة، أوهمتهم أنهم تحرّروا من أثقال هزيمة مرّة وإذلال ساحق، لم يألفوهما منذ مئات السنين...

إلاّ أنّ اللاسامية التي كان يتبنّاها هتلر، ويدعو إليها بفجاجة غير مسبوقة، كانت جديدة كلّ الجدّة، بجذريتها ودوافعها وخواتمها. فلقد كانت تنطوي على بغض مطلق لكل ما هو يهودي، وتدعو إلى محوه من الوجود. فلم يعد اليهودي مجرّد "كبش فداء" تجب معاقبته، ولا مخلوقاً من عرق سافل، بل هو أصبح السبب الأوحد لجميع العلل على الإطلاق، وأصبح الكائن المدمِّر، الذي يتوجّب تدميره بشتى الأساليب المتاحة، وهي كلّها مباحة، طالما هي تستهدف إزالته من الوجود. فلا خير في محاولة هدايته، أو تغييره، أو حتى تنصيره. وليس ثمة سوى حلّ وحيد في التعامل معه: إنه الموت! وهكذا تحوّل اليهودي إلى الرمز المطلق لجميع الشرور، رأسمالية

كانت، أم ماركسية، أم ليبرالية، أم دكتاتورية... إنه المزيج الأوحد من جميع الشرور، الذي يجب التخلّص منه، لتعود الحياة الآمنة إلى الناس، والعيش الكريم إلى العاطلين عن العمل، والفرص اللائقة لأصحاب المواهب، والأرباح الموفورة للصناعيين، والنزهات الهادئة للناس العاديين، والقومية الناصعة للدماء الألمانية، ومعها العزّة المهدورة لكل ألماني. وإلى ذلك، فلم يكن الله نفسه ببعيد عن تفكير هتلر وروحه، إذ كتب في كتابه "كفاحي"، يقول:

« أعتقد اليوم أني أتصرّف في وفاق مع رغبة الخالق القدير. فأنا، إذ أدافع عن نفسي ضد اليهودي، إنما أنا أكافح من أجل العمل وفق إرادة الخالق! »

والحقيقة هي أنّ هتلر كان يلتزم برنامجاً قاده شيئاً فشيئاً إلى الخروج على كلّ القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية، حتى باتت لاساميّته أشبه بديل ديني، يستعيض به عن كلّ مطلق. وكان واثقاً ثقة تامّة بقيمة مخطّطه السياسي، الرامي إلى توحيد جميع القوى في ألمانيا، من أجل هدف أبعد، وهو... إعادة تشكيل كوكب الأرض، لتطهيره من شرّ اليهود. وقد جاء في وصيّته التي كتبها عام 1945، عشيّة مقتله وهو في مكمنه المحصّن، ما حرفيته:

« قبل كلّ شيء، آمر الحكومة والشعب، بالتقيد بالقوانين العرقية حتى مداها الأقصى، وبمقاومة العالَم اليهودي، الذي ينفث السمّ في جميع الشعوب، دون هوادة! »

ذاك الهوس اللاسامي، لم يكن ساكناً شخصية هتلر وحسب، بل جميع معاونيه دون استثناء. وقد اندمجوا معه بالكلية في تنفيذ برنامجه النهائي، في حلّ "المسألة اليهودية" على طريقته الفريدة.

فما إن تسلّم الحكم في شهر آذار من عام 1933، حتى أخذ الرعب يتسرّب إلى اليهود، على نحو تدريجي. وقد اتّخذ له أوّلاً، ظاهراً من الشرعية، تحت غطاء إجراءات وقائية من أجل الدفاع الوطني وحماية "بعضهم"... ثمّ تطوّرت الأمور بعد أسابيع قليلة، إلى مصادرة فعلية لبعض الممتلكات، ومن ثمّ إلى طردهم من منازلهم ومحالّهم... وكانت هذه الإجراءات تحاول عدم إثارة الرأي العام، داخل ألمانيا وخارجها خصوصاً، مخافة إحداث احتجاجات دولية، تسبّب له المزيد من المتاعب.

ومع ذلك، فقد كان عام 1933 كارثياً بالنسبة إلى اليهود في ألمانيا. ذلك بأنّ فِرَق المغاوير النازية استبَقت قوات الحكومة، في تنظيم الاعتداءات على اليهود هنا وهناك، وفي تبريرها من خلال صحافة مأجورة، كانت تسعى إلى شرح ما يشكّل اليهود من مخاطر على الحياة الاقتصادية في ألمانيا. وفي الأول من نيسان من العام نفسه، نُظّم حظر كامل على جميع الفعاليات اليهودية، واعتبرت الحكومة هذا الحظر، تظاهرة شعبية تلقائية، إزاء "الهيمنة اليهودية"! وكان هذا الحظر أشبه بإعلان صارخ عن حظر آخر، هادئ ويومي، تعلّم الناس أن يمارسوه منذ زمان، حيال اليهود، بقصد تدميرهم...

وبعد أيام قليلة، انطلقت عملية جديدة كانت ترمي إلى "تصفية غير الآريين" من الحياة العامة، على نحو تدريجي. فطالت أولاً الموظفين في دوائر الدولة، حيث كانوا، كما كان هتلر يدّعي، يشكّلون غالبية مؤثّرة. ثم استُبعِد كلّ من ليس بآري، من المحاكم، ثمّ الإدارات والتعليم الحكومي، ثمّ من الحياة الثقافية فالرياضة. ثمّ طال الحظر المحامين والمشرّعين والأطباء والعلماء والفنانين

اليهود. ثم استُبعد الكثيرون منهم من الجامعات، كما استُبعدوا كلياً من الصحافة. واستُبعِد أيضاً المعلّمون اليهود من المدارس، وتعرّض الطلاب اليهود لسوء المعاملة، بل للضرب من قبل الطلاب والمدرّسين على السواء. وجاء يوم اعتُبر فيه "غيرَ آري"، كلّ مَن له جدّ يهودي، وكان بذلك يتّسع نطاق مَن يشمله هذا التصنيف العرقي. وبذلك بات في حكم الخاضع للحظر العرقي، كثيرون ممّن كانوا قد انصهروا في المجتمع الألماني، أو حتى من كانوا اعتنقوا المسيحيّة، منذ عشرات السنين. وجُمعت الكتب، بل المكتبات اليهودية، وأُحرقت في الشوارع والساحات العامة. وفُرض حمل "شارة العار" على كلّ يهودي. وكلّ ذلك كان قد حدث خلال عام 1933، أي خلال السنة الأولى من عهد هتلر! ولقد كتب أحد الباحثين يقول:

« إنه يجوز القول إنّ اليهود باتوا قبل نهاية عام **1933**، جماعة من رجال يائسين، ونساء باكيات، وأطفال يستبدّ بهم الرعب! »

وفي خريف عام 1933، كان عدد المهاجرين اليهود قد بلغ خمسين ألفاً، وكان أحدهم العالم الشهير "ألبرت أينشتاين". وفي شهر أيلول من عام 1935، عقد تجمّع نازي حاشد في مدينة "نورمبرغ" (Nuremberg)، أُعلِن خلاله ما بات يسمّى "قوانين نورمبرغ"، التي سحبت من جميع اليهود، حقّ المواطنة، وحرّمت عليهم الزواج من جميع "الآريين"، كما حرّمت كل علاقة جنسية معهم... وكان أن سخّرت الدولة جميع ما لديها من قدرات إعلامية، لتبرّر جميع هذه الإجراءات، من خلال برنامج دعائي سمّوه "علميّاً"، وقد سخّروا له العديد من المراجع الجامعية، لينشروا على مستوى الداخل والخارج، "علم الأعراق". وأخذوا يروّجون لما اعتبروه تفوّقاً آريّاً ساحقاً، على كل ما هو فكر وعلم يهوديان. كما أعدّت مشاريع

"علمية"، للبحث في أصول اليهودية والعالَم اليهودي. وأنشئ معهد خاص للبحث في الشؤون اليهودية، ضمّ مكتبة ضخمة كانت تحوي لا أقل من 350.000 مرجع "علمي". وكانت الغاية منه توفير الوثائق الضرورية لتطبيق الإجراءات والقوانين اللاسامية. وفي أعقاب اجتياح الجيش الألماني لبعض الدول الأوروبية، أنشئت في جامعات باريس، و"كراكوفيا" في بولونيا، وكذلك في إيطاليا، برامج خاصة باليهودية وبالمسألة العرقية... ومضى النازيون إلى ما هو أبعد من ذلك، فعُقدت اتّصالات مع مجموعات نازية، منتشرة في العديد من البلدان الأوروبية، بل في البلدان العربية والأميركية، كما ادّعى بعض الباحثين، لينشروا فيها بذور اللاسامية. وفي الداخل الألماني، مضوا أيضاً إلى فرض الحظر على كلّ يهودي، في استخدام موسيقى كبار الموسيقيين الألمان، مثل "باخ" و"بتهوفن" و"موتزارت". وأنشئ مكتب عرقي، مهمّته إعادة كتابة تاريخ ألمانيا، بحيث يحمّل اليهود جميع مآسيها. وهنا لا بدّ من طرح تساؤل ملحّ ومضنٍ: تُرى، ما الذي جعل رجال العلم والثقافة في ألمانيا، يستسلمون لمثل هذا النهج، بمثل هذه السهولة والانقياد؟ هل في ما يراه بعض الباحثين جبناً فظيعاً لدى المثقّفين الألمان والمراجع العلمية، بعض الإجابة؟

في مثل هذه الأجواء البائسة، يسهل تصوّر أشكال الضيق التي كان اليهود يعانون منها في جميع أنحاء ألمانيا. وقد لوحظ ارتفاع نسبة الانتحار في صفوفهم، إلاّ أنّ مثل هذا الأمر ظلّ طيّ الكتمان. وبات الجميع تقريباً مقتنعين بأنّ هذه العاصفة الهوجاء، لن تكون عابرة كسابقاتها، بل قد تكون القاضية. وقرّر الكثيرون مغادرة ألمانيا، فبلغ عدد الذين غادروها عام 1939، مائتين وخمسة

عشر ألف يهودي. وهنا أيضاً شاءت الحكومة الألمانية أن تستغلّهم حتى في رحيلهم، ففرضت على كلّ مهاجر، ضريبة تعادل ربع ما يملك، وحظّرت عليه حملَ ولو مارك واحد خارج البلاد. وفي هذه الأثناء، جرت داخل ألمانيا وخارجها، أحداث زادت العلاقات بين ألمانيا والدول الأخرى، ولا سيما فرنسا، تأزّماً، وذلك إثر مقتل أحد الموظفين النازيين في السفارة الألمانية في باريس. فوَصَف المسؤول الأعلى في جهاز الدعاوة النازية، وهو اللواء "جوزيف غوبلز"، هذا الاغتيال، بالاستفزاز غير المسؤول، واتخذ منه ذريعة ليشنّ حملة عارمة ضدّ اليهود، وقد أعلن فيها أنّ البرنامج التطهيري بات جاهزاً، وهو على وشك التطبيق. وكان أن حلّت ليلة الهلع الأكبر، التي باتت تعرف منذ ذلك الحين "بليلة الكريستال"، في الساعة الواحدة والنصف من يوم العشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1938. هذه الليلة الليلاء كُتِب عنها الكثير، وصُوّرت في أفلام مشهورة. إلا أني رأيت أن أختار مقطعاً واحداً من كتاب وضعه عام 1939، مؤرّخ يهودي يدعى "ابرام ساخار"، تحت عنوان "الشارة، رمز الألم". كتب يقول:

« صرّحت إحدى الراهبات في أحد المشافي، التي غصّت بسرعة بالقتلى والجرحى، أنها لم تتصوّر يوماً أنّ بوسع البشر أن يُقدِموا على ارتكاب مثل هذه الفظاعات. فلقد ظنّت نفسها في مسلخ! وتواصلت الاعتداءات على المحال اليهودية طوال الليل. وكان أفراد الشرطة على ظهور جيادهم، قد أحاطوا أياديهم بأكفّ من جلد، كي لا تؤذيهم شظايا الزجاج. وكانت البضائع والأثاثات كلّها تلقى في الشارع. وعند الفجر، كانت الجماهير التي رافقت العصابات الهوجاء، من الكثافة بحيث اضطرّت الشرطة لتغيير خط السير. وعند الظهر، كانت شوارع

برلين، حيث تجمّع معظم التجار اليهود، تبدو وكأنها تعرّضت لقصف جوي. وقد تمت مطاردة اليهود طوال النهار. فكان من الممكن في كل لحظة مشاهدة يهودي استبدّ به الرعب، وهو يركض أمام عصابة نازية تطارده... وكان ثمة مكبر للصوت جبّار، يعلن باستمرار: يرجى من كل يهودي ينوي شنق نفسه، أن يضع في فمه ورقة تحمل اسمه، كي يتسنى لنا معرفته. »

تواصلت هذه المطاردة الجماعية لليهود حتى مساء اليوم نفسه، ثم هدأ كل شيء، كأنما بعصا سحرية. وقد أُطلِق على هذه العملية النازية اسم "قضية اسحق". وكان رصيدها أكثر من مائة قتيل، واعتقال خمسة وثلاثين ألف يهودي، أُرسل عدد منهم إلى معتقلات الإبادة الشهيرة، ونَهب سبعة آلاف وخمسمائة محلّ، وحَرق ستّمائة كنيس.

سجّلت "ليلة الكريستال" مرحلة اللاعودة في خطة اللاسامية النازية. وأية كانت ردود الأفعال عليها، في الداخل والخارج، فقد جوبهت كلّها باستعلاء ولامبالاة. ومضى هتلر إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ توجّه إلى الرأي العام العالمي، بوصفه هذه المرة، قائداً عالمياً، كما كان يدّعي، وهو يعلن تصميمه على إنشاء نظام عالمي جديد، يرمي إلى مكافحة اليهود في العالم كلّه، لا سيما في تضامنهم مع الشيوعيين الذين يسعون للسيطرة على العالم بأسره. فنقل بذلك المعركة من مستوى المجابهة الداخلية بين اليهود وألمانيا، إلى مستوى مجابهة كونية بين الحضارة الإنسانية، التي كان يدّعي تمثيلها، والمؤامرة اليهودية الشيوعية الكونية. وهكذا بات كل إجراء سياسي محكوماً بهذا المنظور، ما كان منه صادراً عن آلته النازية، أو ما كان منه صادراً عن سواه من المؤيدين أو المعارضين. ولقد ثبت

أنه حينما كانت جيوشه تتحرّك وتغزو، كانت الدولة المحتلّة تسارع إلى الأخذ ببرامجه اللاسامية. ففي النمسا، إثر استيلائه عليها عام 1938، نُفّذ البرنامج على يد النمساويين أنفسهم، حيال المائتي ألف يهودي، الذين كانوا فيها، والذين كانوا لا يقلّون عن 300.000! وما أن أُعلنت الحرب العالمية الثانية، حتى طُبّقت "قوانين نورمبرغ" حيثما دخلت الجيوش الألمانية، وأعيدت الحياة إلى "الغيتو" كما عرف في السابق، وفُرِض حمل "شارة العار"، وما إليها من إجراءات القمع النازية.

بالطبع، كل ذلك لم يحدث دون ردود أفعال من هنا وهناك. إلاّ أنها كانت قليلة. وكان من أهمّها احتجاجان صدرا عن "عصبة الأمم"، انتهى أوّلهما بانسحاب ألمانيا من هذه الهيئة الدولية، وانتهى الثاني إلى تشكيل مجلس للاجئين الألمان برعاية أميركية. وكان السياسي البريطاني "تشامبرلين" قد أعرب، من جهته، عن غضبه في مجلس العموم البريطاني، وهو بصدد الحديث عن "ليلة الكريستال". كما أنّ الرئيس الأميركي "فرنكلين روزفلت" استدعى سفير الولايات المتحدة في برلين. ثمّ إنّ مجموعات تنتمي إلى أحزاب مختلفة، في كل من بريطانيا والولايات المتحدة، أخذت تنظّم في كلا البلدين، حملات من المقاطعة للبضائع الألمانية.

تلك إذن كانت مرحلة اللاعودة في برنامج هتلر. وسرعان ما تبدّت الحقائق المروّعة التي كان يعدّ لها إعداداً حاسماً. فقد كان هاجس هتلر إنقاذ أوروبا من اليهود. وما كان ذلك ليعني حتى عام 1938، أقلّه بالنسبة إلى معظم المسؤولين النازيين، سوى طردهم منها. فأنشئ مكتب في برلين لهذا الغرض، في شهر كانون الثاني من عام 1939، وقد تحوّل إثر إعلان الحرب في شهر أيلول من العام

نفسه، إلى أحد أهم مراكز المخابرات النازية، بقيادة المدعو "راينهارت هيدريش" (Reinhardt Hey drich)، فيما كان مكتب آخر بقيادة المدعو "أدولف آيخمان" (Adolf Eichmann)، سيتولّى بعد فترة وجيزة، أول عملية إبادة عرقية منظمة في التاريخ الحديث.

كانت مهام هذا المكتب تنقسم إلى قسمين، الأول منهما كان يخطّط لتهجير اليهود من أوروبا، وكان عددهم، إبان إعلان الحرب، يقارب عشرة ملايين. يومها كانت حشود اليهود تُجمع في مراكز رئيسية، ثم تُنقل إلى معسكرات خاصة، أعدّت بالقرب من الحدود الروسية - البولونية. وكان الفلاّحون من اليهود يُجمَعون أولاً في مناطق "الغيتو" الواقعة في المدن الكبرى، مثل "فرسوفيا" و"لودج" و"كراكوفيا" و"كوفنو" في بولونيا. ثم أُعدّ مخطّط آخر، إثر احتلال فرنسا، أُطلق عليه اسم "خطّة مدغشقر"، إذ كان الألمان يومذاك يخطّطون مع إدارة "فيشي"، لنقل جميع اليهود إلى تلك الجزيرة. إلاّ أنّ جميع هذه المخططات أُلغيت، وحلّ محلّها مشروع آخر سمّي "الحلّ النهائي"، وهو كان يعني بكل بساطة إبادة اليهود على نحو تام. ويرجّح بعض الباحثين أنّ هذا الحلّ تمّ تبنّيه نهائياً، ما بين نهاية عام 1940 وبداية عام 1941، وقد كلّف "راينهارت هيدريش" شخصياً بهذه المهمة، وأمرت جميع الإدارات الحكومية والأمنية، بالتعاون التام والمباشر معه. ولقد ثبت أنّ ما من أحد كان قادراً على اتخاذ مثل هذا القرار البالغ الخطورة، سوى هتلر شخصياً، وذلك بالتنسيق مع أبرز معاونيه، أمثال "غورينغ" (Goering) و"غوبلز" (Goebbels) و"هيملر" (Himmler)، و"هيدريش" (Heydrich). ويبدو أنّ هول مثل هذا القرار قد لجم مَن اتخذوه دون الإعلان عنه على الملأ، حتى ضمن بعض الدوائر النازية، خشية تسرّبه إلى الأوساط الألمانية،

ومن ثمّ إلى الأوساط العالمية. غير أن تطبيقه كان قيد التنفيذ بكلّ دقة وقسوة. ولم يعلن عنه "هيدريش"، في صفاقة وغطرسة، إلاّ خلال شهر كانون الثاني من عام 1942، بعد إذ كانت الجيوش الألمانية قد بسطت سيطرتها على أوروبا، وهدّدت بالزحف على روسيا، فيما كانت بدأت زحفها أيضاً على شمال أفريقيا ومصر. وفي الفترة التي كان هتلر يُعِد فيها العدّة للهجوم على روسيا، أصدر أوامره بإبادة جميع الموظفين الشيوعيين واليهود على السواء، فيما كانت قوة خاصة قد أُنشئت من أجل إبادة اليهود، ورافقت تقدّم الجيش الألماني الصاعق في روسيا، حيث أطبق على مليون ونصف المليون من اليهود الروس، في حين استطاع مليونان آخران أن يهربا في اتجاه الشرق. وقد نفّذت الأوامر بكل دقّة، ويعترف بعض المؤرّخين أنّ قسماً ممّن نفّذوها أو أشرفوا على تنفيذها، كانوا من اليهود أنفسهم. وأما الأساليب المتّبعة، فكانت الرشاشات والمقابر الجماعية. وقد ورد بهذا الشأن، في إحدى الوثائق الموقّعة باسم "هرمان غراب" (Hermann Grabe)، وبتاريخ 1942/10/5، الوصف التالي:

« توجّهنا على الفور، دون صعوبة، نحو الخنادق. وإذ كنّا نقترب من التلّة، سمعت رشقات الرشاش. وكان الذين نزلوا من الشاحنات، من رجال ونساء وأطفال، قد أُرغموا على نزع كامل ملابسهم، بمراقبة جندي من القوات الخاصة (SS)، يحمل سوطاً. ووضعوا ملابسهم في أماكن محدّدة، من أحذية وثياب وملابس داخلية. ورأيت كمية من الأحذية، يقارب عددها 800 أو 1000، وكمية كبيرة من الألبسة الداخلية. ما كانوا يبكون، ولا يشكون. كانوا كلّهم عراةً، وقد تجمّعوا كلّهم ضمن أسرهم. وكانوا يقبّلون بعضهم بعضاً، ويودّعون بعضهم بعضاً، في انتظار الإشارة من الشرطي حامل السوط. أمضيت هنا ربع

ساعة، لم أسمع خلاله لا شكوى ولا رجاء. وراقبت أسرة مؤلفة من ثمانية أفراد، الرجل والمرأة في الخمسينات، وأعمار أولادهم الثلاثة تتراوح بين السنة والسنتين والعاشرة، ومعهما شابان يقاربان العشرين والرابعة والعشرين. وكانت هناك أيضاً سيّدة ذات شعر أبيض، وهي تحمل طفلاً تغنّي له. كانت العيون مليئة بالدموع. كان ثمّة أب يمسك بيد طفل في العاشرة، وهو يحدّثه في هدوء. ورفع الأب يده إلى السماء، وبدا وكأنه يفسّر له شيئاً ما. وعندها تلفّظ رجل الشرطة بكلمات قاسية لزميل له، فمضى هذا واختار عشرين شخصاً، ومضى بهم خلف المرتفع الصغير. واقتربت من هذا المرتفع، فشاهدت في الحفرة مشهداً كابوسياً، إذ كانت هناك كتل من الأجساد العارية، وقد رُصّت إلى بعضها البعض. وكانت رؤوسها جميعاً مرئية، وفي كل رأس ثقب نازف في وسط الجبين، ينسكب منه دم على الأكتاف. وكان بعضها لا يزال يبدي حراكاً، وبعضهم يرفع اليد قليلاً إشارة إلى أنهم على قيد الحياة. وكانت الحفرة شبه مليئة. وقدّرت عدد الجثث بألف جثة. فبحثت عمّن عساه نفّذ هذا العمل البربري. فرأيت جندياً جالساً على حافّة الحفرة، وقد تدلّت قدماه إلى أسفل، وفي فمه سيجارة. ثم نزل جموع العراة إلى الحفرة، واصطفّوا وفق التوجيهات المعطاة لهم. وفجأة طرقت مسمعي رشقات رشاش... والتفت فرأيت شاحنة جديدة، فيها حمولة بشرية، وكانت هذه المرّة من المرضى والمعاقين... »

خلال عام 1942، وصلت من ألمانيا "شاحنات الغاز"، وهي إحدى "اختراعات" هتلر، إذ وجدها أكثر فعالية وأقلّ دموية. وفي عام 1943، كانت الإبادة قد أُنجِزت، وقد قدّر عدد ضحاياها من اليهود في الاتحاد السوفييتي المحتلّ وحده، ما بين 1.500.000 و2.000.000!

ثمّة سؤال كبير يُطرح، ولا مفرّ من مواجهته:

إزاء مخطط إبادة بمثل هذا الحجم، داخل ألمانيا وخارجها، هل وُجد مَن يعارض، أو مَن يُبطن أقلّه، معارضة ما، أو من يُعلنها، في وجه جهاز قمعي، قلّما وجد ما يشبهه أو يدانيه، تنظيماً ووحشية، وشمولاً؟

من المؤسف أنّ الإجابة عن هذا السؤال الخطير، تبدو لي وقفاً على بعض الباحثين الغربيين حصراً، ويكادون كلّهم يكونون يهوداً. فسأحاول بدوري أن أجيب، في أقصى قدر من الموضوعية والمسؤولية.

ولأبدأ بمعاوني هتلر نفسه، على ما في ذلك من غرابة، لأن هناك من الباحثين من يدّعون أن بعض جنرالات الجيش الألماني، كانوا مشمئزّين من مخطّط الإبادة هذا، ولكن أحداً منهم لم يذكر اسم هذا أو ذاك منهم، ولا المناسبة التي قد يكون تحرّك، أو تلفّظ بكلمة ما، خلالها... ثم إنّ ما كان يجري على مدى سنوات، في ألمانيا وفي مختلف المناطق والبلدان التي احتلّتها قوّات هتلر، يثبت أنّ الآلة النازية كانت دقيقة وحاسمة كالموت، وأنّ ما قيل عن محاولات اغتيال لهتلر، لم يحدث إلا في السنتين الأخيرتين، بعد أن استردّت روسيا والحلفاء أنفاسهم، وبدؤوا الهجوم المعاكس. إلاّ أنّ تنفيذ مخطّط الإبادة كان هو هو في معسكرات للإبادة، لا حصر لها، كانت قد أقيمت على امتداد السلطة النازية. ولقد ثبّت العديد من الباحثين أنّ مَن أُبيد فيها من غير اليهود، يفوق ثلاثة أضعاف مجمل ما أُبيد من اليهود، منذ أن بدأ هتلر حملته عليهم.

ومع أنّ جميع البلدان التي احتلّتها الجيوش الألمانية، اضطرّت للتعاون معها في تنفيذ برنامج الإبادة هذا، فقد ادّعى بعض الباحثين أنّ هناك دولاً وُجد فيها من المسؤولين مَن رفضوا

التعاون، وقد ذكر في هذا المجال، اسم كل من رومانيا، وبلغاريا، والمجر، وفنلندا، وهولندا. كما قيل أنّ ملك الدانمارك، "كريستيان" هدّد بحمل "شارة العار" الخاصة باليهود، إذا أصرّ الألمان على تنفيذ برنامجهم في بلاده، وقد نجح في تهريب جميع يهود الدانمارك، إلى السويد، التي وقف الاحتلال النازي دون حدودها. ويبدو لي أنّ كثيراً من الغموض، وربما من التشويش التاريخي المقصود، يكتنف مثل هذه الأمور والبلدان كلّها، وأنه يحتاج إلى دراسة جذرية، موضوعية وافية.

ثمّة حقيقة تاريخية ثابتة، وهي أنّ يهوداً كثيرين في هذه البلدان، وفي غيرها، مثل فرنسا وإيطاليا، قد أُنقذوا بفضل جهود خاصة من جهة، وجماعية من جهة ثانية، قام بها أفراد وجماعات، منها ما هو ديني مسيحي، ومنها ما هو مدني صرف، ومنها ما هو شيوعي، وذلك بدافع إنساني صرف، وأحياناً كثيرة، بثمن غالٍ، كان حياةَ الكثيرين ممّن كانوا يتطوّعون له. من هؤلاء، اسم كاهن فرنسي يدعى "الأب بيير" (l'Abbé Pierre)، قيّض له أن يشتهر منذ مطلع عام 1954 في فرنسا كلّها، ومن ثمّ على نطاق العالم، بعمل إنساني جبار، لصالح المهمّشين والمعدمين في الأرض، حتى وفاته قبيل ميلاد عام 2007. وفي هذا الصدد، كتب أحد الباحثين من غير اليهود، وهو كاهن كاثوليكي أميركي، يدعى "ادوارد فلانيري" (Edward Flannery)، في كتاب له بعنوان "ضيق اليهود"، صدر في نيويورك عام 1965، يقول فيه بالحرف الواحد:

« إنّ مئات الألوف من اليهود الذين نجوا من المصير المشؤوم الذي كان ينتظرهم، يدينون بحياتهم للشجاعة التي أبداها أفراد كثيرون أو مجموعات منعزلة... والحقيقة أنّ تاريخ هذه الأعمال البطولية، هو

الصفحة الجميلة الوحيدة في سجل "الملحمة الهتلرية". وهذا التاريخ ينتظر حتى اليوم من يكتبه على نحوٍ وافٍ... فهناك أناس ملأهم دوافع إنسانية، ودينية، قد خاطروا بحياتهم، بل بذلوها أحياناً، من أجل إنقاذ يهود، أو من أجل تجميد حركة الإبادة. ولقد وجدوا حقّاً في جميع البلدان، وفي جميع الطبقات الاجتماعية، من مدرّسين، وأطبّاء، ومحامين، وموظفين، وعمّال، وأمّهات، وسياسيين، بل وجنود، من أخفوا، وغذّوا، وهرّبوا يهوداً... وقد نظّم عدد منهم شبكات مقاومة، مضت في عملها حتى إنشاء "مصانع صغيرة"، يصنعون فيها "فيزات السفر" المزوّرة، وهويات البطاقة الشخصية، وبطاقات التموين. وإنّ هذه الروايات التي تملأ القلب دفئاً، لتشكّل دراسة حافلة بالمهارات البشرية. وفي الواقع، فلقد استخدمت جميع الحيل الممكنة، لإحباط حيل "الصيادين النازيين". »

وهنا يُطرَح السؤال الكبير، الذي لا مفرّ منه، حول موقف الكنائس المسيحيّة، في ألمانيا وخارجها، من اللاسامية النازية، وبرنامجها المعلن والمطبّق...

هذا السؤال الخطير، لم يلقَ حتى اليوم، في رأيي، وضمن حدود مطالعاتي، جواباً شافياً، لا في نطاق الكنائس الكاثوليكية، ولا في نطاق الكنائس البروتستانتية على تنوّعها، في أوروبا كلّها، ولا في الكنائس الأرثوذكسية، في روسيا وسواها من بلدان فيها غالبية أرثوذكسية.

والصحيح أنّ ثمّة أسماء تُذكر، هنا وهناك، أحياناً في شيء من الاعتزاز والتباهي، وأحياناً أخرى في شيء كثير من الخجل والحرج، كلما أثير هذا الموضوع. والحقيقة أنّ هذه الأسماء تبدو لي، على أهمية أصحابها، بمثابة الأشجار القليلة التي يُراد لها أن تخفي

الغابات من الكنائس التي تدّعي أنها تغطي هذه البلدان الكثيرة، بمسؤولياتها وتوجيهاتها والتزاماتها، والتي ظلّت في الواقع صامتة صمت القبور، إزاء الحقد النازي المدمّر، والموت المبرمج الذي حمله للملايين، في غير حقّ على الإطلاق. ففي ألمانيا بالذات، يُذكر أول ما يُذكر، اسم رئيس أساقفة "مونستر"، الكردينال "فون غالن" (Von Galen)، والمطران "ليشتنبرغ" (Lichtenberg) من الجانب الكاثوليكي، كما يُذكر القسّيسان "ديتريش بونهوفر" (Dietrich Bonhöffer)، و"نيمولر" (Niemöller)، من الجانب البروتستانتي. وفي فرنسا، يُذكر خصوصاً اسم الكردينال "ساليج" (Saliège)، والأب الشهير "بيير"، والصحفي الفرنسي "جورج مونتارون" (Georges Montaron)، الذي كان مؤسّس أول صحيفة فرنسية، تنطق بلسان المقاومة إبان الاحتلال النازي، تحت اسم "الشهادة المسيحيّة" (Témoignage Chrétien).

ثمّة موقفان على مستوى الفاتيكان، وهو المرجع الديني الأعلى في الكنيسة الكاثوليكية، لا بدّ من الإشارة إليهما. كان الأول منها، "الرسالة العامة" التي أصدرها البابا "بيوس الحادي عشر" (1922–1939) عام 1937، والتي تبدأ بهاتين الكلمتين: "بحزن عظيم"، وقد أدان فيها على نحو صريح ورسمي، العنصرية الهتلرية والنهج القاتل. ويعود الموقف الثاني إلى البابا "بيوس الثاني عشر" (1939–1958)، الذي كان يكتفي في رسائله الرسمية وتصريحاته العامة، بالإشارة على نحو غير مباشر، إلى العنصرية النازية، في الوقت الذي كان يوعز فيه دائماً إلى جميع السفارات البابوية، والمؤسسات الكاثوليكية في أوروبا كلّها، بالسعي إلى حماية اليهود وإنقاذهم. بالطبع، مثل هذين الموقف والتوجيه، أثار كثيراً من الانتقادات، إذ

كانت ترى فيه تهرّباً من مواجهة الحقيقة النازية بكلّ جرأة ومسؤولية. وقد تناول مسرحي ألماني، يدعى "رولف هوخهوت" (Rolf Hochhut)، هذا الموضوع بإدانة قاسية، في مسرحية له بعنوان "النائب"، وهو يعني بذلك "نائب السيد المسيح"، وقد عرضت في برلين لأول مرة عام 1963.

ليس لي في هذه الدراسة العامة، أن أستفيض في هذا الموضوع البالغ الأهمية والشائك. ولكني أرى من الضروري أن أتوقّف قليلاً، في ختام هذا الفصل، مع ما جاء بهذا الصدد، في كتاب مشهور، ضمّ تصريحات ومواقف البابا "يوحنا بولس الثاني" (1978–2005)، حول تاريخ الكنيسة الماضي عموماً، وحول موقفها من اليهودية واليهود خصوصاً. إنه كتاب "عندما يطلب البابا الغفران"، الصادر عام 1997، في ثلاث لغات دفعة واحدة، هي الإيطالية والانكليزية والفرنسية، وقد وضعه صحفي إيطالي يدعى "لويجي أكاتوللي"، كان صديقاً شخصياً لهذا البابا. وحرصتُ على نقله إلى العربية، ثم نشرتُه في دمشق خلال الشهر الأول من عام 2011. ففي هذا الكتاب الاستثنائي بجدّته وجرأته، إدانة صريحة وغير مسبوقة، لكل ما بدر من الكنيسة الكاثوليكية، على مستوى المسؤولين فيها، والأفراد، والمؤسّسات، من مواقف وتصريحات سلبية حيال اليهود واليهودية، وذلك منذ عهد الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع الميلادي، حتى الوقت الحاضر. ومع أن الموضوع يقتضي وقفة طويلة، فإني سأقصر الكلام على تصريحين فقط، للبابا "يوحنا بولس الثاني"، أنقلهما بحرفيتهما من هذا الكتاب بالذات. وأعتقد أنّ فيهما من الأسف والاتضاع والصدق والجرأة، من مسؤول كنسي على مستوى البابا المذكور، ما يغني من جهة، مرحلياً، عن الاستفاضة في هذا

الشأن، وفي حجم دراستي اليوم، وما يستدعي أيضاً وخصوصاً، من جهة ثانية، من جميع مَن يتحمّلون مسؤوليات عليا في الديانات جميعاً، من حيث تعاملهم عبر التاريخ كلّه، مع أتباع الديانات الأخرى، وقفة مماثلة أو أقلّه شبيهة.

جاء في التصريح الأول، وهو بتاريخ 1987/8/19، قوله بالحرف الواحد:

« لا يخامرنا أي شكّ في أنّ الآلام التي تحمّلها اليهود، هي أيضاً بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية، مدعاةٌ لألم صادق، لا سيما إذا ما فكّرنا في اللامبالاة، وأحياناً في النقمة التي فرّقت بين اليهود والمسيحيين، في هذه الظروف التاريخية الخاصة. أجل إنّ ذلك يثير فينا تصميماً أكثر حزماً، على التعاون من أجل العدالة والسلام الحقيقي. »

وجاء في التصريح الثاني، وهو بتاريخ 1991/4/18، قوله بالحرف الواحد:

« في تضامن عميق مع هذا الشعب، وفي اتحاد مع جماعة الكاثوليك بكاملها، أودّ أن أُحيي ذكرى هذه الأحداث الرهيبة. وهي اليوم بعيدة، ولكنّها محفورة في ذاكرة الكثيرين منّا: إنّ أيام "المحرقة" كانت بحقّ، ليلة من ليالي التاريخ، سُجّلت فيها جرائم لا تُطاق، ضدّ الله وضدّ الإنسان. »

أخيراً، لا بدّ من استعراض، ولو وجيز، لوقفة كنيسة فرنسا الكاثوليكية حيال اليهود عامة، وحيال "المحرقة" خاصة. ذلك بأنه قد صدر عنها بتاريخ 1997/9/30، "إعلان استغفار" كما شاءت أن تسمّيه رسمياً، أقرّت فيه بخطيئتها حيال النازية وممارساتها، إبان الاحتلال النازي لفرنسا. وقد تُلي رسمياً، في احتفال مهيب، في بلدة "درانسي" (Drancy)، بالقرب من باريس. وفي هذا الإعلان،

موقف رسمي جديد، وتصميم على طي صفحة ماضي العلاقات المسيحيّة - اليهودية بعامة، والعلاقات الكاثوليكية الفرنسية - اليهودية بخاصة. سوف أختار من هذا الإعلان الطويل، بضع فقرات فقط، ففيها ما يُغني عن شرح كثير، ويفتح آفاقاً جديدة. وإني لأستقي هذه الفقرات جميعاً من كتاب "عندما يطلب البابا الغفران"، في ترجمته الفرنسية، وقد ورد فيها كملحق لم يرد ذكره، لا في نصه الإيطالي، ولا في نصه الإنكليزي. تقول الفقرة الأولى:

« وفي شهر شباط عام 1941، وجد في معسكرات الاعتقال الفرنسية، قرابة /40.000/ يهودي. وفي حين كان البلد خاضعاً لاحتلال جزئي، منهاراً ومصدوماً، كان المسؤولون في الكنيسة يعتبرون أن واجبهم الأول هو حماية المؤمنين، وتوفير الشروط المثلى لبقاء مؤسّساتهم. وإن منح الأولوية المطلقة لهذه الأهداف، المشروعة في ذاتها، قد نجمت عنه نتيجة مؤسفة، وهي تغييب مقتضى الإنجيل في احترام كلّ إنسان خُلق على صورة الله. »

وتقول الفقرة الثانية، وهي تابعة للسابقة:

« وقد أضافت السلطة الكنسية إلى هذا الانكفاء في الرؤية الضيقة لرسالة الكنيسة، غياباً في إدراك صميم المأساة الكونية التي كانت قائمة، والتي كانت تهدّد مستقبل المسيحيّة بالذات. ومع ذلك، فقد كان هناك، لدى المؤمنين والكثيرين من غير الكاثوليك، توقّع عظيم لكلمات تنطق بها الكنيسة، وتذكّر فيها – وسط تشوّش الأفكار – برسالة يسوع المسيح. »

وتقول الفقرة الثالثة، وهي أيضاً تابعة للسابقة:

« وفي غالبيتها، ظلّت السلطات الروحية، المرتبكة في ولاء وخضوع تجاوزا الطاعة التقليدية للسلطة القائمة، قابعة في موقف من الامتثال والحذر والغياب، أملَتْه على نحو ما، الخشية من إجراءات انتقامية حيال أعمال وحركات الشبيبة الكاثوليكية. فلم يدرك المسؤولون الكنسيون أن الكنيسة المدعوّة آنذاك لأداء دور بديل عن هيئة اجتماعية مفكّكة، كانت تملك في الواقع سلطة وتأثيراً ضخمين، وأنها إزاء صمت سائر المؤسّسات، كان يمكن لكلمتها، بدَويّها، أن تحول دون وقوع الكارثة. ويجب أن نتذكّر أننا كنّا، إبان الاحتلال، لا نزال نجهل البعد الحقيقي لعملية الإبادة الهتلرية. وإن كان يصحّ أنه يسعنا ذكر العديد من مبادرات التضامن، إلا أنه يجب أن نتساءل ما إذا كانت مبادرات محبة وتعاون، تكفي لتحقيق مقتضيات العدالة، واحترام حقوق الشخص البشري.»

وتقول الفقرة الرابعة، وهي أيضاً تابعة لسابقتها:

« وهكذا، ففي مواجهة تشريع لاسامي أصدرته الحكومة الفرنسية – بدءاً من القانون الخاص باليهود، في تشرين الأول عام 1940، والقانون الصادر في حزيران عام 1941، هذين القانونين اللذين انتزعا من فئة من الفرنسيين، حقوقهم كمواطنين، واللذين فرزاهم ووضعاهم في وضع كائنات دنيا داخل الأمة – وفي مواجهة قرارات الاعتقال في معسكرات خاصة باليهود الغرباء، الذين ظنّوا أنه بوسعهم الاعتماد على حقّ اللجوء وعلى الضيافة الفرنسية، لا بدّ لنا من الإقرار بأن أساقفة فرنسا لم يتّخذوا موقفاً معلناً، فأيّدوا بصمتهم هذه الخروق الفاضحة لحقوق الإنسان، وتركوا الطريق مفتوحاً أمام هذه العتمة القاتلة. »

بعد كل هذا الإقرار الخطير بالتقصير الأخطر، هل من حاجة إلى أي تعليق؟

وإني لأرى في ختام هذا الفصل المؤلم والبشع، أن أترك الكلام الفصل للقسّيس البروتستانتي الألماني، "نيمولر" (Niemöller)، في ما كتبه عام 1945. قال:

« ما من أحد يريد أن يتحمّل مسؤولية الخطيئة. ما من أحد يريد أن يُقرّ بخطيئته، ولكنه يسرع إلى إدانة جاره. ولكن هذه المسؤولية قائمة، وليس ثمة أي شك بهذا الشأن، حتى لو لم تكن هناك من مسؤولية سوى المسؤولية التي تترتّب على وجود ستة ملايين حُقّ من الفخار، تحتوي رماد جميع اليهود الأوروبيين الذين أُحرقوا. وأن هذه المسؤولية لتضغط بثقلها على الشعب الألماني، وعلى سمعته، كما هي تضغط على المسيحيّة جمعاء. فإنّ هذه الأمور حدثت بالفعل في حضارتنا، وحدثت باسمنا... إني أشعر بمسؤولية شخصية لا تقلّ عن مسؤولية أي جندي ألماني. »

الفصل الثاني عشر

حروب داخلية

كانت الحرب العالمية الأولى كارثة على جميع من طالتهم فصولها. وما كان لليهود أن ينجوا منها. إلاّ أنّ ما جلبت لهم تلك الحرب الطويلة من أهوال، نتيجة الحروب الداخلية التي نشبت بين الجانبين المتحاربين، فاق كلّ توقّع، لا سيما في الجبهتين الشرقيتين، البولونية والروسية. وقد اتضح أنّ بداية الحرب عرفت جموداً ملحوظاً في مشاعر اللاساميين. ولكنّها ما عتّمت أن هُيّجت فور حدوث هزائم متبادلة، هنا وهناك... فكان لا بدّ من تفسير ما لهذه الهزائم... وكان إذن لا بدّ من العثور على "كبش فداء"، تُلقى عليه مسؤوليتها. وطفا على السطح السبب التقليدي، التاريخي والتلقائي، فكان "اليهود"! ولكم يصحّ القول إنّ جميع البلدان الأوروبية المعنيّة القديمة والجديدة، تساوت في هذا الشأن، ومن قبلها روسيا القيصرية، التي يبدو أنّ الأذى الأكبر... جاء منها!

ففي روسيا، ما إن أعلنت الحرب، حتى ألغيت "القوانين المؤقتة" الشهيرة، التي كانت تعود إلى عام 1881. واستُدعي اليهود للالتحاق بالجيش، دفاعاً عن روسيا. ولكن سرعان ما اتهموا، لأسباب كثيرة، بالتعاطف مع الألمان، ومن ثم بالخيانة، فأُرسِل الآلاف منهم، دون محاكمة، إلى مجاهل سيبيريا. وهرب الكثيرون أيضاً، للسبب عينه، من وجه الجيوش الروسية إبان انتصاراتها الأولى... ولكن ما إن

مُنيت بانتكاسات هنا وهناك، أمام الجيوش الألمانية، حتى سرت الشائعات عينها بتواطؤ اليهود مع الألمان، فأحدثت ردود أفعال عشوائية، على مستوى الجيش والشعب الروسيين، كانت مزيجاً من مجازر جماعية وإعدامات فورية بحقّ اليهود، ونهب لا يرحم...

وفي ألمانيا، حدث النفير العام، واستدعي جميع أبناء الوطن للدفاع عنه. فلبّى اليهود بكثافة، أملاً منهم بالمساهمة في انتصار وطني، يضطرّ السلطات للاعتراف لهم أخيراً، بأحقّيّتهم في الحقوق المدنية الكاملة، أسوة بسائر الألمان. ويقول أحد الباحثين بهذا الشأن وهو الكاتب الأميركي "ادوارد فلانيري" إن اليهود آنذاك كانوا يَعدّون في ألمانيا، قرابة ستمائة ألف، وإنّ مائة ألف منهم التحقوا فوراً بالجيش، بل إنّ ثمانين بالمائة منهم كانوا في الخطوط الأمامية... ولكن ههنا أيضاً، ما إن سُجّلت بعض الهزائم، حتى برزت النزعة اللاسامية القديمة، ووجّهت أصابع الاتهام إلى اليهود بتعاونهم مع "أعداء الوطن". إلا أنّ وزير الدفاع الألماني طالب عام 1916، بإجراء إحصائية دقيقة لليهود، بقصد معرفة نسبة وحجم مساهماتهم الفعلية في المجهود الحربي العام. فثارت من جديد، نتيجة لهذا الإجراء، مشاعر لاسامية جارفة، فجابهها اليهود بدراسات موثّقة، تثبت مساهماتهم الواسعة في المجهود الحربي، بل تثبت التفاوت الشاسع بين عددهم الفعلي، ونسبة حضورهم الكثيف في صفوف الجيش الألماني، وهي تؤكّد أنّ الكثيرين منهم نالوا ترقيات مرموقة، على الرغم ممّا يسود التعامل في الجيش، من صنوف التمييز العرقي المتّبع أصلاً حيالهم.

إلاّ أنّ نهاية الحرب لم تكن، كما يُفترض، نهاية مآسيهم، ذلك بأنه ظهر في جميع الأطراف المتحاربة بالأمس، مَن يتّهمهم، من

جهة أولى، بأنهم كانوا وراء إشعال الحرب، ومن جهة ثانية، بأنهم كانوا وراء خسارتها. وكانت ردود الأفعال، من هنا وهناك، متضاربة جداً. ففي حين كانت ثورة عام 1917 في روسيا، قد منحت الجميع المساواة المدنية الكاملة، فإنّ انتصار البولشيفيين في العام التالي، كان كارثة بالنسبة إليهم، إذ كان العديد من قادتهم يهوداً معروفين، مثل "تروتسكي" (Trotsky)، و"زينوفييف" (Zinoviev)... وكان ذلك مدعاة لاتهام اليهود بأنهم هم مَن صنع الثورة البولشيفية. وانصبّت بالتالي أحقاد اللاساميين من جميع البلدان على الثورة البولشيفية، وإذن على اليهود أنفسهم. وأما أن يكون معظم هؤلاء القادة، قد أمضوا فترة هامة من حياتهم في بلدان مختلفة وفي ظروف بائسة، وأن يكونوا قد قضوا في سبيل هذه الثورة، التي كانوا يرجون منها تحقيق المساواة الكاملة بين شعوب الأرض، فتلك أمور لم تكن لتشفع لهم، ولا لعموم اليهود!...

ويمضي بعض الباحثين إلى أنّ الحرب الأهلية الرهيبة، التي نشبت بين البلاشفة وخصومهم، والتي دامت سنتين كاملتين (1918–1920)، والتي قضت على عشرين مليون إنسان، حتى انتصار البلاشفة الحمر، إنما كانت في الوقت نفسه حرباً مزدوجة على اليهود، إذ كان كل طرف فيها يعتبرهم أعداء له، الأمر الذي كان يتسبّب في مجازر واضطرابات متواصلة هنا وهناك. ولكن عندما قُيّض النصر للينين، فقد سعى بحزم كلّي إلى إيقاف المجازر، ونجح. إلاّ أنّ ذلك الحظر لم يكن ليخنق مشاعر اللاسامية المتوارثة، والتي كانت تسكن جيوشه حيال اليهود، إذ كانوا، فضلاً عن كل ذلك، يعتبرونهم طبقة بورجوازية مستغِلّة، تستحقّ المعاقبة.

ولما عُقِد مؤتمر السلام في فرساي، عام 1919، كان اليهود

يتطلّعون إلى معرفة نتائجه، فسارعوا إلى إرسال مندوبين لهم إليه، من أجل ضمان حقوقهم في المعاهدات المرتقبة. إلاّ أنّ هؤلاء المندوبين لم يكونوا دائماً موحّدي الرأي والرؤية. ففيما كان اليهود في روسيا والبلدان المجاورة، يسعون لضمان حقوقهم بوصفهم أقلّيات حريصة على الحفاظ على تقاليدها الدينية والعرقية، كان مندوبو اليهود، القادمون من البلدان الغربية، يشدّدون على ضرورة تحقيق المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات، أسوة بجميع المواطنين في هذه البلدان. وعلى الرغم من خلافاتهم الكثيرة تلك، فقد أجمعوا على أمر واحد، وهو إدراج موضوع "وعد بلفور" في متن المعاهدات المرجوّة. وانتهت معاهدة فرساي الشهيرة إلى ضمان المساواة في جميع الحقوق والواجبات، لجميع مواطني البلدان المشاركة في المؤتمر والموقِّعة. إلاّ أنّ "المسألة اليهودية"، بما فيها قضية "الوطن القومي"، الواردة في "وعد بلفور"، فقد أُرجِئت لفترة وجيزة، إذ كان قد خُطّط لعقد مؤتمر آخر، عام 1920 في "سان ريمو" (San Remo) بإيطاليا، برعاية الدولتين الاستعماريتين الكبريين آنذاك، بريطانيا وفرنسا. وقد انفردتا، كما هو معروف، بتقرير مصير الشرق العربي كله، وتقسيمه إلى دويلات، ترعى شؤونها بريطانيا وفرنسا، بتكليف دولي ذاتي، بحيث تضمن أفضل الشروط لتحقيق "وعد بلفور" في "وطن قومي" لليهود في فلسطين، على حساب أرض فلسطين وشعب فلسطين، ومن ثم على حساب جميع الشعوب العربية ومصالحها الحيوية، بل والمصيرية!

وفي عودة إلى معاهدات السلام المعلنة في "فرساي"، يتّضح أن هذه المعاهدات لم تكن تنطوي، في حقيقة الأمر، إلاّ على هدنة لم تدُم سوى سنوات قليلة، لتتواصل في حرب كونية جديدة ومروّعة.

وكل ما كان أُعلن فيها من ضمانات للأقليات، خلال تلك الهدنة الهشّة، جاء ما ينسفها، وينسف معها جميع الحقوق المدنية التي أعلنت. وكانت الأحداث آنذاك تتلاحق في وتيرة مرعبة، في البلدان القديمة و"الجديدة" على حدّ سواء. ونعني "بالجديدة" بعض البلدان الأوروبية، مثل بولونيا التي استعادت وجودها بعد غياب دام مئات السنوات، وتشيكوسلوفاكيا، وبعض البلدان العربية مثل سورية وفلسطين والأردن ولبنان. وطوال هذه الفترة، ساد انعدام الاستقرار في هذه البلدان كلّها، وحدث فيها انكماش اقتصادي، وتنامى الحراك الشيوعي، وفُرِضت قيود جديدة على الهجرات، وفُتحت طرقات جديدة لهجرات أخرى، مثل هجرة اليهود إلى فلسطين، وكانت الدعاوة النازية في تصاعد متواصل...

وهنا لا بدّ من ذكر الأدوار الهامة، التي قُيّض لبعض اليهود، ولا سيما في روسيا وألمانيا، أن يلعبوها على الصعيد السياسي، لندرك الأسباب الحقيقية، الكامنة وراء الغليان اللاسامي في البلدان التي كانت تضمّ جماعات يهودية. ولقد كان في بعض هذه البلدان، ولا سيما في روسيا، يهود في القيادات الحاكمة. فكان في ذلك ما يقطع الشكّ باليقين، في نظر الكثيرين، من أمر تحكّم اليهود هنا وهناك، سعياً إلى فرض سيطرتهم على العالم، كما جاء في كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون". وكان ذلك يبرّر بعمق مخاوف اللاساميين، وتوقّعاتهم المستقبلية، فيزيدهم تصميماً على مواصلة حراكهم وتحركاتهم حيثما كانوا.

حسبنا لمحة سريعة إلى معظم هذه البلدان.

بولونيا أولاً، كانت قد بُعثَت من جديد. ويومها كان البولونيون، في غمرة انبعاثهم الجديد، قد أُخذوا بحماس وطني ومسيحي

مفـرط، فقـرّروا معـه حرمـان كـل مَـن لـيس بمسـيحي، مـن حـقّ المواطنـة، واعتـبر غريبـاً يعـيش علـى أرض بولونيـا. فـأُدرج اليهـود في خانـة الغربـاء، واتّخـذت حيـالهم إجـراءات ترمـي إلى إقصـائهم مـن مختلف المواقع، ولا سيما الاقتصادية منها. وما زاد الغليان ضدّهم، كان تفشّي الشائعات بأنّ حركة البلاشفة الروس الملحدين، نجمت عن تحرّك يهودي. وسرعان ما تُرجِم هذا الخبر، والنقمة الناجمة عنه، إلى مجازر جماعية عفوية، ومتتابعة، ذهب ضحيتها عشرات الألوف... وكادت أن تتواصل لولا أنّ تدخّل رئيس الولايات المتحدة الأميركية آنذاك، "توماس ولسون" (1856–1924)، كما تدخّلت بعض الحكومـات الغربيـة الحليفـة. وأمّـا في الجامعـات، فقـد فُرضـت إجراءات جديدة صارمة، حدّت من عدد الطلاب اليهود فيها، ورمت خصوصاً إلى تقليص عدد المدرّسين اليهود فيها، الذين تبين أنّ عددهم كان يفوق كثيراً نسبتهم السكانية، إذ كان اليهود، في سعيهم إلى تحقيق اندماجهم في مجتمعاتهم، قد قرّروا أن يكون لهم دور كثيف وفاعل في المجالات الثقافية والعلمية والسياسية. ولقد كان كل ذلك كفيلاً بتحريض الأحقاد القديمة ضدّهم، وبترسيخ التهمة الموجّهة إليهم بسعيهم الدائم إلى فرض هيمنتهم على المجتمعات. وقد تواصلت الإجراءات حتى عام 1929، عام الانهيار الاقتصادي الكبير الذي خلّف وراءه، في ما خلّف، مليون يهودي بولوني في حالة من الفقر زريّة.

في رومانيا، كانت اللاسامية في حالة كمون. إلاّ أنّ الحكومة قرّرت فجأة انتزاع الجنسية الرومانية من مائتي ألف يهودي دفعة واحدة، بحجّة أنهم كانوا حديثي الهجرة... وكان أن فُرض الحظر على جميع النشاطات التربوية والاجتماعية، الخاصة باليهود. كما أنّ

عدد الطلاب اليهود في الجامعات، خضع لتحديد قسري. ثم ظهر حزب جديد يدعى "رومانيا للرومانيين". فناصب اليهود العداء، ونسّق مضايقاته لليهود مع الشرطة في البلاد كلّها. وقد تواصلت هذه الحملة اللاسامية طوال الثلاثينيات دون هوادة.

إلاّ أنّ ما حدث في المجر بحقّ اليهود، تجاوز كل توقّع. فقد وقع هذا البلد عام 1918، في قبضة حاكم شيوعي مستبدّ، يدعى "بيلا كوهن"، وكان... يهودياً، وقد أحاط نفسه بزمرة من يهود كانوا يسعون معه إلى التصفية الجسدية لعدد من الرأسماليين اليهود... وقد نجحوا!... إلاّ أنّ "بيلا كوهن" هذا، صُفّي بدوره مع زمرته هذه، عام 1919. ولكن النظام الذي حلّ محلّه، لم يكن أرحم منه حيال اليهود. وكانت الشائعات حول الأصول اليهودية للحركة البولشيفية، تشحن الأجواء والنفوس بأحقاد عنيدة. وحدثت هنا وهناك في المجر، مجازر جديدة، ما كانت لتهدأ حتّى تحلّ محلّها إجراءات تعسفية جديدة، تحول دون عودة اليهود إلى أعمالهم التجارية ونشاطاتهم التربوية.

وفي عام 1925، ارتأت الحكومة أن تضع حدّاً لأي تحرّك لاسامي، فنجحت، وهدأت الأمور حتى عام 1929، حيث بلغت الأوضاع الاقتصادية حدّاً من السوء، دفع البلد إلى الارتماء في أحضان النازية الهتلرية...

في النمسا، تفاقم العنف اللاسامي في أعقاب الحرب. ولما انتصر الحزب المسيحي- الاجتماعي، وتسلّم مقاليد الحكم، تسلّل لاساميون كثيرون إلى مفاصل النظام، واستُبعد كل من كان فيه من اليهود. ثم أُخضعت الجامعة بدورها لإجراءات لاسامية قاسية، وحُدّد عدد الطلاب اليهود فيها. ومع أنّ الحكومة الاشتراكية آنذاك

كانت تعدّ بين أعضائها يهوداً بارزين، مثل "فكتور ادلر" (Viktor Adler) و"أوتو باور" (Otto Bauer)، فإنّ وضع اليهود في النمسا، لم يسجّل أي تحسّن يُذكر.

وفي تشيكوسلوفاكيا، حيث حدثت بعض الاضطرابات، فقد تخلّت الحكومة عن سياسة التضييق على اليهود، بتدخّل مباشر من رئيس البلاد، "توما مازاريك" (Thomas Mazaryk).

في مقاطعة "بافاريا"، في الجنوب من ألمانيا، برزت حركة اشتراكية قوية، قادت إلى رئاسة مجلس الوزراء، يهودياً يدعى "كورت آيزنر" (Kurt Eisner)، وكان شيوعياً مسالماً. إلا أنه اغتيل بعد أشهر قليلة، إثر اتهامه ألمانيا بإشعال الحرب، فاعتبر خائناً لوطنه!

أمّا إيطاليا، فقد حفظت نفسها بمنأى من أي تلوّث لاسامي. وكان موسوليني في سنوات حكمه الأولى، يقول عن اللاسامية إنها "نتاج بربري". ولكنه عام 1937، انقلب على مبادئه فجأة، واستسلم للنازية، بكل ما كانت تعنيه من عنصرية...

وفي فرنسا، حيث كان اليهود قد باتوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع كلّه، كانت اللاسامية غائبة كلياً على الصعيد السياسي. وقد جاء يوم كان رئيس الوزراء فيها يهودياً مشهوراً يدعى "ليون بلوم" (Léon Blum) (1872–1950).

وفي بلجيكا، حدث شيء من التوتر اللاسامي عام 1931، ثم برز حزب نازي فيها، بقيادة "ليون دوغرونيل" (Léon Degrenelle) عام 1936.

أمّا بريطانيا، فقد استقبلت اليهود الهاربين من شرق أوروبا. وأدانت بشدّة اللاسامية المنتشرة في أوروبا، وقد ظلّت وفيّة لما كانت

ترفعه من شعارات ديمقراطية، على الرغم من بعض الهنات هنا وهناك. وفي العشرينيات، أثارت "بروتوكولات حكماء صهيون" بعض الاضطرابات، وأفضت إلى شيء من اللاسامية، تجلّى أحياناً في مؤلّفات الكاتب "جورج تشيسترتون" (G. Chesterton). ولكن هجمة كبرى حدثت عام 1935، عندما أنشأ "أوزوالد موسليه" (Oswald MOSLEY) جماعة فاشية على الطريقة النازية، تنظيماً ولباساً وشعاراً. وأخذ بتوسيع حركته حتى عام 1936، حيث صدر قانون جديد يحظّر كل تنظيم شبيه بقوى الأمن في بريطانيا.

ما بين الحربين العالميتين، تبدّت اللاسامية في مظاهرها التقليدية. وكان الدافع الديني فيها ضعيفاً، باستثناء بولونيا والمجر، حيث قامت ردّة فعل قوية حيال "البولشيفية الملحدة". أما اللاسامية الاقتصادية، فقد كانت متشدّدة جداً، إذ كانت تستمدّ أصولها من الظروف الصعبة القائمة. فقد كانت الحرب والاضطرابات التي رافقتها وأعقبتها، قادت البلدان كلّها إلى حالة مزمنة من الركود، يقارب الإفلاس. ولهذا السبب، كانت المنافسة الأجنبية، وخصوصاً اليهودية منها، تثير موجات من الأحقاد لا حدود لها، لا سيما وأن اليهود كانوا يشكّلون أقلّية نشيطة. وكانت هذه الحالة النفسية تزداد تفاقماً، بفعل الهبّة القومية الجارفة، التي علّمت الناس، خلال الحرب وبعدها، أن يقاوموا كل ما كان من شأنه أن يمسّ التضامن الوطني. وحتى ذلك الحين، كان الهوس العرقي في ألمانيا، لا يخفّ قليلاً إلاّ ليحلّ محلّه غليان من لاسامية أكاديمية، يحظى باهتمام عالٍ من الأوساط الجامعية. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من المثقّفين، من ذوي النزعة المتشدّدة والمحافظة، تذرّعوا بالدفاع عن روح الأمة وتراثها، لكي يرفضوا الأخذ بكل جديد. إلا

أن الهجمة اللاسامية، الأبلغ دلالة، كانت في المجال السياسي. فهنا، حاول عدد من السياسيين والوطنيين، البحث عن الأسباب الخارجية الكامنة وراء الإخفاقات الفادحة، التي حدثت خلال هذه السنوات الرهيبة. وكان أن عثروا بدورهم على بعضها، وجسدوها في "كبش فداء"، لم يكن سوى اليهودي! وكان مثل هذا الأمر من السهولة بمكان، لأنّ عدداً لا بأس به من اليهود كان لهم حضور بارز وفاعل في "الشيوعية العالمية"، في الوقت الذي كانت فيه شائعة مؤامرة عالمية يهودية، قد راجت في جميع الأوساط، بفضل كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون". ولمّا كان المسؤولون عموماً يفتقرون إلى برنامج سياسي وإصلاحي شامل ومتماسك، لم يجدوا ما هو أسهل من إخفاء إخفاقاتهم الكثيرة، الاقتصادية والسياسية، وراء تحميل اليهود هذه المسؤوليات، ومن ثمّ استيلائهم على ممتلكاتهم وإقصائهم عن الساحات كلّها...

إلاّ أنّ المفارقة الكبرى كانت في حدوث عكس ما كانت تخطّط له حكومات الغرب كلّها تقريباً. فعلى الرغم من انتهاجها هذه السياسات المدمّرة للوجود اليهودي، فقد اتضح أنّ عدداً كبيراً منهم استطاع أن يصمد ويفرض حضوره، ويحقّق تحرّره الاجتماعي والسياسي في المجتمعات الأوروبية، بل أن يساعد الكثيرين من اليهود على اقتحام مجالات الحياة المختلفة، على نحو لا يسع من يراقبه إلاّ أن يقف مدهوشاً إزاء هذا الإنجاز، وهو يتساءل: كيف تمّ لهم ذلك؟

الفصل الثالث عشر

اللاسامية في الاتحاد السوفييتي

ظنّ الكثيرون، داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه، أنّ اللاسامية قد تلاشت فيه، بفعل التأكيدات الرسمية والدائمة بهذا الشأن. وكان ثمّة ستار حديدي، وإعلام رسمي كثيف، يصعب اختراقهما. إلاّ أنّ الحقيقة كانت مغايرة، إذ كانت تتسرّب أنباء بين حين وآخر، عن "عمليات تطهير"، متفاوتة الحجم، تجري هنا وهناك، وتطال الكثيرين، ومنهم اليهود. والصحيح أنّ روسيا السوفييتية أعلنت مراراً سعيها إلى إزالة الطبقات الاجتماعية، وتذويبها في إطار دكتاتورية الطبقة الكادحة الواحدة، التي كان يراد لها أن تشمل كل إنسان فيها، من أعلى الهرم إلى القاعدة الواسعة برمّتها. وما كان لعرق، على تعدّد الأعراق فيها، أن يُستثنى من هذا التوجّه العام، حتى لو بدا لهذا العرق أو ذاك، أن ما ترمي إليه روسيا السوفييتية، هو مجرّد "خنق" لروحه وقوميته ووجوده. وتلك بدت الأمور لجميع اليهود القاطنين في الاتحاد السوفييتي، حتى أنّ اللاسامية التي عاشوها وعانوا منها كثيراً أيام القياصرة، بدت لهم متطابقة مع اللاسامية السوفييتية، من حيث النتائج العملية.

عرفت سياسة الاتحاد السوفييتي بهذا الشأن، تقلّبات كثيرة. إلا أنها في نهاية المطاف، كانت تدين للينين بتصريحات له، قوية

ومعروفة، باتت تشكّل المرجعية الرسمية في كل ما يتعلق باليهود. فمنذ عام 1918، كان قد أعلن صريحاً:

« إنّ الخصومة الوطنية تضعف صفوفنا الثورية، وتشقّ جبهة عملنا، وهي الجبهة التي شكّلناها دون العودة إلى القومية، وهي تدعم أعداءنا ».

وأمّا في ما يخصّ اليهود، فلقد كان صريحاً:

« إنّ الثقافة القومية اليهودية، هي التوجه الخاص بالحاخامين والبورجوازيين الروس، وهذا التوجّه هو توجّه أعدائنا ».

والمعروف أنّ ثورة عام 1917 في روسيا، أثارت تعاطف غالبية اليهود مع "المنشفيين"، خصوم "البلشيفيين". والمعروف أيضاً أنّ الكثيرين من قادة كلا الحزبين الثوريين، كانوا يهوداً. وكان بعضهم يحتلّ مراكز مرموقة فيهما، مثل "تروتسكي"، و"راديك"، و"زينوفييف"، و"كامينيف"، و"كاغانوفيتش"... وكان هؤلاء وسواهم، في عهد القياصرة الروس، قد درسوا خارج روسيا، وتأثّروا كثيراً بأفكار "كارل ماركس". ثمّ إنهم كانوا، على انسلاخهم عن مجتمعاتهم اليهودية في روسيا القيصرية، مسكونين بحلم عظيم، هو حلم الخلاص اليهودي المنتظر. إلاّ أنّ وجودهم في صفوف الثورة الروسية، لم يستجرّ معه تأييد غالبية اليهود الروس لهذه الثورة. والحقيقة أنّ تأييد الكثيرين من اليهود للثورة الروسية، كان يعود إلى موقف لينين الرسمي والمعلن، من حيث محاربته للاسامية، وقد اعتبرها معادية للثورة، وأعلن منذ عام 1921 أنّ كل مَن يدعو إليها أو يمارسها، إنما هو مجرم تجب محاكمته، وفقاً للقانون الروسي، وأن ذلك ليبدأ بالاعتقال، وقد ينتهي بصاحبه إلى مصادرة ممتلكاته، بل إلى الإعدام. ولقد جاء في دستور الاتحاد السوفييتي على نحو صريح:

« إنّ المساواة في الحقوق بين مواطني الاتحاد السوفييتي، أياً كانت قوميّتهم أو أعراقهم، في جميع المجالات الاقتصادية والحكومية والسياسية، وسائر الفعاليات الاجتماعية، هي قانون لا رجعة عنه.

وإنّ كلّ مساس، مباشر أو غير مباشر، بحقوق المواطنين، أو بالعكس، إنّ إقامة أي تمييز مباشر أو غير مباشر، حيال المواطنين، بموجب عرقهم أو قوميتهم، وإنّ كل تحريض على إقصاء عرقي أو قومي، أو على البغض والاحتقار، يعاقب وفقاً للقانون. ».

وفي بدء الثورة الشيوعية، واجه السوفييت مهمّة في غاية الصعوبة، عجزت عن إنجازها قرون طويلة من شتى أشكال الضغط والاضطهاد، وأعني بها حمل اليهود على التخلّي عن يهوديتهم، والانصهار في صفوف الثورة الرامية إلى إنشاء مجتمع جديد، لا أثر فيه لقومية خاصة، ولا لطبقات مميزة. ولقد جاء يوم أمر فيه ستالين بالذات بإحداث أمانة سرّ خاصة بالشؤون اليهودية، فكان بذلك أول الخارجين على مبدأ المساواة المطلقة بين جميع المواطنين. ثم اعترف لهم بحقّهم في استخدام لغة قومية خاصة بهم، هي لغتهم المستحدثة، المسمّاة "ييديش"، حتى في الإدارات الحكومية، وفي المدارس القائمة في مناطق ذات غالبية يهودية. وكان أن أضيفت صفة "يهودي" إلى جوازات سفرهم. ومضت الحكومة إلى أبعد من ذلك، فأنشأت خلايا شيوعية خاصة باليهود، ووضعت على رأسها مناضلين شيوعيين يهوداً، وقد كلّفوا بفرض هيمنة دكتاتورية الطبقة الكادحة في الأوساط الناطقة "بالييديش". وإلى ذلك، فقد كانت الحكومة، في هذه الأثناء، ألغت العديد من الكنس - كما كانت ألغت معظم الكنائس - وحظّرت تعليم الديانة اليهودية. أما

الأطفال اليهود، فقد كانوا يؤمّون المدارس الحكومية، حتى يوم السبت، حيث كان التدريس يعطى باللغة اليديشية، مع استبعاد أي إشارة إلى الديانة اليهودية أو التاريخ اليهودي. وفيما كانت الصحافة اليهودية الناطقة باليديشية، قد عرفت ازدهاراً مذهلاً في عهد القياصرة، فقد تقلّص عدد صحفها عام 1938 إلى خمس، ثمّ إلى أربع صحف. كما أن المحاكم اليهودية كانت قد تلاشت بالكلية. وإلى ذلك، فإن المسرح اليهودي وحدَه قد عرف ازدهاراً استثنائياً حتى عام 1935، ذلك بأنه كان يعالج موضوعات عامة، بعيدة عن كلّ ما هو يهودي!...

خلال عام 1925، ظهرت أولى بوادر اللاسامية المعلنة، وكانت ذات طابع شعبي. فنسبها بعض الباحثين إلى عودة الحقد القديم والكامن، الذي سبق الحكم السوفييتي. إلاّ أنّ الحقيقة، كما يراها باحثون آخرون، كانت تكمن في الإجراءات الاقتصادية الرامية إلى فرض النظام الشيوعي على جميع قطاعات الحياة، وقد كان اليهود بعض أبرز ضحاياها. ذلك بأنّ مجموع اليهود في الاتحاد السوفييتي كان يبلغ قرابة مليونين وخمسمائة ألف، وكان معظمهم يتعاطى أعمال الوساطة التجارية. فأصيب في الصميم نظام حياتهم، وعلاقاتهم وأعمالهم، مما اضطرّ قسماً منهم للبحث عن عمل في الدوائر الحكومية، وقسماً آخر في المصانع، فيما بات ما يقارب المليون منهم في الحضيض. فحاولت الدولة أن توفّر لهم أراضي زراعية في أوكرانيا وشبه جزيرة القرم. كما حاولت أن تخصّهم بمنطقة شبه مستقلّة في "سيبيريا"، وذلك خلافاً للمبادئ التي كانت الدولة السوفييتية تقوم عليها. وقد أعقب هذه المحاولات، إجراءات صارمة، بل أعمال عنف هنا وهناك، ضدّ اليهود، في المصانع والمزارع

الجماعية، بل حتى داخل الجامعات والمؤسسات الحكومية. وقد قوبلت كلّها بإجراءات حكومية، جاءت في الحقيقة هزيلةً ومتأخرة.

وفي صيف عام 1936، اتّضح أن ستالين قرّر فرض دكتاتورية شاملة، اضطرّته لتصفية حرس الثورة القديم. وكان منهم بالطبع، يهود مشهورون، أمثال "تروتسكي"، و"زينوفييف"، و"رادك"، و"كامينيف"، وقد اتّهموا رسمياً بالخيانة وأُعدموا. وتسرّبت بعد ذلك شائعات تروّج أنّ "اليهودية العالمية" تتآمر على الثورة الروسية الكبرى. وكان أن ترافق ذلك أيضاً بتصفية العديد من القادة الشيوعيين اليهود، فأصيب بخلل كبير وجود اليهود في الاتحاد السوفييتي، من حيث كونهم أقلية عرقية وثقافية، معترفاً بها. ثم اتخذت في نطاق دوائر الدولة، إجراءات إقصاء، طالت الكثيرين من الموظفين اليهود الكبار، كما استُبعِد آخرون من الحياة الاجتماعية الروسية، في المدن الكبرى. وكان التقارب الروسي- النازي، الطارئ آنذاك، قد غيّب عن اليهود الروس مخاطر النازية، حتى كان أن احتلّ الألمان الغرب الروسي، فأطبقوا فيه على اليهود، وأخضعوهم لمخطّطهم الرامي أصلاً إلى تنفيذ "الحلّ النهائي" للمسألة اليهودية.

إلاّ أنّ السنوات الخمس الأخيرة، من حياة ستالين (1948-1953)، كانت الأسوأ بالنسبة إلى اليهود الروس. وآنئذٍ كانت الإشادة بالشعب الروسي هي النغمة العليا والوحيدة، إزاء الأقليات العرقية والوطنية. وعاد التغني بالقومية الروسية إلى الصدارة الرسمية، في حين أنّ النظرية السوفييتية كانت، طوال السنوات السابقة، تشجب هذا التوجّه شجباً كاملاً. وفي عام 1948، قامت حملة مناوئة للصهيونية في الصحف الروسية، وأخذت تندّد على نحو غير مسبوق، بدولة

إسرائيل، وبجميع ما يرتبط به اليهود الروس من علائق بالعالم الخارجي. وسرعان ما تبين أنّ التهجّم على الصهيونية كان يخفي تهجّماً على اليهودية. وكان أولى ضحايا هذا التهجم، الكتّاب والفنانون اليهود. وألغيت يومها آخر صحيفة ناطقة باللغة اليديشية، وظلّ هذا المنع ساري المفعول حتى عام 1959. واستبعد جميع اليهود تقريباً من وزارة الخارجية، ومن هيئة القيادة السوفييتية العليا. وقد تبين بسرعة أن ما حدث في روسيا، حدث ما يماثله في البلدان الأوروبية الدائرة في الفلك السوفييتي، مثل تشيكوسلوفاكيا، ورومانيا والمجر وبولونيا.

في هذه الأثناء، مضت التوترات الدولية في تفاقم مستمرّ، لا سيما بين الاتحاد السوفييتي وإسرائيل، حتى وفاة ستالين عام 1953. وقد بدا أكثر من غريب أنّ الثورة الشيوعية، التي كانت منذ ثلاثين سنة، قد وعدت بوضع حدّ نهائي للاسامية واليهودية، قد وجدت نفسها في مواجهة شاملة مع ما سمّي "مؤامرة إسرائيلية دولية"، شبيهة جداً بما كانت النازية تسمّيها في السابق "المؤامرة الدولية اليهودية". وإلى هذه الفترة عينها، تعود حادثتان غامضتان، أبرزتا التورّم اللاسامي، إن صحّ التعبير، في الاتحاد السوفييتي والبلدان الدائرة في فلكه.

كانت الأولى منهما محاكمة الأمين العام الأسبق للحزب الشيوعي التشيكي، واسمه "سلانسكي"، وهو من أصل يهودي. وقد أجريت المحاكمة في براغ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا، عام 1952، فكشفت أمام الملأ ما كان ينطوي عليه هذا النظام، من تمييز عنصري حيال اليهود. ذلك بأنّ الاقتصاد التشيكي كان، منذ سنوات كثيرة، يعاني من مصاعب جمّة، وكان لا بدّ من وجود تفسير لذلك

الفشل، فاتّهم به عدد كبير من المسؤولين، على رأسهم "سلانسكي"، الذي كان قد غاب عن الساحة السياسية منذ سنوات!... وحصلت عمليات تطهير كثيرة، طالته وطالت معه ثلاثة عشر مسؤولاً، منهم عشرة يهود، اتّهموا بالتآمر مع شبكة يهودية عالمية، لتدمير الدولة والاقتصاد في تشيكوسلوفاكيا. وأُقحمت في المؤامرة أسماء لشخصيات أميركية وبريطانية وفرنسية وإسرائيلية. وانتهت المحاكمة "باعتراف" المتهمين بالجرائم المنسوبة إليهم، فشُنق أحد عشر منهم، وحكم على الآخرين بالسجن المؤبّد. وقد أعقبت هذه المحاكمة عمليات تطهير واسعة، داخل الجهاز الحكومي والحزب والقطاع الصناعي، كما أعقبتها موجة واسعة من الانتحارات في صفوف عدد من اليهود المسؤولين، في مختلف أجهزة الدول الدائرة في الفلك السوفييتي.

وكانت الحادثة الثانية في موسكو عام 1953، وقد باتت تعرف "بمؤامرة الأطباء". ذلك بأنّ شائعات سرت حول إقدام تسعة أطبّاء، منهم ستّة يهود، على قتل اثنين من أبرز المسؤولين الأعلين، الأول يدعى "الكسندر شيرفاكوف"، عام 1945، والثاني يدعى "اندريه زاندوف"، عام 1948. وكان في "مقتل" زاندوف ما يسلّط الضوء على القضية برمّتها. ذلك بأنّ المسمّى "زاندوف" كان الخليفة العتيد لستالين، وكان، بحسب بعض الباحثين، يحظى بشعبية أوسع من شعبية ستالين... وجاءت وفاته طبيعية، وذلك وفق شهادة خمسة أطبّاء غير يهود. إلاّ أنّ ثلاثة منهم اتّهموا بمقتله، وأضيف إليهم أسماء ستّة أطبّاء يهود، وقد اتّهموا جميعاً بالتآمر مع المخابرات الإسرائيلية... كانت محاكمتهم مقرّرة خلال شهر آذار من عام 1953. إلا أنّ وفاة ستالين في هذا الشهر بالذات، قد وضعت حدّاً مفاجئاً

لهذه المحاكمة وللضجيج القائم حولها. فطوي الموضوع كلّه، وألغيت المحاكمة، وأُطلق سبيل "الأطبّاء الإرهابيين"... دون أي تفسير رسمي.

وفي عام 1961، قامت حملة جديدة ضدّ اليهود، بسبب ما سمّي "جرائمهم الاقتصادية". وفي الحقيقة، كان الاقتصاد الروسي في أسوأ أحواله، وكان من ناحية أخرى يتعرّض لعملية نهب منظم وواسع. فضلاً عن الفساد الذي دبّ في جميع قطاعاته، ممّا كان يتسبّب في هروب أموال طائلة خارج حدوده... وكانت إجراءات كثيرة تتّخذ بين حين وآخر، لم يكن أي منها ليمتّ ظاهرياً بأيّ صلة لما يمكن أن يسمّى لاسامية. إلاّ أنّ بعض الباحثين لا يمتنعون عن اتهام الدولة بالانخراط في إجراءات لاسامية، طالت العديد من اليهود، فنفّذت بحقّ بعضهم أحكام بالإعدام. وفي جميع هذه "المحاكمات"، كان يشار دائماً إلى اتصالات سرية لهم مع إسرائيل والولايات المتحدة...

تلك إذن كانت باختصار كبير، حال اليهود في الاتحاد السوفييتي. وهي تبدو أبداً متأرجحة بين تصريحات رسمية مسالمة، وواقع ميداني، يمارس عبر تضييقات وخروقات، شخصية وجماعية، لا حصر لها، حتى وفاة ستالين عام 1953.

الفصل الرابع عشر

اللاسامية في الولايات المتحدة

بذلت محاولات كثيرة ومتتابعة من أجل زرع بذور اللاسامية في الولايات المتحدة، على النحو الذي عُرفت فيه في سائر البلدان الأوروبية وروسيا، على مرّ العصور. إلاّ أنّ جميع هذه المحاولات قُيِّض لها أن تتوقّف عند عتبة، لم تستطع أن تتجاوزها إلى ما عُهد في أوروبا وروسيا من نزعات حاقدة متأصّلة، ومن ممارسات دامية مفترسة. ولقد تباينت آراء الباحثين والمؤرّخين في تفسير هذه المفارقة التاريخية. فرأى بعضهم أنّ أصول اللاسامية الأولى كانت تعود إلى أسباب دينية، كانت بعيدة عن اهتمامات المهاجرين في القارة الأميركية وهواجسهم الفكرية. ورأى آخرون أنها كانت تعود بالأحرى إلى أسباب اقتصادية مغرقة في القدم، قلّما تتطابق مع الظروف الاقتصادية القائمة في الولايات المتحدة. ويرى فريق ثالث أنّ تدفّق المهاجرين إلى الولايات المتحدة من شتّى أصقاع الأرض، ساعد معظمهم على التخلّي عمّا كان يرهقهم ويباعد بينهم، من أثقال نفسية واجتماعية ومادية ودينية، ليدفعهم في طريق بناء مصيرهم الجديد والمشترك، على نحو يفضل كثيراً ما كانوا عليه في بلدان المنشأ. ويمضي فريق رابع إلى القول بأنّ الولايات المتحدة لم تعرف عملياً اللاسامية، إلا بُعيد الحرب العالمية الأولى. وإنّه ليبدو على العموم أقرب إلى الحقيقة التاريخية، القول بأنّ

اللاسامية لم تحظَ في الولايات المتحدة إلاّ بدور ثانوي ومتقطّع، كان يبرز بين حين وآخر، هنا وهناك، ولكن دون أن يبسط شبكته على الأرض الأميركية، على الرغم من جميع المحاولات التي بذلت بهذا الشأن، والتي عرفت شيئاً من الرواج القوي لها، منذ مطلع القرن العشرين، ولكن دون أي تجذّر في العقليات والمؤسسات.

ثمّة تمثال ضخم يستقبل من بعيد المهاجرين القادمين إلى الولايات المتحدة، عبر بوابة مرفأ نيويورك. إنّه تمثال الحرية، الذي نُقشت في قاعدته، أبيات شعرية لشاعر يهودي، وقد جاء فيها:

« أعطوني جماهيركم...
التي أرهقها التعب والشقاء
هذه النفايات المرتجفة، القادمة من مرافئكم المكتظة،
هذه الكتل الشبقة لتنفّس
أوان الحرية،
أعطوني إياهم، هؤلاء الذين لا وطنَ لهم،
والذين تقاذفتهم العاصفة...
فإنّ مصباحي، في كبد السماء، يسطع عند الباب الذهبي »

هذه الأبيات الشعرية، كانت تخصّ اليهود الهاربين من الاضطرابات والاضطهادات في أوروبا. إلاّ أنّ أوّل اللاجئين اليهود، لم يقدموا من أوروبا، بل من البرازيل. كان ذلك في عام 1654، وكان عددهم لا يتجاوز الثلاثة والعشرين من اليهود السفارديين، الهاربين من وجه محاكم التفتيش، على متن مركب يُدعى "كاترينا"، كان قادماً إلى "امستردام الجديدة"، التي سمّيت في ما بعد "نيويورك". ويومها حاول حاكم المستعمرة، المدعو "بيتر ستويفيسانت" (Peter Stuy vesant)، قصارى جهده كي يحول "دون

تلويث مستعمرته بهذا العِرق من الدهاة، الأعداء، الشتّامين، البغيضين"! ويومها، لو لم يأتهم السماح بالدخول من إدارة المستعمرة في "امستردام" بالذات، لما كانوا استطاعوا الدخول إلى "نيويورك"! إلاّ أنّ حقّ الحصول على الجنسية الأميركية في تلك المستعمرة، لم يُمنَح لليهود إلاّ عام 1727. وأما حقّ الانتخاب فقد نالوه بعد ذلك الوقت بزمان كثير. والحقّ يُقال أنّ سوء الصيت كان قد سبق وصول اليهود إلى القارة الجديدة، بزمان بعيد.

ومع ذلك، فقد لاقى يهود كثر، إبان قدومهم، استقبالاً لا يختلف من حيث المودّة، عمّا لاقى سابقوهم في نيويورك. وكان أن نعموا حيثما كانوا يمضون، بالحرية الدينية، وبتسهيلات اقتصادية، لم تكن بعد قد مهّدت لهم السبيل للحصول على الحقوق المدنية الكاملة. ويرى بعض الباحثين أنّ ما نعموا به في بعض المستعمرات، كان يفضل كثيراً ما نالته أقليات أخرى، مثل الكاثوليكيين واللوثريين والكويكرس. ومن هنا كانت سرعة انسجامهم مع الجماعات المختلفة، فتسنّى لبعضهم أن يحقّقوا نجاحات مرموقة في مجالي الحياة الاجتماعية، والحياة الاقتصادية. إلاّ أنّ الوضع العام لم يكن ليتشابه مع هذه الظروف الاستثنائية، إذ كانت هناك قيود عليهم، تقوم في مجال الحقوق السياسية. من ذلك أنّ حقّ التصويت، أو حقّ العمل في الدوائر الحكومية، لم يُمنحا لهم قبل القرن التاسع عشر.

وإلى ذلك، فقد كانت وقائع الحياة على الأرض، قد سبقت التشريعات، في أماكن كثيرة. والحقيقة أنّ دستور عام 1787، لم يفعل سوى إصدار تثبيت رسمي لما كان قائماً فعلياً، إذ كانت ضرورات استخدام هذا التنوع الهائل والمتجدّد من الرفد البشري، قد فرضت

نفسها، بعيداً عن أيّ تدخل حكومي، أو كنسي، أو مؤسّساتي ما... وبذلك، فُتحت الطرق، شيئاً فشيئاً، أمام اليهود - وسواهم بالطبع - إلى المهن الحرة والأعمال التجارية، ومن ثمّ إلى الجامعات، وإلى مختلف التجمعات الاجتماعية والسياسية، وبالتالي إلى حقّ التصويت. ولقد تحقّق كل ذلك، منذ مطلع القرن التاسع عشر، بحيث بات من الممكن لكل باحث القول دونما شطط، أنّ "أمركة" المجتمع وسائر ما فيه من اثنيات، كانت قد تحقّقت خلال تلك الفترة.

وتشاء الظروف أن يكون اليهود هم من عطّلوا سير هذا التطور العام، الذي كان لصالحهم. وذلك بأنّ تدفّقهم إلى الولايات المتحدة، ما بين عام 1820 وعام 1848، من ألمانيا والنمسا، وسائر البلدان الأوروبية، قد تجاوز مئات الألوف عدداً، فكان بينهم من تأقلم بسرعة ونجح، إلاّ أنّ معظمهم ظلّ يتعاطى أعمالاً رخيصة وبائسة، بحيث تجدّدت حيالهم الأحكام السابقة والقاسية، التي كانت رائجة حولهم في أوروبا، فأثارت الشكوك من جديد حول كلّ ما هو يهودي في أميركا... إلاّ أنّ أحداً لم يستطع أن يتّهمهم بخيانة وطنهم الجديد، وذلك منذ حرب الانفصال، التي قامت من عام 1861 إلى عام 1865، والتي قاتل فيها اليهود بإخلاص، في كلا المعسكرين المتحاربين، تبعاً للولايات التي كانوا يقيمون فيها...

وبدءاً من عام 1870، أخذت ملامح اليهودي الناجح ترتسم، على الرغم من مظاهر التمييز العنصري الذي كان، هنا وهناك، يرافق هذا النجاح. وكان أنّ الفترة التي أعقبت حرب الانفصال، عرفت قفزة اقتصادية وصناعية هائلة، ولّدت بدورها تنافساً شديداً في القطاعين، الاقتصادي والمالي، وطموحاً قوياً في احتلال مراكز اجتماعية متقدّمة، ما كان المجتمع الأميركي قد عرف في السابق،

ما يقاربهما. وقد ترافق كلّ ذلك بغطرسة وعدوانية، ما كان للمهاجرين اليهود الجدد، القدرة على لجمهما في وجه مجتمعهم الجديد، ولكأني بهم يستعيضون بذلك عن كلّ ما كانوا عانوه من إذلال وحرمان وقهر، في بلدانهم السابقة في أوروبا.

وفي تلك الفترة عينها، بدرت، هنا وهناك، في الولايات المتحدة، سلوكات عنصرية، كانت أقرب إلى اللاسامية، منها إلى أيّ نزعة أخرى، وكان بعضها إجراءات تمييزية فاضحة، ضدّ اليهود، وقد جرى ما بين عام 1860 وعام 1870، في نطاق الجيش والحكومة و... الفنادق! من ذلك أنّ الجنرال الشهير "يوليسيس غرانت" (Ulysses Grant)، قد حظّر على اليهود المدنيين خلال حرب الانفصال، الدخول إلى مواقع الجيوش المتحاربة... إلاّ أنّ ما حدث في مدينة "ساراتوغا" (Saratoga) عام 1877، قد كشف الغطاء عن ممارسات طارئة، عنصرية، كانت تجري هنا وهناك، وذلك بأنّ إدارة فندق "غراند يونيون" (Grand Union) في هذه المدينة، قد رفضت استضافة المصرفي اليهودي "جوزيف سليغمان" (Joseph Seligm an) وعائلته! وإذ بعدوى هذا السلوك العنصري، تمتدّ إلى العديد من الأندية والمدارس الخاصة، ممّا أثار سلوكات يهودية معاكسة، أقدم عليها اليهود أنفسهم في أنديتهم ومواقعهم الترفيهية، التي أخذوا ينشئونها خصيصاً لهم، بالقرب من المواقع التي كانت قد بادرتهم بالإقصاء!...

وبدءاً من عام 1881، أخذت الأمور تزداد تأزّماً، من جراء موجات جديدة من المهاجرين اليهود، الوافدين من أوروبا الشرقية. وبعد أن كانت موجاتهم الأولى لا تتجاوز عشرات الألوف، فقد تجاوزت هذه الموجات عتبة المليون! بل إنّ أحد الباحثين قدّر عدد من دخلوا

الولايات المتحدة، ما بين عام 1881 وعام 1920 بثلاثة ملايين! والمعروف أنّهم استُقبِلوا من قبل من سبقوهم من اليهود، على نحو مكّنهم بسرعة من العمل والاستقرار، بغضّ النظر عمّا كان يقوم بينهم من فروقات وخلافات، من جرّاء انقسامهم بين "سيفارديين" و"اشكينازيين". وعندما بدأ بعضهم يبدي طموحاً في الحصول على وظائف إدارية، وفي التدريس الجامعي، وكذلك في اقتحام المجتمعات الثرية، جاءت ردّة الفعل المتوقعة والنائمة! إلا أنها كانت محض ردّة فعل، لا سند قانوني لها. فكان أن مُنِع اليهود عملياً، في مطلع القرن العشرين، من دخول مناطق الأثرياء وأنديتهم ومصايفهم. وضُيِّق عليهم حتى في المدن، من حيث حصولهم على أماكن للسكن، خارج ما كان خصّص لهم من مناطق سكنية، تذكّر بعض الشيء "بالغيتو" القديم.

وقد ترافق كلّ ذلك برواج صفات قبيحة تخصّ اليهود دون سواهم، بل تميّز بين "يهودي صالح" و"يهودي غير مرغوب فيه"... كما سرت شائعات عن مؤامرة دولية يهودية، أعيد إليها الفضل في نجاح الكثيرين من المهاجرين الجدد في شتّى ميادين العمل... إذ نُسِب كل ذلك إلى وجود "قوى مالية خفية" جبّارة! ومضى بعضهم إلى التحدّث عن هيمنة يهودية على الذهب في العالم. وما كان ذلك بالأمر الجديد. ذلك بأنّ أحد الباحثين الأميركيين آنذاك، واسمه "اينياسيوس دونيلي" (Ignatius Donnelli)، كان منذ عام 1801 قد وضع كتاباً بعنوان "أعمدة قيصر" (Caesar's Columns)، يتحدّث فيه صراحة عن وجود "جمعية يهودية"، تخطّط منذ ذلك الحين، لكي ترغم المسيحيين على أن يدفعوا غالياً جداً، الاضطهادات التي كانوا قد فرضوها على اليهود، طوال قرون وقرون في أوروبا!

تلك السنوات كانت حقّاً حاسمة بالنسبة إلى الحياة الأميركية. فلقد سجّلت انقساماً حاداً بين الناس جميعاً، على صعيد المُثُل الأميركية، وذلك بأنّ ازدواجية واضحة كانت قد تسرّبت في واقع الحال، بين المواقف الرسمية المتعلّقة بهذه المثل، والممارسات العملية. فهناك دائماً مَن يعلن بإصرار الوفاء الكلي لمثَلَي الحرية والمساواة، الغاليَين على جميع الأميركيين، في الوقت الذي كانت فيه بعض الأقليات، ومنها اليهودية، تتعرّض فيه لتضييقات عنصرية، كتومة، ولكن متكرّرة، ولتصريحات مشينة. ومع ذلك، فلا يجوز تضخيم مثل هذا التطوّر المزدوج، إذ كان في واقع الحال، سطحياً وطارئاً، لا يمسّ في العمق، نفسية المواطن الأميركي العادي. ولذلك عينه، فقد أتيح لليهود عموماً، منذ أواخر القرن التاسع عشر، أن ينشئوا صداقات ناجحة مع الكثيرين حولهم، وأن يحظوا باحترام صادق. كما أنّ الحكومة الأميركية، كانت، من جهتها، على الرغم من التضييق الذي كانت قد فرضته على هجرة اليهود، تندّد بكل إجراء تعسّفي حيال الأقليات، ولا سيما حيال اليهود. ولذلك أيضاً، أقدمت الحكومة الأميركية على توجيه تنبيه للحكومة في رومانيا، عام 1903، تعلن لها فيه على نحو قاطع، رفضها التمييز بين من هو يهودي وغير يهودي!...

وطوال هذه الفترة، لم تعرف اللاسامية في الولايات المتحدة، أي تصعيد. إلاّ أنّ تدفّق اللاجئين اليهود المتواصل، تسبّب في ظهور تمييزات خاصة بالزنوج واليهود، فضلاً عمّا كان قائماً أصلاً من تمييزات حيال الأقليات القادمة من إيرلندا وروسيا. وإنّ بعض هذه التمييزات بلغ حداً من التمادي في مجالي الاقتصاد والعمل، باتت معه عروض العمل تحمل لافتات كتب عليها: "للمسيحيين فقط"،

أو "لغير اليهود". وكان ثمّة تمييز آخر يقطع الطريق عملياً، وليس رسمياً، على اليهود، في ميدان التعليم الواسع، وميادين الجيش والوظائف السياسية. ولقد قاد كل ذلك إلى نشوء حركة يهودية أطلقت على ذاتها تسمية "بني بريث" (B'nai B' rith) – وهي تعني "أبناء العهد" – عام 1913، في سعي منها إلى وضع حدّ للتشهير المستعر باليهود، ومن أجل وضع حدّ أيضاً لمثل هذه السلوكات العنصرية.

وجاء يوم طلع فيه بعض المثقّفين الأميركيين، بما يمكن اعتباره قاعدة فكرية لهذا النهج العنصري. فادّعى بعض علماء الاجتماع أن اليهود ينتمون إلى عرق مريض ومتخلّف. وقال أحد علماء الأعراق، هو "ماديسون غرانت" (Madison Grant)، في كتاب له بعنوان "غياب العرق الكبير"، صدر في نيويورك عام 1926، بدونيّة الأعراق، ولا سيما العرق اليهودي. وقد ترك هذا الكتاب تأثيراً عميقاً، بحيث أنه أعيد طبعه أربع مرات. وقد وجد مؤلّفه من يأخذ بآرائه ويروّج لها في مؤلفات جديدة. وترافق هذا المدّ الفكري، بظهور حركات مناوئة لجميع الأقليات، بما فيها الأقلية اليهودية، التي كان يرى دعاة "الأمركة" المطلقة، خطراً فيها يهدّد المجتمع الأميركي برمّته. وكان على رأس هذه الحركات، حركة "الكوكلوكس كلان" (Ku-Klux-Klan) الشهيرة، التي كانت قد تأسّست عام 1860، من أجل قمع حركات الزنوج، والتي أعيد تنظيمها وتجييشها عام 1915، "من أجل إنقاذ أميركا من كل تأثير زنجي أو كاثوليكي أو يهودي". وقد كُتِب لها أن تقوم بدور فعال عام 1920، إذ كانت تؤجّج الحقد على اليهود، لا سيما في نيويورك، متّهمة إيّاهم بمحاولة الهيمنة على كل شيء، وببقائهم غرباء عن الحياة في أميركا، وباستحالة

اندماجهم في المجتمع الأميركي. وهنا لا بدّ لنا من التذكير بما كنّا تحدّثنا عنه في فصل سابق، حول الدور الذي قام به الصناعي الأميركي الشهير، "هنري فورد"، من حيث اعتماده الدائم على كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون"، للتشهير بالدور اليهودي في الولايات المتحدة، حتى أنّ أحد الباحثين الأميركيين لم يمتنع عن التصريح بشأنه:

"إنّ هتلر نفسه، قد واصل بمعنى ما، ما كان فورد قد فعله!"

وبعد كلّ هذا الصخب العام، كان لا بدّ من انتقال عدوى هذه الروح العدائية إلى المؤسسات الرسمية، وفي طليعتها "الكونغرس"، إذ كان هو أول مَن سنّ العديد من القوانين ضدّ هجرة اليهود، بدءاً من عام 1921. ثمّ صدر عام 1924 قانون يحمل اسم "قانون جونسون"، كان الهدف الصريح والمعلن منه، هو إيقاف الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة، على نحو تام. ولكن الحقيقة المدوّنة بالأرقام تعلن أنّ هبوط الهجرة الفعلي، كان قد بلغ ما بين عام 1924 وعام 1929، أحد عشر ألفاً، بعد أن كان سجلّ مائة ألف مهاجر! تلك كانت المفارقة الكبرى، وهي أنّ بلداً يقوم بالكامل على استجرار مهاجرين من شتّى أصقاع الأرض، يقرّر إجراءات زاجرة، ليحافظ على ما سُمّي في نطاق الكونغرس، "نقاء أصوله العرقية"! وامتدّت عدوى هذه الإجراءات، حتى إلى قطاع التعليم الجامعي. فكان من ذلك أنّ عميد جامعة "هارفارد" أراد، عام 1922، أن يحدّد عدد الطلاب اليهود، وكان بذلك يكرّس ممارسة كانت سارية في الجامعة. وقد بلغ من تأثير فعله هذا، أن اقتدت به جامعات ومدارس كثيرة، لم تعد تقبل بين طلابها سوى عدد محدّد من الطلاب اليهود. ثم اتّسع مدى هذا "العرف"، فشمل معظم المهن

الحرة، ومكاتب التوظيف، ثم انتقل إلى قطاع السكن، بحيث مُنِع كل من هو "من أصل عبراني"، أن يلج قطاعات واسعة من المدن وضواحيها.

وإبان الأزمة الاقتصادية الكبرى، عام 1929، ارتفعت أصوات شديدة، تتّهم اليهود بمسؤولية هذه الأزمة، وبقيام "مؤامرة عالمية ما"، يدبّرونها ضد أميركا. فتحرّكت من جديد جماعة "كوكلوكس كلان"، وتنظيمات نازية. كان من أهمها "فرقة القمصان الفضيّة"، التي كان قد أنشأها أميركي يدعى "وليم بيلي" (William Pelly)، الذي كان يُغرِق الأسواق بكتبه وصحفه، المشحونة بلاسامية متطرّفة، والذي كان قد رشّح نفسه، عام 1936 لرئاسة الجمهورية، بوصفه مرشح الحزب المسيحي، والذي لم يتورّع عن الإعلان الصريح التالي:

« نحن الأميركيين، قد أنشأنا حزباً نريده بكل تصميم لاسامياً متطرّفاً. وإنّ الحزب المسيحي الذي نظّمناه حديثاً، يوفّر لنا إمكانية الاحتجاج الفعال ضدّ الطريقة التي يستولي بها اليهود على صناعاتنا، وممتلكاتنا وأموالنا.»

وثمّة تنظيمات أخرى مشابهة، بلغت ما بين عام 1933 وعام 1939، وفق دراسة قام بها أحد المؤرّخين الأميركيين المعاصرين، مائة وواحداً وعشرين تنظيماً لاسامياً... إلا أن المدّ النازي الأقوى، جاء خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، من ألمانيا النازية. ذلك بأنّ استيلاء النازية على الحكم في ألمانيا، لم يشجّع التنظيمات الوطنية المتطرّفة وحسب، بل حمل أيضاً دعماً مباشراً للتنظيمات النازية المتواجدة في الولايات المتحدة. كما أنّ الحكومة الألمانية كانت قد أنشأت مركزاً للدعاية النازية، دعمها هتلر نفسه بموافقته على

إنشاء مجموعة مشتركة، ألمانية- أميركية، ذات نزعة نازية صرف. وقد أطلق عليها اسم "أصدقاء ألمانيا الجديدة"، وقد كُلّفت بمهمة تجميع جميع الجمعيات النازية في فيديرالية واسعة، واتّخذت لها قائداً يدعى "فريتز كوهن" (Fritz Kuhen)، الذي اعتبر بمثابة "الفوهرر" في أميركا! غير أنّ الشعب الأميركي كان، في حقيقة الأمر، بعيداً عن كل هذا الصخب. فما إن ظهرت للعيان سياسات هتلر الحقيقية في أوروبا، حتى انهارت جميع هذه التنظيمات النازية من تلقاء ذاتها في أميركا!

ولكن الحركة اللاسامية لم تنقطع لمجرّد انهيار التنظيمات النازية. فقد اشتهر، خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، كاهن أميركي كاثوليكي، يدعى "تشارلز كوغلن" (Charles Coughlin)، بأحاديثه الإذاعية، التي بلغ عدد سامعيها، عام 1926، ثلاثة ملايين ونصف المليون، كان معظمهم من الكاثوليك. فكان له تأثير هائل. وكان من دعاة اللاسامية المعتدلة. إلاّ أنّه، بعد انتخاب الرئيس روزفلت عام 1936، أخذ يتطرّف بلاساميّته. فأسّس في العام نفسه، صحيفة أسبوعية، أطلق عليها اسم "العدالة الاجتماعية"، وكان يطالب فيها دوماً بتنظيم جبهة مسيحية، تهدف إلى "السيطرة على ملوك المال العالمي". ثم أُخذ بكتاب "بروتوكولات حكماء صهيون"، وركّز جلّ جهوده على اتهام اليهود بالتحالف مع الشيوعية، علماً بأنه كان يتّهمهم أيضاً بوضع يدهم على "الرأسمال العالمي". وكان أن جوبه في مطلع الأربعينيات بمعارضة قوية، جاءته هذه المرة من المسؤولين الكنسيين، حتى إنه تخلّى عن برنامجه الإذاعي، ولكنه واصل نضاله الفكري من خلال مجلة "العدالة الاجتماعية"، والتنظيمات القريبة من توجّهاته، مثل "الجبهة المسيحيّة" و"حركة

العمل المسيحي". وقد أثارت هذه التنظيمات أعمال شغب لاسامية، هنا وهناك. وأخيراً، تحرّك الأساقفة الكاثوليك في أميركا، إثر هذه التحرّكات اللاسامية، وأعلنوا في بيانهم السنوي لعام 1942، يقولون:

« إننا مستاؤون جداً من السفاهات البشعة التي يُتهم بها اليهود في البلدان المختلفة، وكذلك الشعوب المستضعفة التي تدين بإيمان غير إيماننا. »

وفي عام 1941، سرت سلسلة من الاتهامات تدّعي أنّ اليهود يسعون لزجّ الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية. فسبّب ذلك موجة جديدة من اللاسامية، اجتاحت أميركا كلّها. وكان أن تبنّى هذا الموقف عضو في مجلس الشيوخ، يدعى "بُرتون ويلر" (Burton Weeler)، وعضو آخر في مجلس النواب (الكونغرس) يدعى "جون رانكن" (John Rankin)، ودعماه بكل ما أوتيا من نفوذ. إلاّ أنّ الصوت الأبلغ، كان صوت الطيار "تشارلز ليندبرغ" (Charles Lindberg)، الذي كان قد اشتهر بعبوره المحيط الأطلسي، وحيداً على متن طائرته عام 1927. وقد عُرِف عنه أنه لم يكن معنيّاً، لا من قريب ولا من بعيد، بكل ما هو لاسامي، ما لم يكن قبوله "وسام الاستحقاق" الألماني، الذي منحه إيّاه عام 1938، في برلين، الفيلدمارشال "غورينغ" (Goering)، قد جلب عليه هذه التهمة. وإلى ذلك، فقد اتّهَمَ صريحاً عام 1941، اليهود وإدارة الرئيس "روزفلت" وبريطانيا العظمى، بالضغط على الولايات المتحدة، من أجل زجّها في الحرب. وقد صرّح بأنّه إنّما أراد بذلك أن يحذّر مواطنيه من اليهود "الذين قد يعرّضون مستقبل الوطن للخطر، بسبب قدراتهم المالية، والنفوذ الذي يمارسونه في نطاق السينما ودور النشر والراديو وحكومة بلدنا".

وخلال الحرب العالمية الثانية، خَفَتَ صوت اللاسامية المنظمة

والمسيّسة، ثم تلاشت بالكلية. ولم يُثر هذا التحرك المتاعب لليهود، ولكنه أثار قلقهم الشديد... ولقد كان بمثابة إنذار لهم، ولجميع الأميركيين. فبات واضحاً للجميع أنّ التفجّرات اللاسامية التي عرفتها أوروبا قروناً طويلة، قد تظهر ذات يوم، في عنف مفاجئ في الولايات المتحدة، تبعاً لظروف مؤاتية ما... ولذلك كان الخناق يضيق على اليهود، شيئاً فشيئاً، وكذلك حدث لهم في ميدان العمل. إلاّ أنّه سمح في الوقت نفسه، لعدد محدّد منهم، أن يدخلوا أبواب المهن الحرّة، مثل التعليم والهندسة على اختلاف أشكالها، فيما كانت أبواب الحقوق والطبّ وطبّ الأسنان، ومختلف اختصاصات التعليم الجامعي، مقفلة في وجوههم!

ومع نهاية الحرب، لم ينته التمييز الاجتماعي والاقتصادي، بل ظلّ هو الوجه الأبرز في اللاسامية الأميركية حتى سنة 1950. وفي عام 1962، أجريت دراسة ميدانية حول التمييز ضدّ اليهود، فتبيّن أنّ هذا التمييز لا يزال ساري المفعول، على الرغم من بعض الإجراءات القانونية، التي اتخذت بهذا الشأن، على أنه يُمارَس في تكتّم وخَفَر، وإن بفعالية، في نطاق السكن، والفعاليات الاجتماعية، والمدارس، والتوظيف. كما تبيّن أنّ الستينيّات من القرن العشرين عرفت يقظة للنازية في الولايات المتحدة، وفي بلدان أخرى، ولقد تمّ الاعتداء في الولايات المتحدة وحدها، عام 1965، على ستّمائة كنيس يهودي! ثم إن هناك تنظيمات لاسامية لا تزال قائمة، وهي تسعى، بما أوتيت من وسائل إعلامية مختلفة، لبثّ روح الحقد ضدّ اليهود، وتهدّد بإتمام ما عجز هتلر عن إنجازه!

الفصل الخامس عشر

الحقيقة الساطعة... المغيَّبَة

لا يخامرني أدنى شك أنّ كلّ إنسان يتسنّى له أن يطالع مثل هذا العرض التاريخي الوجيز، للعلاقات اليهودية مع المجتمعات الوثنية القديمة أولاً، ثم مع المسيحيّة، لا بدّ له من أن يتساءل مراراً وتكراراً: أين كان الله في كلّ ما فعل اليهود بغير اليهود، ثمّ بالمسيحيين حتى عهد الإمبراطور قسطنطين، ثمّ أين كان المسيح في كلّ ما فعل المسيحيون، أو مَن كانوا يُدعون مسيحيين، باليهود، منذ عهد الإمبراطور قسطنطين في الربع الأول من القرن الرابع، حتى عهد هتلر، أي حتى منتصف القرن العشرين؟

إنّه لسؤال مزدوج ومحيّر، يثقل ضمير المؤمن، اليهودي أولاً، ثم المسيحي، على نحو لا يجوز معه التغاضي عن مضامينه، ولا عن نتائجه، بالغاً ما بلغت من خطورة وجسارة.

ولقد حاول الكثيرون من الباحثين والمؤرّخين والمفكرين، أن يتصدّوا له. وكان منهم اليهودي، والمسيحي، والمسلم، والملحد. وكانوا ينتمون إلى بلدان وثقافات وحضارات مختلفة، إلاّ أنّهم واجهوا كلّهم السؤال إياه، وبحثوا له عن جواب، بل عن أجوبة. وكذلك فعل عدد من اللاهوتيين والفلاسفة المسيحيين، من قدامى ومحدثين. وكان السؤال نفسه يفرض ذاته على الجميع: ما السرّ في طبيعة العلاقات الدينية، اليهودية أوّلاً، ثمّ المسيحيّة، المغرقة في العنف

والإقصاء، والحقد والقتل، بين أناس وشعوب تؤمن بالله، وتدّعي التصرف باسم الله، أو تؤمن بالمسيح، وتدّعي التصرف باسم المسيح؟ فلئن كان من الممكن أن يحدث عمل فردي طارئ، يتّسم بالعنف حتى القتل، باسم الله وباسم المسيح، فكيف يمكن التسليم بعمل يتواصل على نطاق شعوب برمّتها، طوال مئات السنوات، في عنف وقتل وحقد وقهر، باسم الله أو باسم المسيح؟

بالطبع، هناك أجوبة مختلفة، وردت في مؤلّفات لا حصر لها. وذكرت فيها أسباب كثيرة، أو ما بدا أسباباً. ومنها الديني الصرف، ومنها النفسي، ومنها الاجتماعي، ومنها الاقتصادي، ومنها السياسي، ومنها أيضاً العرقي. كما قُدِّمت تفاسير حاولت أن تجمع بين العديد من هذه الأسباب، أو أن تبرز أحدها على نحو خاص، ولا سيما ما كان منها عرقياً أو دينياً صرفاً. ولقد حرصتُ على مطالعة ما طالته يداي من هذه المؤلّفات، في لغاتها الأصلية، وهي فرنسية، أو في ترجمات لها في الفرنسية، وأحياناً قليلة في العربية، فضلاً عما كان قد وُضع أصلاً في اللغة العربية. وانتهيت إلى أنّ أيّاً من هذه الدراسات، لا منفردة ولا مجتمعة، استطاعت أن تقدّم تفسيراً شاملاً، معقولاً أو مقبولاً، لهذا الصدام التاريخي الفريد بوحشيّته وديمومته، إن لم يؤخذ بعين الاعتبار ما بدا لي خروجاً صريحاً، من قبل كلّ من اليهودية أوّلاً، والمسيحيّة ثانياً، ومن ثم من قبل الاثنتين معاً، عن مسارهما الروحي الأصلي، وانغماسهما بالتالي على نحو همجي ومتفاقم، في متاهات السلطة الزمنية، وما تستجر إليه هذه السلطة حتماً ودائماً، الآخذين بها، من تَعامٍ ذاتي، واستكبار فكري، واستعلاء اجتماعي، وتوحّش سلطوي، وتناحر وجودي، تفضي كلّها أبداً بأصحابها جميعاً إلى مستوى من

العلاقات، لا يمتّ بأي حال إلى الأصلين الروحيين، اللذين كانا في نشأتهما الأولى. وإن استنتاجي القاسي والواقعي هذا، ليطال الدول والكنائس، في الشرق والغرب على حدّ سواء.

وهنا أسمح لنفسي بأن أدعو الباحثين العرب والمسلمين على نحو خاص، للانكباب على هذه المعضلة التاريخية اليوم، ونحن في منتصف عام 2015، فيما العالم العربي والإسلامي، على ما هو عليه من اقتتال وتكافر وتذابح، يذكّر بما كان عليه المجتمع الغربي، إبان حروبه الدينية المتوحّشة، الماضية والطويلة. إلاّ أنّي أريد أيضاً أن أذكّر بهذا الشأن، جميع العرب والمسلمين، بأنّ تلك الحروب الدينية الغربية، كانت بين شعوب ودول، تساوت بعض الشيء في المعرفة، والثقافة، والمستوى الاجتماعي. وقد نبعت صراعاتها من ذاتها، وأنهتها بذاتها، فيما العرب والمسلمون اليوم يقتتلون، ويتراشقون التكفير، ويفني بعضهم بعضاً، بتخطيط وإيعاز وتمويل وتسليح كلي، من قبل دول تفوقهم بما لا يقاس، في جميع شؤون المعرفة والعلم ومستوى الحياة، ولا تريد لهم في حقيقة الأمر، سوى... الفناء!

وهنا، إذ أعود إلى موضوعنا الرئيسي. أجدني أمام سؤال ملحّ ومحرج، يطرح نفسه بقوّة لا تقاوم، وهو:

هل ما يشهده العالم اليوم، من هيمنة غربية ساحقة، على كل صعيد، ومن خطر انقراض وشيك لشعوب وحضارات وثقافات برمّتها، يحدث بمحض الصدفة التاريخية، أم تُراه يشكّل إحدى نتائج ما استعرضنا من تاريخ مؤلم للعلاقات بين اليهودية والمسيحيّة؟

قد يبدو سؤالي هذا تجاوزاً افتراضياً لنظرية أسعى إلى الترويج لها، لسبب أو لآخر. إلاّ أنّ ما يبدو لي حقيقة ناصعة، باتت منذ

سنوات طويلة، تفرض نفسها دون لبس، على الجميع في الشرق والغرب، هي واقع هيمنة الصهيونية على العالم بأسره، ولا سيما على دول الغرب وكنائسه. والصهيونية، باعتراف الباحثين اليهود والرافضين لها، إن هي إلاّ أكثر نتاجات اليهودية، تطرّفاً فكرياً، وممارسة عنفية، وسعياً لتحقيق حلم السيطرة العالمية.

وفي عودة إلى هيمنة الصهيونية على صعيد دول الغرب، أذكّر بأنّه تبين لنا، خلال استعراضنا السابق، للعلاقات اليهودية - المسيحيّة، أنه كان هناك دائماً، في بعض بلدان الغرب، وحتى في قلب روسيا والولايات المتحدة، من يتّهم اليهود بالسعي إلى السيطرة على العالم... وقد تبين لنا أيضاً أنّ كل شيء كان ينتهي إلى حدوث مزيد من المجازر والنهب والتشريد، يطال اليهود أنفسهم هنا وهناك... إلاّ أنّ هذا التراكم الهائل والمتواصل، من مجازر ونهب وتشريد، الذي أفضى في نتيجة المطاف، إلى ما بات يسمى "المحرقة" النازية في منتصف القرن العشرين، لم يكن ليحدث على مدى قرون وقرون، دون أن تترتّب عليه نتائج في غاية الخطورة، وبعيدة الغور والمدى، كان بعضها تلقائياً وحتمياً، وبعضها الآخر كان مدروساً ومخططاً...

وإني لأرى، في ضوء تعاطي الطويل والحثيث، منذ عام 1955، مع المسؤولين الكنسيين أولاً، ثم مع السياسيين في الغرب، وفي ضوء متابعتي الدؤوبة للأحداث العالمية، ولا سيما تلك التي حلّت بالعالم العربي والإسلامي، منذ قرار تقسيم فلسطين عام 1947، حتى اللحظة الحاضرة، وفي ضوء مطالعاتي الكثيرة والمتنوعة، أقول: إني لأرى أنّ ما كان تلقائياً وحتمياً من هذه النتائج، كان بالدرجة الأولى، عقدة ذنب هائلة، أطبقت على الغربيين جميعاً، دون

استثناء، حيال كلّ ما ومَن هو يهودي، فسكنت المجتمع الغربي برمته، على نحو مَرَضي، وأثقلته كلّه، بجميع أفراده ومؤسّساته، المحلية والوطنية والعالمية، من سياسية وثقافية وكنسية ودبلوماسية وإعلامية واجتماعية وفنية بل ورياضية... أأقول إنه بات مكبّلاً على كل صعيد؟ أقولها دون تردّد، حتى أنه بات لا يدري ما يعمل ليرضي اليهود، بقصد التخفيف عن نفسه من وطأة شعوره القاتل بالذنب، وكذلك بقصد "التعويض" لهم عمّا ارتكبه من جرائم بشعة بحقّهم طوال قرون!...

ولكم أتقن اليهود استغلال عقدة الذنب هذه، واستثمارها إلى أبعد مدى، وعلى نحو مدروس ومتتابع، وإذ بها تتمظهر بشتى الطرق، وفي مختلف المناسبات، حتى في نطاق ما بات يناقض صريحاً الأسس السياسية التي قامت عليها هذه المجتمعات، والمبادئ العامة، الناظمة التي أرست عليها، إثر الحربين العالميتين الطاحنتين، قواعد التعامل الدولي، في ما سمّي ميثاق الأمم المتحدة، وذلك داخل الهيئات الدولية بالذات، أو خارجها، مثل هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ومجلس حقوق الإنسان، وسائر الهيئات الدولية التابعة لها. بل هي مضت في ازدواجيّتها هذه، إلى حد خرق المعاهدات الدولية، مثل معاهدات جنيف لعام 1949، المتعلّقة بضرورة احترام حقوق المدنيين، والتراث الحضاري والإنساني إبان الحروب، تلك المعاهدات التي كانت قد أملتها على دول الغرب بالذات، أهوال الحرب العالمية الثانية.

وأمّا ما هو مدروس ومخطّط، من هذه النتائج الخطيرة والبعيدة المدى، فليس لنا سوى التحديق الصادق في ما بات مكشوفاً أمام العالم بأسره، من وقائع إطباق الصهيونية إطباقاً كاملاً على جميع

الدول الكبرى تقريباً، بدءاً من الولايات المتحدة الأميركية والدول الأوروبية، ومروراً بالدول الكثيرة الدائرة في فلكها، وانتهاء بجميع الدول العربية، القابعة تحت عباءة ما يسمّى "الجامعة العربية"، والأدلّة على ذلك أكثر من أن تُحصى. فحسبنا التذكير ببعض ما جرى، منذ أن نقلت هيئة الأمم من جنيف إلى عاصمة العالم اليهودي، نيويورك، عام 1945. ومن هذه الأحداث المعروفة:

1- قرار التقسيم الجائر لفلسطين عام 1947.

2- تسابق الدولتين الكبريين آنذاك، الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي، من أجل الاعتراف بإسرائيل في 1948/5/15.

3- مسارعة بريطانيا وفرنسا إلى إنشاء مفاعل ديمونا النووي في إسرائيل، بدءاً من عام 1955.

4- تحالف هاتين الدولتين أيضاً مع إسرائيل في عدوانها على مصر عام 1956.

5- تبرير عدوان إسرائيل على مصر وسورية عام 1967، واحتلالها المتواصل حتى اليوم من عام 2015، لجميع ما احتلت من أراض في فلسطين وسورية ومصر، على الرغم من انسحابها الشكلي من سيناء.

6- ابتلاعها المتواصل لهذه الأراضي، التي تعتبرها الأمم المتحدة محتلّة، مع تفنّنها في اعتقال وتشريد وقتل من تشاء من سكانها الأصليين، وذلك خلافاً لجميع المواثيق الدولية، ودون أن يتّخذ بحقّها أي إجراء زاجر.

7- تصميم الولايات المتحدة الدائم على تغطية إسرائيل في كل ما تفعل، وذلك باستخدامها امتياز النقض (الفيتو) لصالحها، 45 مرة حتى عام 2015.

8- اجتياحات إسرائيل المتكرّرة للبنان، واحتلالها أراض فيه، فضلاً عن اعتداءاتها المتواصلة هذه، وحربها عليه عام 2006.

9- التدمير الممنهج والشامل للعالم العربي والإسلامي، عبر ما يسمى "الربيع العربي"، وما كانت إسرائيل أعلنت عنه صريحاً، منذ شهر شباط عام 1982، في مجلة كيفونيم الإسرائيلية، تحت عنوان "استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات".

10- الحرب الكونية التي تشنّ على سورية منذ منتصف شهر آذار عام 2011، من قبل 140 دولة، بزعامة الولايات المتحدة، وبتجنيد مقاتلين يأتونها من مائة دولة، وبتغطية مالية وشرعية من جميع دول الجامعة العربية، وبتغطية سياسية ودبلوماسية كاملة من معظم دول الغرب، تحت عباءة الأمم المتحدة.

هذا بعض أهمّ ما هو ظاهر من الجبل الجليدي، الذي أسميته النتائج الخطيرة والبعيدة المدى.

أمّا ما هو خفي من هذا الجبل عينه في عمق الأحداث الدولية، فليس أدلّ على بعضه أيضاً ممّا قد جرى منذ مؤتمر بال في سويسرا عام 1897، وما أودّ أن أشير باقتضاب إليه، كما في الفقرة السابقة:

1- في نطاق التحرك الصهيوني من أجل إنشاء "الوطن القومي اليهودي"، في فلسطين تحديداً، لا في أوغندا، ولا في الأرجنتين...

2- في نطاق انهيار الإمبراطورية العثمانية، وإشعال الحرب العالمية الأولى...

3- في نطاق اتفاقيات الشريف حسين مع اللورد ماكماهون البريطاني.

4- في نطاق معاهدة سايكس بيكو السرية.

5- في نطاق "وعد بلفور".

6- في نطاق مؤتمر "سان ريمو" عام 1920، حيث منحت كل من بريطانيا وفرنسا، نفسيهما، حق الانتداب الأممي على سورية والعراق... وتقسيم سورية والعراق، بقصد اصطناع دول صغيرة "عربية" منها...

7- في نطاق فرض انتدابهما بقوة السلاح.

8- في نطاق تقطيع أوصال سورية إلى أربع دويلات طائفية، متناحرة.

ثمّة شهود كثيرون على جميع الأحداث التي ذكرت، في طول الغرب وعرضه. وبعضهم كتب تبجّحاً وتجبّراً، مثل المؤرّخ اليهودي الفرنسي المعاصر، "شارل اندرلان" (Charles Enderlin)، في كتاب له بعنوان "بالنار والدم"، صدر في باريس عام 2008، وهو يتحدّث فيه عن مختلف وسائل التآمر والعنف والقتل والإرهاب، التي استخدمتها المنظمات الصهيونية والإرهابية في فلسطين ضدّ السكان العرب، قبيل الإعلان عن نشوء دولة إسرائيل. وبعضهم كتب إقراراً منه بواقع تآمر الغرب وبعض العرب مع الحركة الصهيونية، على العرب، من أجل انتزاع أرض لليهود في فلسطين، مثل المؤرّخ اليهودي الفرنسي "دومينيك فيدال" (Dominique Vidal) في كتاب له صدر في باريس عام 1997، تحت عنوان:

"خطيئة إسرائيل الأصلية".

وهناك أيضاً شاهدان فرنسيان، يحمل توقيت شهادتهما، إشارة استفهام ضخمة، حول قدرة الصهيونية على الهيمنة السرية والسريعة على بلد برمّته، بحجم فرنسا. فالشاهد الأوّل يُدعى "الأب شارل" (Père Charles)، الذي كان مشهوراً في الخمسينيات من

القرن الماضي في الأوساط الجامعية الفرنسية. وقد وضع عام 1953، كتاباً بعنوان "حلّ المسألة اليهودية"، يدعو فيه علناً وصريحاً، إلى المسارعة من أجل حرمان اليهود في فرنسا، بقوة القانون، من حقّ المواطنة والتملك، لئلا يأتي يوم، يُفاجأ فيه الفرنسيون بتحوّلهم بين ليلة وضحاها، إلى عبيد لدى اليهود ليس إلاّ... ولكم يذكر هذا التحذير بما نسب إلى الرئيس بنجامان فرنكلين من تحذير مماثل وجّهه لمن كلّفوا بوضع الدستور الأميركي عام 1787!

أمّا الشاهد الثاني، فهو المفكر الفرنسي، "روجيه غارودي" (Roger Garaudy)، المشهور بمواقفه المؤيّدة لحقوق الإنسان، وبدفاعه عن القضية الفلسطينية، وبدعوته كذلك إلى الحفاظ على الطبيعة، وإلى كفّ الغرب الصناعي عن تدميرها. وله كتب كثيرة، دافع بها عن حقوق الشعب الفلسطيني، ومن أهمّها كتابه "قضية إسرائيل"، الصادر في باريس عام 1983. وإنّ ما جاء في مقدّمة كتابه هذا، منذ سطورها الأولى، ليجعلني أدعو قارئي، ليقارنه بما جاء في كتاب "الأب شارل"، يقول:

« نواجه موضوعاً "محرّماً" (تابو): الصهيونية ودولة إسرائيل. في فرنسا، يسع المرء أن ينتقد العقيدة الكاثوليكية أو الماركسية، أن يهشّم الإلحاد أو الوطنية، أن يدين أنظمة الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة أو جنوب إفريقيا، أن يدعو إلى الفوضى أو النظام الملكي، دون التعرض لأي مخاطر سوى الخطر المألوف في أي سجال أو دحض...

أمّا إن حاول الإنسان تحليل الصهيونية، فهو يلج عالماً آخر، إذ ينتقل من ميدان الأدب إلى ميدان القضاء: وذلك بموجب قانون صدر بتاريخ 1981/7/29، الذي يستهدف بحقّ التشهير بأيّ إنسان، بسبب انتمائه إلى

إثنية أو عرق أو دين معين، لأنّ انتقاد سياسة دولة إسرائيل والصهيونية السياسية القائمة عليها، تعرّضك للمحكمة الجنائية.

إنّ الانتقاد الأساسي لدولة إسرائيل – وأنا أعني بالأساسي، الانتقاد الذي يطال، لا هذا أو ذاك من الأعمال المعزولة، حتى لو كان جنائياً، ولكن انتقاد المنطق الذاتي لدولة مؤسّسة على مبادئ الصهيونية السياسية – يجرّ عليك التهمة الفورية بالنازية، ويجلب لك تهديدات بالموت.

إنّ مؤلّف هذه المحاولة، يسعه أن يشهد لذلك، لأنّه عرف هو نفسه، وللسبب عينه، ملاحقات قضائية، واتهاماً بالنازية، وتهديدات بالقتل! »

هذا عن فرنسا.

أمّا عن الولايات المتحدة، فحسب الإنسان أن يقرأ ما كتب بعض أهم سياسيّيها وباحثيها، مثل بول فيندلي، وديفيد ديوك، وجيمي كارتر، وادوارد تيفنان، وجون ميرشايمر وستيفان والت، ونعوم تشومسكي، وروبرت دول، والقائمة تطول... إلاّ أنّي أكتفي أخيراً بذكر عنوانين متشابهين من حيث المضمون والخطورة، وإن كان تاريخ صدورهما عرف فارقاً زمنياً لا يقلّ عمّا يقارب عشرين عاماً فقط، وهما كتاب "أميركا تحترق" لمؤلّفه "جيمس هيبرن"، الذي صدر عام 1968، وكتاب "أميركا في خطر" لمؤلفه الشهير "بول فيندلي"، الذي صدر عام 1985.

هذا بإيجاز كثيف، بعض ما يتعلّق بالنتائج التي أسميتها أولاً تلقائية وخفية، ثمّ مدروسة ومخططة، للعلاقات اليهودية-المسيحيّة عبر التاريخ، في نطاق دول الغرب الكبرى، ومن يدور في أفلاكها من دول غربية وعربية، وسواها الكثير. ولقد أفضت هذه

النتائج مجتمعة، وعلى نحو صارخ، إلى هيمنة الصهيونية هيمنة شبه كاملة على العالم المعاصر، وانتهت به إلى سيادة شريعة الغاب على جميع العلاقات الدولية، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وعلى الأخص منذ انهيار الاتحاد السوفييتي في آخر الثمانينات حتى اليوم، وإلى أمدٍ يبدو لي بعيداً...

أمّا على صعيد الكنائس الغربية، وهو الشقّ الذي يعنيني إلى أقصى حد، بوصفي كاهناً عربياً كاثوليكياً من سورية، فإني لأرى أنّ هذه النتائج كانت كارثية. ولا يسعني إزاء ما أرى وأستنتج كل يوم منذ عشرات السنين، إلاّ أنّ أعلن بالفم الملآن وبقلب مهصور غاضب، بأنّ كنائس الغرب كلّها، بدءاً خصوصاً من الفاتيكان نفسه، باتت بدورها تنوء، على نحو مفضوح ومخزٍ، بعقدة ذنب هائلة ومَرَضية، حيال كلّ ما هو يهودي، ومَن هو يهودي، وهي تُملي عليها مواقف، حيال سياسات الغرب الظالمة عامة، ثمّ حيال سياسات إسرائيل خاصة، أقلّ ما يقال عنها إنها لا تنبع البتّة من الإنجيل، بقدر ما هي تنبع من السعي الحثيث إلى حمل اليهود على نسيان هذا الماضي البائس، بل إلى ما يبدو لي طلباً ذليلاً للغفران من اليهود أنفسهم، عن طريق الصمت المطبق والدائم، إزاء كل ما يرتكبونه من مظالم فاضحة ومتواصلة، بدءاً من فلسطين، وامتداداً إلى العالم العربي والإسلامي كلّه، ولا سيما في سورية والعراق، تستدعي احتجاجات قوية لا تنتهي، ممّن يدّعون مسؤولية تمثيل السيد المسيح على الأرض، بكلّ ما تعنيه عظمته الاستثنائية، في شخصه وأعماله وأقواله، من عشق للإنسان، كل إنسان، ومن تقديس مطلق وغير مسبوق، لكلّ ما يمسّ حياة الإنسان وكرامته ومصيره، فرداً وجماعة وشعوباً!

ترى، هل قتلُ مسيحيّي الشرق العربي اليوم، على نحو مدروس ومنتظم، بيد قَتَلَةٍ جَلَبهم الغرب والصهيونية معاً، من مغاور الأرض كلّها، يغفر للكنيسة الغربية، اضطهادَها السابق لليهود، بل قتلَها لهم طوال مئات السنوات؟

ذلك هو السؤال الأوحد، الذي أريد أن أختم به دراستي هذه.
إنه برسم كلّ مؤمن بالإنسان.

الأب الياس زحلاوي
دمشق في 2015/9/25

الفهرس

بمثابة مقدمة - بعض الحاضر في ضوء الماضي 11

الفصل الأول

اللاسامية في العصور القديمة 19

السؤال - المفتاح: 19

الفقرة الأولى: من البدء حتى نهاية العصر الهيليني 20

الفقرة الثانية: في ظل الإمبراطورية الرومانية 29

1) **التواصل بين العالم الإغريقي، والعالم الروماني** 29

2) **في فلسطين** 29

3) **في روما** 30

4) **النزاع الأكبر: الدين** 31

5) **الواقعية الرومانية وسياسة الامتيازات** 32

6) **أخطر مراحل الصدام** 33

7) **موقف الشعب من اليهود** 35

8) **موقف المثقفين** 36

بمثابة خاتمة 38

الفصل الثاني

ذاك المسمّى يسوع 41

الفصل الثالث

الصراع المكشوف 47

الفصل الرابع

المواجهة الحاسمة 53

الفصل الخامس

المنعطف الكبير: القرن الرابع 61

الفقرة الأولى: تلاقي السياسة واللاهوت 61

الفقرة الثانية: امتداد السياسة واللاهوت في التشريع والحياة 68

الفصل السادس

مـدّ وجـزر: حقبة القرون الوسطى 77
I- السقوط البطيء 77
1) "إيطاليا" وقبائل القوط 79
2) في إسبانيا 87
3) في عهد القبائل الفرنكية 90
4) في الإمبراطورية الفارسية 92
5) فرنسا مرة أخرى: العصر الذهبي 93
II- في القاع 98
1) طلائع الحملات "الصليبية" 99
2) تورّط اليهود في الربا 104
3) اتهام اليهود بقتلهم مسيحيّين في أسبوع الآلام 107
4) البابوية واليهود 109
5) إحراق التملود 110
6) نحو مزيد من الشقاء 112
7) الطاعون 115
8) وضع اليهود في انجلترا 120

الفصل السابع

واحة سلام... قبيل الإعصار! 123
1) في إيطاليا 123
2) أسس التسامح 128
3) العصر الذهبي في إسبانيا 131
4) كنه لاسامية القرون الوسطى 141

الفصل الثامن

في زمان المنعزلات السكنية: "الغيتو" 145
1) أيّ منعـزلات؟ 145
2) عهد التشرذم 151
3) في خضم الثورات الثقافية والدينية في ألمانيا 153

4) في روما 157
5) في بولونيا 158

الفصل التاسع
النضال من أجل التحرر 163
1) اليهودية في مواجهةٍ مع ذاتها 165
2) التحرر السياسي، هنا وهناك..... 168
3) ثورة اقتصادية 173
4) اللاسامية في روسيا 177
5) ما هو رصيد هذا التحرّر السياسي؟..... 184

الفصل العاشر
أسطورة الأعراق ونتائجها 189
1) التطور في فرنسا..... 197
2) ماذا عن بلدان غربية أخرى؟..... 203
3) وماذا عن اليهود في رومانيا وبولونيا؟..... 209

الفصل الحادي عشر
النازية وحلّ المسألة اليهودية..... 211

الفصل الثاني عشر
حروب داخلية..... 237

الفصل الثالث عشر
اللاسامية في الاتحاد السوفييتي 247

الفصل الرابع عشر
اللاسامية في الولايات المتحدة..... 255

الفصل الخامس عشر
الحقيقة الساطعة... المغيَّبَة 267
الفهرس..... 279
المراجع..... 282
صدر للمؤلف..... 291

المراجع

	المؤلف	العنوان	دار النشر	السنة
	Écrivain	**Livre**	**Édition**	**Année**
		A		
1	ACCOCE Pierre et Dr Pierre Reutchinck	Ces malades qui nous gouvernent	STOCK	1976
2	ATZMON Gilad	La Parabole d'Esther	RESISTANCES	2012
3	ACCATTOLI Luigi	Quand le Pape demande pardon	ALBIN MICHEL	1997
4	ATTALI Jacques	Les Juifs, le Monde et l'Argent	FAYARD	2002
5	AVNERI Uri	Israël sans sionisme	SEUIL	1968
		B		
1	BEN GOURION David	Ben Gourion parle	STOCK	1976
2	BUCAILLE Laetitia	Gaza: La violence de la Paix	Presses de Sciences PO	1998
3	BERG Roger CHEMOUNY Chalom DIDI Franklin	Guide Juif de France	MIGDAL	1971
4	BURG Avraham	Vaincre Hitler	FAYARD	2007
5	توفيق يوسف بولاد	تاريخ الفنون والصناعات الدمشقية	ألف باء	2003
		C		
1	CLARKE G. James	L'enjeu chrétien au Proche-Orient	Centurion	1965
2	د. ماهر الشريف	قرن على الصراع العربي – الإسرائيلي	المدى	2011
3	CADIOT Jean-Michel	Les Chrétiens d'Orient	SALVATOR	2010
4	CORBON P. Jean	L'Église des Arabes	CERF	1977
5	CHARLES l'Abbé	Solution de la question juive	La Renaissance Française	1953
6	CORM Georges	1/ Le Proche-Orient éclaté	La Découverte	2015
		2/ Pensée et politique dans le monde arabe	Folio Histoire	2008
		D		
1	ديفيد ديوك	الصحوة	دار الفكر	2002
2	D'ARGONNE Marc Boureau	Irak: Guerre ou Assassinat programmé?	F-X de GUIBERT	2002

E

1	EBAN Aba	1/ Mon peuple	BUCHET-CHASTEL	1975
		2/ Mon pays	- - - - - -	- - - - - -
2	ENDERLIN Charles	Par le feu et par le sang	ALBIN-MICHEL	2008

F

1	FLANNERY Edward H.	L'angoisse des Juifs	MAME	1969
2	FINDLEY Paul	1/ Deliberate Deceptions	Laurence Hills Books	1993
		2/ أميركا في خطر	شركة المطبوعات للتوزيع والنشر	2011

G

1	GHALI Ibrahim Amin	1/ L'Égypte et les juifs de l'antiquité	CUJAS	1969
		2/ L'Orient Chrétien et les juifs	CUJAS	1970
		3/ Le Monde Arabe et les juifs	CUJAS	1972
2	GARAUDY Roger	L'Affaire Israël	PAPYRUS	1983
3	GIRARD Patrick	Les Juifs de France de 1789 à 1860	CALMANN-LÉVY	1976
4	GLAZER Nathan	Les Juifs américains du 17^{e} siècle à nos jours	CALMANN-LÉVY	1972
5	GOICHON Anne-Marie	Jérusalem: fin de la ville universelle?	MAISONNEUVE-LARON	1976

H

1	HEPBUR James	L'Amérique brûle	Nouvelles Frontières	1968
2	HERZL Théodore	L'État Juif (+ extraits du journal)	STOCK + PLUS	1981
3	HAYEK Michel	Les Arabes ou le baptême des larmes	GALLIMARD	1972
4	HITTI Philippe	تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (1-2)	مؤسسة فرانكلين	1958
5	HITTI Philippe	تاريخ العرب (1-2)	دار الكشاف	1965
6	اليكسي جورافسكي	الإسلام والمسيحية	عالم المعرفة	1996

I

1	ISSAC Jules	Genèse de l'Antisémitisme	CALMANN-LÉVY	1956

J

1	JUDANT D.	Judaïsme et Christianisme	ÉDITION DU CÈDRE	1969

K

1	KIMCHE John	Palestine ou Israël	Albin Michel	1973
2	KIMYONGÜR Bahar	Syriana	Investy' Action	2011
3	KOCHAN Lionel (groupe de chercheurs)	Les Juifs en Union Soviétique	CALMANN-LÉVY	1971
4	KALISKY	Sionisme ou dispersion	Marabout	1974

L

1	LAQUEUR Walter	La vraie guerre du Kippour	Calmann-Lévy	1974
2	LAPIDE Pinhas	Rome et les juifs	Seuil	1967
3	LOVSKY F.	La déchirure de l'absence	Calmann-Lévy	1971
4	LAQUEUR Walter	Histoire du Sionisme	Calmann-Lévy	1973
5	LANDOUZIE Jean	Le Don de la Terre de Palestine	Thèse de Doctorat	1974
6	LE PEN Jenny	SOS enfants d'Irak	Objectif France	2001
7	LABÉVIÈRIL Richard et EL-ATRACHE Talal	Quand la Syrie s'éveillera	Perrin	2011

M

1	MEIRSHEIMER John et STEPHEN Walt	Le Lobby pro-israélien & La politique étrangère américaine	La Découverte	2007
2	MERCILLON Patrick H.	Ismaël Israël	E. P. A.	1979
3	MEMMI Albert	Juifs et Arabes	Gallimard	1974
4	عبد الوهاب المسيري	الصراع العربي الإسرائيلي	دار الفكر	2003

N

	NICAULT Catherine	La France et le Sionisme (1897-1948)	CALMANN-LÉVY	1992

O

1	حسين العودات	1/ العرب النصارى	الأهالي	1992
		2/ الآخر في الثقافة العربية	دار الساقي	2010

P

1	POLIAKOV Léon	Histoire de l'Antisémitisme		
		1/ Du Christ aux juifs de Cour	CALMANN-LÉVY	1955
		2/ De Mahomet aux Marranes	- - - - - -	1965
		3/ Les banquiers juifs et le Saint Siège	- - - - - -	1967
		4/ De Voltaire à Wagner	- - - - - -	1968
		5/ L'Europe suicidaire	- - - - - -	1977
2	PIETRI François	Napoléon et les Israélites	BERGER-LEVRAULT	1965

S

1	SACHAR A. Léon	Histoire des Juifs	FLAMMARION	1973
2	أحمد سوسة	العرب واليهود في التاريخ	العربي للإعلان والطباعة والنشر	1973
3	SEVELA Ephraïm	Adieu Israël	GUY AUTHIER	1977
4	SCHWARZFUCHS Simon	Les Juifs de France	ALBIN MICHEL	1975
5	SANTOGROSSI Ansgar	L'Évangile prêché à Israël	CLOVIS	2002

V

1	VIDAL Dominique	Le Péché originel d'Israël	ATELIER	1998

W

1	WEINSTOCK Nathan	Le Sionisme contre Israël	MASPÉRO	1969
2	WARSHAWSKI Michel	Sur la Frontière	STOCK	2002

Y

1	YALIN – MAR	Israël, Ismaël	Presses de la Renaissance	1978
2	YACOUB Joseph	Menaces sur les Chrétiens d'Irak	CLD	2003

Z

1	ZAHLAOUI Elias	1/ عندما يطلب البابا الغفران	Damas	2011
		2/ من أجل فلسطين	دار عطية	2004
		3/ أمن أجل فلسطين وحدها؟	منشورات مركز الغد العربي للدراسات	2006
2	نقولا زيادة	المسيحية والعرب	قُدمُس للنشر والتوزيع	2000

صدر للمؤلف

1- باللغة العربية:

1. **عرب مسيحيون أو مولد إيمان - مطبعة الأديب (دمشق) - 1969.**
2. **حول الإنجيل وإنجيل برنابا - المطبعة البولسية (لبنان) - 1971.**
3. **المدينة المصلوبة (مسرحية) - منشورات وزارة الثقافة - 1973.**
4. **الطريق إلى كوجو (مسرحية) - منشورات اتحاد الكتاب العرب - 1976.**
5. **المجتمع والعنف (مترجم) - منشورات وزارة الثقافة - 1976.**
6. **مجد الله هو الإنسان الحي**
   بالتعاون مع أفراد أسرة الرعية الجامعية (دمشق) – 1977
7. **يقينان وسؤالان**
   منشورات جيش التحرير الفلسطيني – 1979
8. **تاريخ المسرح في خمسة أجزاء (مترجم)**
   منشورات وزارة الثقافة 1979– 1989
9. **فكر هيجل السياسي (مترجم)**
   منشورات وزارة الثقافة – 1981
10. **وجبة الأباطرة (مسرحية)**
    منشورات اتحاد الكتاب العرب – 1981
11. **شهود يهوه، من أين وإلى أين؟**
    مطبعة دار العلم (دمشق) – 1991
12. **الصوفانية** (1982-1990)
    مطبعة الحرية (لبنان) – 1991
13. **اذكروا الله**
    (ترجمه عن الفرنسية أديب مصلح) المطبعة البولسية – 1995
14. **سيدة الصوفانية**
    القاهرة – 1997
15. **ومن الكلمات بعضها**
    المطبعة البولسية – 1997

16. **من أجل فلسطين**
دار عطية – بيروت 2004

17. **هروبي الأخير مع يسوع المسيح (مترجم عن الفرنسية)**
المطبعة البولسية – 2004

18. **أمن أجل فلسطين وحدها؟**
منشورات مركز الغد العربي للدراسات – 2006

19. **الصوفانية خلال 25 عاماً (ثلاثة مجلدات)**
دار المجد للطباعة والنشر – 2008

20. **تأملات – دار المجد للطباعة والنشر** – 2009

21. **تأملات في إنجيل القديس يوحنا- دار المجد للطباعة والنشر** – 2010

22. **مجموعة من العظات**
دار المجد للطباعة والنشر – 2010

23. **عندما يطلب البابا الغفران (مترجم عن الفرنسية)** – 2011

24. **مجموعة من العظات** – 2011

25. **قد يكون لي ما أقوله!** – 2014

26. **الأب الياس يعقوب (ملاك الساحل السوري)** – 2015

27. **الكابوس الأميركي لـ روبرت دول (مترجم) – وزارة الثقافة** – 2015

28. **إمبراطورية العار لـ جان زيغلر (مترجم) – وزارة الثقافة** – 2015

29. **جوقة الفرح، من دمشق إلى العالم** – 2015

30. **الوجه الآخر للقمر (الأب يوسف معلولي)** – 2016

2- باللغة الفرنسية:

1- **Soufanieh**
Chronique des apparitions et manifestations de Jésus et de Marie à Damas (1982-1990) Editions François - Xavier de Guibert. 1991. Paris.

2- **Souvenez - vous de Dieu**
Messages de Jésus et de Marie à Soufanieh.
Damas (1982-1990) Editions François - Xavier de Guibert. 1991. Paris.

3- SOUFANIEH EN SYRIE et DANS LE MONDE
Damas - 2014.